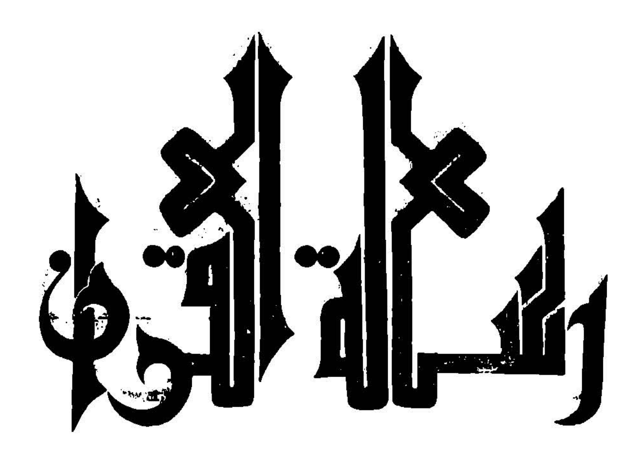


العدد الخامس

محرم، صفر، ربيع الأول ١٤١٢ هـ







نشرة فصليّة تعنى بالشؤون القرآنيّة
تصدرها دار القرآن الكريم

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم-دارالقرآن الكريم

ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

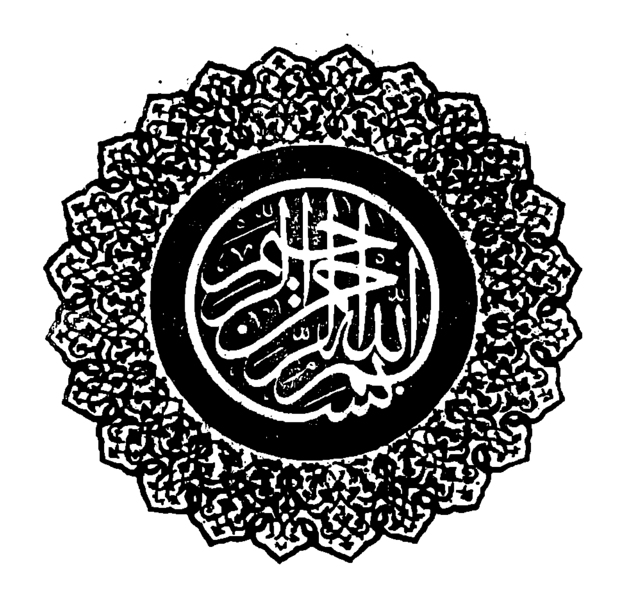


- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها
- النشرة غير ملزمة بأعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

الثمن: ٥٠٠ توماناً أو مايعادلها

المحتويات

* * *



اعتذار

نعتذر للقراء الكرام، عن التأخير الحاصل في صدور هذا العدد، والناجم عن أسباب خارجة عن ارادتنا.

التحرير

الى البديل الحضاري

«وَكَذلِكَ جَعَلنَاكُم أُمَّة وَسَطاً لِتَكُونُوا
شُهَداءَ على النّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
عَلَيكُم شَهِيداً» (البقرة:١٤٣).

منذ هبوط أبينا آدم -عليه السلام... وحتى عهد خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله، كان هناك خط متصل. متصاعد ومتكامل، ...ذلكم هو خط التوحيد. منهج الله للبشرية، ويكمن فيه وحده صلاحها في الدنيا، وسعادتها في الآخرة.

وانبثقت، تحت راية التوحيد، حضارة توحيديه، رائدة، فذة... وظلت البشرية تتفيأ ظلال هذه الحركة الحضارية، التى أرسى أسسها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولتصل الى مدياتها المتألقة، حينما تهاوت عُروش القياصرة والأكاسرة تحت أقدام أتباع محمد صلّى الله عليه وآله.

ولم تبقَ تلك النقلة النوعية أسيرة الإستئثار أو الإحتكار كما أنها لم تظل تدور في بعد واحد... بل شقت رسالة التوحيد طريقها لتؤثر في كل مجالات الابداع الحضاري وغدت اشعاعاتها تنطلق في كل اتجاه، وليضيء سناها دياجيرالعالم كلّه شرقاً وغرباً... وأينما تتوجه الأنظار تجد بصمات التوحيد وحضارته الفريدة. وليس من شك أبداً أن جوهرالحضارة الإسلامية هو الإسلام، وجوهرالإسلام هو التوحيد.

* * *

ويوم تخلّى المسلمون عن دورهم التاريخي، سقطت راية الهدى، وارتفعت راية الضلال... وحينما حاول البعض أن يتحسس موقعه في هذا الظلام الدامس، بحثاً عن سبيل للخروج من

المأزق، طفق المنهزمون يتشبثون بأمجاد غابرة، وحضارات بائدة. في محاولة للبحث عن هوية... وهكذا أُغرقت آذان المسلمين بالتغني بحضارات الفراعنة، والفينيقيين، والبابليين، والآشوريين. وقد ذهب البعض منهم الى الاشادة -بمناسبة وغيرمناسبة- بمآثر «كورش» وأمجاد العرب العاربة والمستعربة!!

كل هذا يجري، وسط تجاهل مقصود ومريب لأعظم حركة حضارية في التاريخ، تناوب على تفجيرها الأنبياء والصالحون على امتداد مسيرة البشرية.

ولانأتي بجديد، إذا ما أكدنا على أن أمّة الإسلام تمثل الإمتداد الرسالي والحضاري لحركة الأنبياء والرسل... هذه الحقيقة التي يتجاهلها اليوم بعض ابناء المسلمين والمحسوبين عليهم... فيما يكيد لنا أعداء الإسلام -ليل نهار- لتمييع شخصيتنا، عبر إقصاء الإسلام عن الحياة، وترويج المبادئ الجاهلية. تكريساً لحالة التبعية الشاملة.

* * *

حتى الأمس القريب جداً، أمسى المسلمون هدفاً رئيسياً لمخططات الاستقطاب، ضمن تنافس محموم بين معسكري الكفر الغربي والالحاد الشرقي. واندفعت النخبة المتغربة الى الإحتماء بأحد هذين المعسكرين والارتماء في أحضانه -حتى النخاع- وأطبق التغريب على كل مناحي الحياة السياسية، والثقافية، والإقتصادية... وحتى التقاليد والأعراف الإجتماعية لم تسلم من التأثيرات السلبية للغرب، وحضارته الغارقة في وحول المادية.

وبتلك الدعوات الفكرية تمزقت وحدة الأمة المسلمة، وأصبح المسلمون شتاتاً مهزوماً، تتجاذبه التيارات، وتتقاذفه موجات الصراع... فيما كانت مصالح المستعمر الكافر تترسخ يوماً بعد يوم...

وقبل أن يكتمل عقد الثمانينات، من هذا القرن العشرين... بدأ صنم المعسكر الشرقي يتهاوى، وبذا يكون أحد قطبي الإستكبار قد انحسر عن الساحة الدولية غير مأسوف عليه. ورغم أن حُرّاس النظام الدولي الجديد يبشرون البشرية، بين الفينة والأُخرى، أن الحرب الباردة قد وضعت أوزارها، بيد أن هناك العديد من المؤشرات التي تفضي -في التحليل النهائي- الى أن ثمة حرباً باردة، أو حتى ساخنة، سيُفتح ملف فصولها بقوة، وليس هناك

من عدو حقيقي للغرب -وإن شئنا الدقة للصليبية الجديدة- سوى الإسلام.

من هنا فان الإسلام يكون قد أصبح -في قاموس الاستراتيجية الغربية- هو الطرف المقابل في عملية الصراع...

صحيح أن «المعركة مع المصحف» لم تتوقف يوماً ما، بيد أنها ستكون هذه المرّة أكثر ضراوة، وأشد عنفاً، وأبشع همجية، وأوسع خبثاً. وستُستخدم فيها كل الأسلحة التقليدية والتدميرية، عبر الأساليب المعروفة والمكتشفة، وما ذلك إلاّ لأنهم ذهلوا حينما اكتشفوا أن الإسلام لايزال يحمل سرّ قوته، وقدرته الفائقة على الإنبعاث، والعودة الى المسرح... نظراً لما يحمل في جوهره من رسالة عظيمة، وأصالة فريدة، وحضارة عريقة، وقيم سامية...

* * *

ولكن كيف يتسنى للبديل الإسلامي أن يتبوأ موقعه الحضاري، وسط هذا التكالب المسعور ضد الإسلام. والمدعوم بقوة من قبل قوى التغريب والتجزئة والتخلّف؟

إن الأمّة الإسلامية -كما يقول أحد المفكرين الإسلاميين المعاصرين- وهي تحاول الخروج من أزمة القرنين الماضيين تحتاج لكل عناصر النهوض والقيم العاملة في دمها الآن، ومن خلال تفاعل تاريخي طويل، قد يمتد لعدة عقود ستطرح في النهاية ملامح مشروعها النهائية وإسهامها كمستقبل للإنسان...

وليس من الصعب أن نشاهد الى أي حد تحاول القوى الكبرى في العالم الحيلولة دون تعميق روابط وحدة الأمّة الإسلامية والغاء حدود التجزئة في الوطن الإسلامي... ومهما كان الخطر الذي يمكن أن يوجهه الإسلاميون من القوى الإستعمارية إن هم أعلنوا نواياهم تجاه موضوع الوحدة، فإنّ الواجب الإسلامي والواقع الإسلامي يحتّمان أن تكون موضوعة الوحدة الإسلامية على رأس أولويات أي مشروع إسلامي نهضوي.

إن الوحدة الإسلامية هي الرد الوحيد على عامل التجزئة، وبالتالي لايمكن بدونها إلحاق الهزيمة بالطرف الآخر، وإعادة المسلمين الى حيث الطريق الذي تنكبوه، ففقدوا مجدهم، وعزهم... وحضارتهم.

ولئن كان البعض من الإقليميين والعلمانيين يستكثر على الإسلاميين منذاداتهم بالوحدة

الإسلامية كخطوة نوعية للخروج من المأزق الذي يعانيه المسلمون اليوم، ويئنون تحت وطأته... فإن الزمن قد دار دورته... وها هي اوربا تخطو خطوات واسعة نحو الوحدة الأوربية... رغم الفواصل العرقية والمذهبية إذ لم يجمع ابناء اوربا دم أو لغة او مذهب ديني بعينه وكل مالديهم وثنية إغريقية تلفعت بعباءة بقايا النصرانية.

أليس الاولى بالمسلمين أن يبادروا الى مثل هذه الخطوة، وهم أتباع دين واحد، وقبلة واحدة، وكتاب واحد... ورسول واحد؟

والى جانب العامل الدولي الذي لايروق له كثيراً أن يرى الإسلام وقد عاد ليمارس دوره في الإسهام الحضاري الرائد... يضيف البعض من المتشائمين الجهود الحثيثة التي تبذلها بعض الأطراف لتعميق الهوة بين المسلمين من سُنّة وشيعة. مما يجعل مهمة توحيد المسلمين أشبه بالمستحيل، خاصة وأنهم يرون رؤيا العين المجردة مدى ضخامة الأموال التي تبذل لهذه المهمة القذرة المعروفة الأهداف والمنطلقات.

ورغم اننا لا نقلل من أهمية ذلك، إلاّ أن تجاوز هذه العقبة ليس مستحيلاً البته. فلقد شخص الحد الأدنى عن العلاج احد روّاد الوعي الإسلامي الحديث وقبل حوالي نصف قرن من الزمان حينما اطلق مقولته المعروفة نعمل بمانتفق عليه ويعذر بعضنا البعض في مانختلف فيه.

وفي ضوء هذه التحديات -الخارجية والداخلية- فان ثمة مهمات ثقيلة تنتظر أبناء القرآن... ثقل رفع الأنقاض، وإعادة البناء من جديد، عبر مشروع نهضوي تتوفر فيه مقومات التكامل: سُمُو الروح... وابداع العقل... وبذا يكون المسلم المعاصر قد استرد ثقته بنفسه... واستعاد توازنه المفقود... واستأنف دوره الغائب.

التحرير

قراءة القرآن الكريم وتجويده
بين التغني به وتحسين الصوت

الدكتور زهير سليمان



الحديث في القرآن هو الحديث عن الكـون والحـيـاة، لكـن الحـديث عن القرآن هو وظيفة إسلامية وإنسـانيـة يقتضي معهـا الأعتنـاء بهذا الكتاب الخالد النقي المحفوظ، والسير في كنهـه وجـوهـره، والحـرص على آدابـه المتعـددة، في قراءته، أو التعامل معه، أو التعـريف به، أو دراسته، لاسيما حينما نعلم أنه الكتاب السماوي الخاتم للوحي، والمتضمن لب اللباب لما ينطوي عليه من أسرار وجـواهـر مكنـونة رواء للصادي، وبلاغته التي أعجزت البلغاء عن الوصول اليها، وقصرت أقلام الأدباء عن بيان علو مقامه، وكيف وهو كتاب الله تعالى الذي **(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)**[1]، بل أضافة الى تحـديه للعرب وخبراء بلاغتهم انه أمتاز على كل المعجـزات بأنـه باق حجة في كل زمان ومكان.

ولاغـرو من الأعـتـنـاء الواقـي والحـرص الكبير على كتاب وصفه الأمام أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، حينما سأله رجل، بقوله «ما بال القرآن لايزداد على النشر والدرس الا غضاضة؟

فقـال عليه السلام: لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل

قوم غض الى يوم القيامة»[٢] وكما تصفه الزهـراء البتول سيدة نساء العالمين(ع) «كتاب بيّنة بصائره وآي منكشفة سرائره، وبـرهـان متجليـة ظواهـره، مديم للبرية استمـاعـه، وقائد الى الرضوان اتباعه، ومؤدّ الى النجاة أشياعه......»[٣].

فكـان الأعتنـاء بالقـرآن من أول نزوله على نبي العـرب والعجم صلى الله عليه وآله حين أمر «عليه وآله السلام» أن يكتب، ويحفظ، ثم أعتناء أمير المؤمنين علي بالقرآن وانشغاله بجمعه وعمل حاشية له بالتبيـان لبعض موارده. ولذا يقول عليه السـلام، في أحـدىٰ وصاياه «إعلموا أن القـرآن نور الليل المظلم على ما كان من جهد وفاقة»[٤].

ولذا فقد أعتنىٰ المسلمون بجمعه حتى كان هذا الذي بين الدفتين من دون زيادة ولا نقصان، كما يعتقده أتباع مذهب أهل البيت(ع) (الشيعة) وقسم كبير من المسلمين الآخرين.

وأُعتني في تفسيره ونال هذا الجانب الدرجـة الأولى بعد جمعه، حيث باشر في تفسـيره الصحـابـة الأوائل كأبن عباس الذي «نمّىٰ هذا الأستعـداد في نفســه ملازمته للأمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بعد أنتقال الرسول الى الرفيق الأعلىٰ، و«علي» كما نعلم باب هذا المنهل الفيـاض من علوم النبـوة وواضع حجر الأســاس في الـحـضـارة الروحـيـة الأسـلامية»[٥] ثم من تلاه من المفسرين، على أختــلاف طبقـاتهم، وتبـاين آرائهم ومـذاهبهم، سواء آثـر جانب المنقـول، واكتفىٰ بمـا جاء في الحـديث والتفسـير بالأثـر، كمـا فعـل ابن جريـر الطبـري، والجـلال السيـوطي في الدر المنثـور في التفسـير بالمـأثـور» أو من انتهج مذهب الجدل والفلسفة كتفسير الفخر الرازي، أو من أعتنىٰ بعلوم العربية وبلاغتها، أو من ذهب بالمناهج الفكرية أو الفقهية، أو من جعـل من تفسيره دائرة معارف عامة شاملة... الخ.

وكـذلك أعتني بقراءة القرآن الكريم، وحفظه، وتجويده، وأظهاره بالمظهر اللائق، لأن القــراءة الوسيلة النـاجحـة في فهم القـرآن الكريم، حيث نص القرآن المجيد نفسه على ذلك، حيث يقول سبحانه (* **الذين آتينـاهم الكتـاب يتلونـه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**)[٦].

وقوله جلت قدرته (**إن الذين يتلون**

كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور[٧].

القرآن أفضل العبادة:

جاء عن نبي الرحمة كما في مجمع البيان أنه صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «أفضل العبادة قراءة القرآن»[١٨].

كما جاء عن الأمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في صفات اتباع مذهب اهل البيت(ع): «إنما شيعة علي(ع) الناحلون، الشاحبون، الذابلون، ذابلة شفاههم من الصيام.....» الى أن يقول «كثيرة صلاتهم، كثيرة تلاوتهم للقرآن، يفرح الناس ويحزنون»[٩].

بل كان المسلمون يتبارون بقراءة القرآن ويستشهدون فيه ويتحاجون عنده، ولايقرأونه بالطريقة التي درج عليها المسلمون الان، فضلاً عمن لايعرف قراءته، وكانوا يتشوقون اليه ويجلّونه كثيراً ويستفتحون به، ويرافقونه دائماً، وينامون عليه ويصبحون فيه، شوقاً لمقامه وما يأملون به، حيث قال أبو عبدالله(ع) «يدعىٰ ابن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن أمامه في أحسن صورة فيقول: يا رب أنا القرآن وهذا عبدُك المؤمن قد كان يتعب نفسه بتلاوتي، ويطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه أذا تهجد فأرْضه كما أرضاني.

قال: فيقول العزيز الجبار: عبدي أبسط يمينك فأملأها من رضوان الله، ويملأ شماله من رحمة الله، ثم يقال: هذه الجنة مباحة لك فأقرأ وأصعد، فأذا قرأ آية صعد درجة»[١٠].

وهناك الكثير من الروايات الصحيحة السند والمعتبرة تشيد بقارىء القرآن، حتىٰ لايكون القرآن مهجوراً مضيعاً.... كما فيه جوامع النعم، والخير، والحكمة، وهو البادىء بالحمد، والثناء، والشكر لله الواحد الصمد.

القراءة بالصوت الحسن:

ومن الأمور المهمة التي أكدت عليها الشريعة المباركة هو أستحباب قراءة القرآن الكريم بالصوت الحسن، لأظهار عظمته وأستذاقة فنه وكما كان يفعل الرسول(ص) والأئمة الأطهار من آله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فقد ورد عن رسول الأنسانية محمد(ص) قوله «أقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وأياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر،

فأنه سيجيء من بعدي أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية، لايجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم»[11].

كما جاء على لسان الرسول(ص) عن الأمام أبي عبدالله(ع) قال: قال النبي(ص) «لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن»[12].

وعن الأمام الصادق(ع) قال «كان علي بن الحسين صلوات الله عليه أحسن الناس صوتاً بالقرآن وكان السقاؤون يمرون فيقفون ببابه يسمعون قراءته، كما كان أبو جعفر(ع) احسن الناس صوتاً[13].

ولم يقرأ المسلمون كتابهم قراءة المالّين بل كما قال الرسول(ص) «حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا»[14].

حرمة التغني بالقرآن:

لكن الحرمة العظمىٰ لكتاب الله والمكانة المقدسة للقرآن المجيد توجب رفع القرآن عن المقاصد السيئة غير اللائقة به، والتي لاتتناسب وكلام الله المجيد، سواء ما يتعلق بالآداب العامة أو القراءة الغنائية، فقد ورد عن الخلف الصالح وما تعارفت عليه السنة المطهرة من حرمة الغناء، حتىٰ وصفوه بقول الزور الذي ورد في القرآن الشريف.

وحيث أن ما يترتب عليه الغناء لايجوز في خط القرآن الكريم، ولافي شكل قراءته ولايناسب مقام كلام الله قط، لما يمتاز به هذا الكلام من العلو والرفعة، ثم الهدف المنشود فيه والنازل لأجله.

* * *

التعريف بالصوت الحسن وكذا الغناء:ـ

وقبل الولوج في الحديث عن الصوت الحسن وكذلك الغناء، يمكن أن نعرف الأثنين، كما هو المتعارف عليه.

فتحسين الصوت يكون بتحسين اللفظ، والمكث عنده، وتقطيع التلاوة. نعم التحسين هو مايضاف على التجويد، من أصدار الصوت بما ينبغي من التفاعل مع الذكر الحكيم، لجلب نظر السامع وتوجيهه الى المعاني، بحيث يظهر التأثر عليه علناً أو ذاتاً في نفسه، فيحس بالجذب للقراءة، ويضاف الى ذلك أن يقرأ القرآن بالحزن كما ورد عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال «إن القرآن نزل بالحزن فاقرأوه

بالحزن»[١٥].

وقد جاء في الكافي أيضاً عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله(ع) قال: إن الله عزوجل أوحىٰ الى موسى بن عمران(ع) «إذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقير، وإذا قرأت التوراة فأسمعنيها بصوت حزين»[١٦].

ولذلك فأن قراءة القرآن بصوت حسن مندوب في الشريعة، وأن تأثير السماع للصوت الحسن الخالي من الترجيع، ومن شكل الغناء كما سيأتي، يختلف أختلافاً جوهرياً وليس فقط أحتلافاً ثانوياً يتعلق بالترنيم والتنميق. كما أن الأيقاع الموسيقي يختلف في تحسين الصوت عن الغناء. حيث إن في تحسين الصوت لايأخذ نفس الوتيرة والقافية والأسترجاع، كما هو المعروف في الغناء.

أما في الغناء فأن الأيقاع الموسيقي يسيطر على الحالة، وبذبذبات متناسقة ومسترجعة، تخلو من الخشوع والتأدب، بل تذهب الى أكثر من ذلك، لتسلب الأتزان والأستقرار. فضلاً عن الأهداف والأبتغاءات.

أما الغناء، فقد ورد تعريفه في المعجم الوسيط: «هو التطريب والترنم بالكلام الموزون وغيره، يكون مصحوباً بالموسيقىٰ»[١٧].

والمغنّي: محترف الغناء.

وفي مجمع البحرين غناء: كـ (كساء) وهو الصوت المشتمل على الترجيع المطرب، أو ما يسمىٰ بالعرف غناء وإن لم يطرب سواء كان في شعر أو قرآن أو غيرها.

وقال الشافعي: الغناء تحسين الصوت وترقيقه.

وفي السرائر: أنه الصوت المطرب.

وفي الشرائع وجامع المقاصد، أنه: الصوت المشتمل على الترجيع المطرب، وقيل أنه الصوت اللهوي[١٨].

كما قيل ايضاً وهو التعريف الذي جاء به الشيخ محمد رضا آل الشيخ في تفسير الغناء بأنه صوت الأنسان الذي من شأنه إيجاد الطرب بتناسبه لمتعارف الناس.

والطرب: هو الخفة التي تعتري الأنسان فتكاد أن تذهب بالعقل وتفعل فعل المسكر المتعارف[١٩].

ولذا لايعتبر الحداء أو النشيد من الغناء[٢٠].

وبالتالي فأن القراءة الجيدة وحسن الصوت لايرقىٰ الى هذا الحد من التغني

بالقرآن الذي لايليق به ذلك، ومن جوز التغني فأمره الى الله تعالى.

وقراءة القرآن بالتغني حرام لدىٰ كافة المذاهب الأسلامية، وَبَيَّن الفقهاء والعلماء ذلك في كتبهم وبحوثهم، ومما جاء في «عيون الأخبار» عن الأمام أبي الحسن علي بن موسىٰ الرضا عن آبائه عن علي(ع) قال:

سمعت رسول الله(ص) يقول: أخاف عليكم أستخفافاً بالدين، وبيع الحكم، وقطيعة الرحم، وأن تتخذوا القرآن مزامير، تقدمون أحدكم وليس بأفضلكم في الدين»[٢١].

وجاء في الوسائل أيضاً، عن سليمان بن مسلم الخشاب، عن عبدالله بن جريح المكي، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبدالله بن عباس، عن رسول الله(ص) في حديث له:

إن من أشراط الساعة إضاعة الصلوات، وإتباع الشهوات، والميل الى الأهواء... الى أن قال.. فعندها يكون أقوام يتعلمون القرآن لغير الله، ويتخذونه مزامير، ويكون أقوام يتفقهون لغير الله، وتكثر اولاد الزنا، ويتغنون بالقرآن،.... الى أن قال: يستحسنون الكوبة والمعازف، وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... الى أن قال: فأولئك يدعون في ملكوت السموات الأرجاس والأنجاس»[٢٢].

وفي الوسائل في باب تحريم الغناء حتىٰ في القرآن جاء في الحديث عن النبي(ص) قوله: إذا عملت أُمتي خمس عشرة خصلة حلّ بهم البلاء؛ إذا كان الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والصدقة مغرماً، وأطاع الرجل أمرأته، وعصىٰ أمه، وبرَّ صديقه، وجفا آباه، وأرتفعت الأصوات في المساجد، وأُكرم الرجل مخافة شره، وكان زعيم القوم أرذلهم، ولبسوا الحرير، وأتخذوا القينات والمعازف، وشربوا الخمور، وكثر الزنا فأرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً أو مسخاً، وظهور العدو عليكم ثم لاتنصرون»[٢٣].

وهناك العديد من الروايات والأحاديث التي تمنع ذلك وما تظافر آراء العلماء والفقهاء إلا إتحاد بالأتفاق.

اتفاق المسلمين على حرمة التغني بالقرآن:ـ

وما أجمع عليه علماء مذهب أهل البيت(ع) فقد أتفق عليه علماء أهل السنة أيضاً، فقد ورد على لسان الكثير من

العلماء والمشايخ في هذا الصدد. سيما في التعليق على قراءات ما أشتهر من المقرئين المصريين وغيرهم من القراء اللبنانيين والعراقيين الذين يمتازون بأسلوبهم وطورهم الخاص، وكذلك قراء بعض البلدان الأسلامية الأخرىٰ كما في الجمهورية الأسلامية في إيران والحجاز وسوريا وغيرها.

وهؤلاء القراء لكل اسلوبه وخصائصه الميزه، سواء في اتقانه للقراءات العشر المشهورة أو إقتصاره على قراءة واحدة كما هو المتعارف على رواية حفص بن سليمان الأسدي الكوفي عن عاصم بن أبي النجود الكوفي(٢٤).

فمن القراء من أكد على الصوت من أجل التأثير على السامع، وتساهل في التفاعل مع القراءة نفسها والألفاظ المجيدة للقرآن، حتى أساء الأسلوب. وأنشغل بنوع الأداء، واللحن، والموسيقىٰ الصوتية، وكاد أن يتناسى ما هو فيه، ولذا فقد أفتىٰ علماء الأزهر بحرمة التغني بالقرآن، سواء من المشايخ القدامىٰ أو الحاليين كالشيخ عبدالحليم محود مثلاً. وكذلك من المقرئين أنفسهم كما سمعت عن المقرىء الشيخ محمود خليل الحصري، ولذا فقد يؤاخذ البعض المقرىء المشهور عبدالباسط عبدالصمد بأنه يسرف بصوته، كما يذكر ذلك عنه احد زملائه القرّاء فيقول: إن الشيخ عبدالباسط عبدالصمد لايختلف بالقراءة والتلاوة عن أي قارىء للقرآن الكريم، إنما اذا أردنا أن نذكر ما يتميز به عن غيره فيمكننا الأشارة الى طول نفسه في التلاوة والقراءة أكثر من غيره، بحيث يستطيع أن يقرأ من الآيات بنفس واحد، مالايستطيع غيره أن يقرأه، أما من حيث الأداء والتجويد فلايتميز عن غيره من القرّاء في الأذاعة المصرية.

وفي صدد حديثه عما يؤخذ على الشيخ عبدالباسط في التنغيم والتطريب في تلاوته وجعل المستمع يهتم بالصوت بدل الاهتمام بمضمون الآيات القرآنية يقول: التطريب والتنغيم لايخص الشيخ عبدالباسط ولا قراءته فذلك موجود في قراءة وتلاوة كل قراء الأذاعة المصرية ولايختلف الشيخ عبدالباسط في قراءته عن غيره من زملائه. وكل ما هناك أن الشيخ عبدالصمد يمتاز بطبقة عالية في الصوت فاذا أرتفع بصوته أصبح صوته نحيفاً رفيعاً دقيقاً بحيث لايوجد مثل له عند غيره من القراء، أما الذي يصغي الى

الصوت ولايفكر في المعنىٰ فهذا شأنه[٢٥].

قراءة القرآن وسيلة تربوية:

ولهذا فلانريد للقرآن الكريم أن يكون وسيلة لهو والعياذ بالله، بعد المفهوم الكبير للقرآن من أنه مدرسة الآجيال ودار تربية حتىٰ في قراءته التي لابد أن يتلقنها الطفل والصبي وينشأ على أنغامها وأفكارها، ومعانيها، وحلاوتها، حتى لاتفسده العاديات، ولاتؤثر عليه الناشئات من أعمال الفسقة والشياطين، وهذا ما دأب عليه آباؤنا وأجدادنا من قبل حيث ان الطفل كان يفتح عينيه على المشايخ في محلته والكتاتيب فيتعلم القرآن، ويدرس معانيه، ويحفظه كلاً أو جزءاً، حتى تكتمل فيه معالم الجمال القرآني، فتعجن في دمه، وتخالط لحمه وعظمه، وتؤثر فيه خطوط الطور التجويدي للقرآن، فتبقىٰ معه دائما، بل أن الأبتداء بالقرآن وتعليمه الناشئة واجب قبل دراسته للفقه وأصول الأسلام وعقائده، وحينما نرجع الى الوراء نرى الكتاتيب ألتي أنتشرت في بلاد الاسلام، كما في النجف الأشرف في العراق، وكربلاء، والحلة، والكاظمية، والسليمانية، والبصرة وكذلك في قم، ومشهد وغيرها من مدن فارس، وفي لبنان، وشمال افريقيا؛ وبالخصوص السودان، ومصر حيث يعتنىٰ في مصر بحفظ القرآن الكريم وتعليمه وكل ما يتعلق بتجويده وتلاوته لاسيما في القاهرة عند مقام سيدنا الأمام الحسين(ع) حيث يذكر أن حول المقام الطاهر لسبط المصطفى ما يقارب الخمسة عشر ألفاً من حفاظ القرآن الكريم، وهو رقم ليس بالقليل، كذلك حول مقام السيدة زينب، والسيدة نفيسة، ومقام سيدي أبو العباس المرسي بالأسكندرية.

خير القراءة:

إن خير ما يجب أن يتمتع به القارىء للقرآن هو حُسن الآداء، والتجويد المتقن، والألتزام بأحكامه وشروطه، والتفاعل مع القراءة كعبادة أسلامية، وكوسيلة تبليغية مباشرة، حتى تصل الآيات الشريفة بكل اجلال وخشوع لقلب السامع، وكذا القارىء نفسه.

والقرآن هو الثقل الأول الذي أوصانا به نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فلاينبغي الافراط في اسلوب الاداء بما يزيد عن الحد المطلوب لايصال المعنىٰ الواضح، وما ينجر أو ينساب الى أن يهدم الخشوع والطاعة في قلب المستمع أو

القـارىء بخيـال طربي، وأنشغال تهواه النفس الأمارة بالسوء.

ولنسـأل انـفسـنـا: كيف كان الصحابة والتابعون يقرأون القرآن؟ لماذا أشتهر الأمام السجاد أبو محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع) بحسن أدائه للقرآن، وجودة صوته وحسنه، وأن تحسين القراءة بحسن الصوت الخاشع، مع الألتزام بالقواعد المطلوبة والمفروضة من الأدغـام، والأخفاء، والمد، والوقفات، وشروط الوصل، والقطع، وتسكين الحرف ومده، حسب موقعه في الآية، هو الهدف المطلوب والملزم لقارىء القرآن الكريم.

أن الأتقان التام للأحكام والقواعد والممارسة تكسب الأنسان خبرة تغنيه عن التقليـد، لاسيمـا التقليـد الأعمىٰ الذي يحصـل لدىٰ البعض من أجـل أظهـار أصواتهم بشكل يسمح لهم أن يقال عنهم قراء أو قادرون على القـراءة وإن كان الحساب على الله وليس لاحد على أحد أن يحكم إلا على ظاهـره وكمـا يقـال «فلنـا الظاهر وعلى الله السرائر».

ويـذكر أحد أساتذة القراءات وهو الاستـاذ محمـد أسكنـدر يلدا، أن على القـارىء أن يرقىٰ الى ما يجب عليـه من الأبتعاد عن الرياء، وحب الجاه، والسمعة، ويـذكر حديثاً عن النبي(ص) قوله «أكثر منافقي أمتي قراؤها، وأحد الثلاثة الذين أول ما يحـاسبهم ربهم يوم القيـامة هو قارىء يقرأ القرآن رياء، ليقول عنه الناس أنـه قارىء، فيدخل الناس والعياذ بالله، وإنما الأعمال بالنيات، وإن لكل أمرىء ما نوىٰ.

إن علمـاء الدين وحمـاة الشريعة مدعـوون اليوم، أكثر من أي وقت مضىٰ، لرفـع صوتهم، وبيـان آراء الأسـلام في المسـائـل الهـامـة التي يعيشها الناس، هادين ومبلغين الأمم، مشخصين حاجتهم لما يجب أن يبلغوهم بها وينبهوهم عليها.

كمـا أن فتـح المعـاهـد، والمـراكز العلمية الخاصة بالقرآن مهمة وضرورة، ينـبـغـي الأسراع فيـهـا، وإيـجـاد المتخصصـين بالقـرآن الكـريم، بكـل ما يتعلق به من قراءة، وتفسير، وتبليغ، وبحث وغـيرها، وأن الأمة لاتكتمل حياتها ما لم يكتمل عملها بوصية نبيها الكريم بالثقلين كتاب الله وعترته أهل بيته، وأن التخلف عن هذا المسار، وعدم التصدي له ـ كما ينبغي ـ سيفسح المجال أمام المتلاعبين، والمنـافقـين، والمتستـرين بالدين للقيـام

بأفعالهم ومخططاتهم الخبيثة.

إن الأعتناء بالقرآن، وقراءته، وتهذيبها، وتنقيتها من الشوائب والمصائب وظيفة شرعية تستدعي النهوض بها، وليس الأمر يقتصر على شروح القرآن أو علومه الأخرى.

كما أن على الأمة أن تعتني بثقافتها القرآنية التي تعتبر الثقافة الأصيلة في الشريعة، والتي يمكن تميزها عن غيرها.

* * *

● **الهوامش:**

(١) حم السجدة: ٤٢.
(٢) عيون الأخبار ٢: ٨٧، البحار ٩٢: ١٥.
(٣) تفسير منهج البيان في تفسير القرآن ـ السيد ابو الحسن الرضوي ١: ١١ عن علل الشرائع باب ١٨٢ ـ الحديث/٢.
(٤) الكافي ج٤ الحديث ٦.
(٥) مقدمة تفسير شبر، للدكتور حامد حفني داود ـ أستاذ الأدب ـ جامعة القاهرة.
(٦) البقرة: ١٢١.
(٧) فاطر: ٢٩ ـ ٣٠.
(٨) الوسائل، باب استحباب كثرة قراءة القرآن. حديث رقم: ١.
(٩) المصدر السابق ـ صفات الشيعة.
(١٠) المصدر نفسه، باب وجوب تعلم القرآن وتعليمه الحديث رقم٢.
(١١) راجع الكافي ـ باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن.
(١٢) المصدر السابق، باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن. حديث: ٩.
(١٣) المصدر السابق الحديث رقم: ١١.
(١٤) منهج البيان. مصدر سابق. ١: ٥٥ (عن عيون الأخبار).
(١٥) الكافي ـ باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن الحديث: ١.
(١٦) المصدر السابق حديث: ٦.
(١٧) المعجم الوسيط. ٢: ٦٧١.
(١٨) قواعد التجويد في تلاوة القرآن المجيد، دكتور زهير سليمان. ص١٠٧.
(١٩) المصدر سابق، ص١٠٦.
(٢٠) المصدر السابق. ص١٠٦.
(٢١) راجع الوسائل، كتاب التجارة باب تحريم الغناء حتى في القرآن الحديث. ١٨.
(٢٢) منهج البيان. مصدر سابق. ١: ٦٥.
(٢٣) المصدر باب تحريم الغناء حتى في القرآن.
(٢٤) يراجع كتاب قواعد التجويد في تلاوة القرآن المجيد. مصدر سابق. ص ١٠٤ ـ ١٠٦.
(٢٥) راجع تحقيق عن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ـ مجلة الشراع ص/٥٠.

قصة آية

أبو لبابة والخيانة المزدوجة

السيد مالک الموسوي



«من كان سامعاً طائعاً فلا يُصلّينّ العصر إلاّ في بني قريظة»!!

هكذا أمر الرسول القائد(ص) أن ينادى في المدينة، بعد سويعاتٍ من رجوعهم من معركة الاحزاب، وقد اجهدتهم أيامُ الحصار الرهيب الذي فرضتهُ عليهم الاحزابُ المتحالفة من المشركين واليهود لضرب الاسلام في عقر داره، تحت شعار:

يا أعداء الاسلام اتحدوا!

ورغم ما عاناهُ الصحابةُ المجاهدون من التعب والعناء، والكرب والبلاء، والتي يصفها القرآن الكريم باروع وصف، بقوله:

«إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وتظنونَ بالله الظنونا* هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً»

رغم كُلّ ذلك... هب المؤمنون المجاهدون استجابة لداعي الحرب والقتال، ليتوجهوا صوب يهود بني قريظة، الذين نقضوا العهود والمواثيق وتحالفوا مع المشركين لضربِ الدولة الاسلامية، وقد تصوروا أنها ستكون معركة حاسمة، لا تقومُ للاسلام بعدها قائمة.

أعطى الرسولُ القائد(ص) الراية الى علـي بـن أبـي طـالـب(ع)، وانـطـلـق ركـبُ المجاهدين يغذُ السير باتجاه بني قريظة، وما أوشك العصر أن يحل حتى كان الحصارُ الاسلامي حول حصونهم قد اكتمل!

ووقع نبأ الحصار وقع الصاعقةِ على رؤوسـهـم، إذ لـم يـتـوقـع أحـدٌ أن يـسـارع المسلمون لخوض معركةٍ جديدة. وبعد ثلاثين يوماً، اشتدَّ على اليهود الخناق، وأيقنوا أن المسلمين غير منصرفين عنهم، فقال لهم أحدُ زعمائهم:

يا معشر اليهود إنهُ قد نزل بكم من الامر ما ترون، وإني عارضٌ عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟

قال: نبايعُ هذا الرجل ونصدِّقه، فوالله لقد تبيّنَ لكم أنهُ لنبيٌّ مرسل، وأنه للذي تجدونهُ في كتابكم، فتأمنونَ على دمائكم واموالكم.

قالوا: لا نُفارق حكمَ التوراة ابداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلُمَّ فلنقتل أبناءَنا ونساءَنا، ثم نخرج الى محمد واصحابه مُصلتين السيوف...

قالوا: نقتلُ هؤلاء، فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وانهُ عسى أن يكون محمدٌ واصحابه قد أمِنوا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيبُ من محمد وأصحابه غرّة.

قالوا: نفسدُ سبتنا...

قال: ما بات رجلٌ منكم منذُ ولدتهُ امُهُ ليلةً واحدةً من الدهرِ حازما!

دبَّ النزاع والشقاق بين دهاقنة بني قريظة، واشتد الخلافُ بين أحبارهم... ولكنهم أخيراً توصلوا الى رأي واحد... أن يعرضوا على الرسول القائد(ص) بأن يبعث إليهم أحد أصحابه وهو أبو لبابة بن المنذر الانصاري، حيثُ كان لهُ عندهم عيالٌ ومال.

ولما جاءهم أبو لبابة وجدهم على حالٍ من الهلع والذعر الشديدين، فقد هب اليه الأولاد يتمسكون بأهداب ثوبه صارخين، بينما احاطت به النسوة اليهوديات مولولاتٍ ناحبات، أما الرجالُ فقد ملأ قلوبهم الرعب، واشتدَّ بهم الكرب.

وتطلع ذلك الصحابي الى كل تلك

المشاهد، فأخذتهُ العاطفة، وغلبته الشفقة، ولعبت به مشاعر المال والأهل... ولهذا فإنهم لما سألوه:

ماذا ترى في حالنا يا أبا لبابة... أننزلُ على حكم محمد... أننزل على حكم مبعوثه سعد بن معاذ؟

فما كان إلا أن أشار بيده الى عنقه، يُريدُ أن يُفهمهم أنه الذبح، فلا تفعلوا!!

ولما رأى اليهود إشارته علا الصراخُ والنحيب، وكثر البكاء والعويل، وسرعان ما أحس أبو لبابة بفداحة موقفه، وخطأ عاطفته، وشناعة فعلته بافشائه سراً ما كان لاعدائهم أن يعرفوه، فخرج من عند بني قريظة لا يحفل بأمرهم، وولى هارباً هائماً على وجهه في أرجاءِ المدينة... ونزل الوحيُ من السماء ليسجل ذلك الموقف الخياني، ويعتبر تلك الاشارة خيانة مزدوجة، فهي خيانة لله، وخيانة للرسول، خيانة للمسلمين، بقوله تعالى:«ياأيُها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون* واعلموا أنما أموالكم وأولادُكم فتنة وأن الله عندهُ أجرٌ عظيم»!

ولما علم بالايات القرآنية أنها نزلت فيه، ذهب الى مسجد الرسول، وارتبط الى عمودٍ قريبٍ من المنبر، وأقسم ألا يذوق طعاماً وشراباً حتى يموت أو يتوب الله عليه...

بقي أبو لبابة أياماً وليالي على تلك الحال، ولا أحدٌ يتقدم منهُ إلا زوجته التي كانت تأتيه وقت الصلاة لتفكَّ وثاقه حتى يصلي، ثم تعود وتربطه من جديد... وما ان جاء اليوم السادس حتى بلغَ به الجوع والعطش منتهاه، فلما جاءت زوجته وفكت رباطه، وقع على الأرض مغشياً عليه، ولما أفاق فتح عينيه، وراحَ يبكي بكاءً مُرّاً، وسالت الدموعُ سخينةً تتركُ آثاراً على خديه... وبينما هو على تلك الحال، نزل الوحي من السماء على قلب الرسول الكريم، معلناً عن توبته، بقوله:

«وآخرونَ اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم إن الله غفورٌ رحيم» التوبة:١٠٢.

وقامت أمُ المؤمنين أمُ سلمة ووقفت على باب حجرتها المحاذية لباب المسجد،

لتبشرهُ بنبأ التوبة قائلةً:

يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب اللهُ عليكَ. ولم يكد يُصدّق بالنبأ... وتصورَ أن هذا الصوت المبشر في عالم الرؤيا والاحلام... وكان في المسجد جماعة من المؤمنين، ما إن سمعوا ببشارة أم سلمة، حتى هرعوا يريدونَ أن يفكوا وثاقه، ويقطعوا الحبال التي عليه... ولكنهُ رفض وأبى، قائلاً:

لا والله لا أحلُّ نفسي حتى يكونَ رسولُ الله هو الذي يحلني!

وما ان انتهى الرسولُ الكريم من فكِّ وثاقه حتى جثا ذلك الصحابي على ركبتيه وقد امتزجت دموع الفرح بدموع الحزن، وهو يقول:

إن من تمام توبتي-يا رسول الله- أن أهجر دارَ قومي التي أصبتُ فيها الذنب، وأن أنخلع عن مالي!

فقال لهُ النبي(ص). يجزيكَ الثلث أن تتصدّق به!

إن في الايات المباركة وقصتها دروساً كبيرة، وعبراً رائعة لابُدَّ من الوقوف عندها ونحنُ نعيش اليوم ساحةَ الصراع المحتدم بين الاحزاب المتحالفة ضدَّ الاسلام وشعارها ذات الشعار: يا أعداء الاسلام اتحدوا:

الدرس الاول: إن من الامانة ما هي امانةُ مشتركة يشترك فيها الله ورسوله والمؤمنون، وهي الامانة التي تتعلق بحفظ الحالة الاسلامية المتمثلة بالدولة الاسلامية، حيث أن توهينها من خلال كشف أسرارها مثلاً يعتبرُ خيانة لأعظم تكليف، واكبرِ امانة على المؤمنين جميعاً حفظها ورعايتها. فان من الامانة-كما يقول صاحب تفسير الميزان- ما هي امانة الله سبحانه عند الناس كأحكامِهِ المشرعة من عنده، ومنها ما هي امانة الرسول كسيرته الحسنة، ومنها ما هي امانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم، ومنها ما يشتركُ فيهِ الله ورسوله والمؤمنون، وهي الامور التي أمر الله سبحانه وأجراها الرسول وينتفع بها الناس ويقوم بها صلب مجتمعهم كالاسرار السياسية، والمقاصد الحربية التي تضيعُ بافشائها آمال الدين وتضلُّ باذاعتها مساعي الحكومة

الاسلامية.

إن الحفاظ على الأمانات الكبرى والتي تتعلق بالنهوض بأعباء البيعة للاسلام والقيادة الاسلامية، يحتاجُ الى الاستعلاء على مواطن الضعف في النفس البشرية والذي يعتبر الحرص على الاموال والأولاد من اشدها عمقاً وضغطاً على الانسان وهو سائرٌ في طريق التضحية والعطاء والإحسان، وفي المقابل التطلع الى ما أعدهُ الله تعالى للأمناء على رسالته، الصابرين على دعوته، المضحين في سبيل إقامة دولته.

ولهذا جاء السياق بعد ذكر النهي عن الخيانة المشتركة، بقوله تعالى:

«واعلموا أنما أموالكم وأولادُكم فتنة وأن اللهَ عندهُ أجرٌ عظيم»! الانفال:٢٨.

كثيراً ما تقعد الأموال والأولاد الناس عن تكاليف الامانة والعهدوالمسؤولية.

الدرس الثاني: إذا كان أبو لبابة قد أخذته لحظة الضعف البشري لما يملكهُ من علاقة مع اليهود، ولوجود امواله وعياله عندهم، فأشار لليهود الى عنقه، يريد بذلك الذبح، فنزل جراء ذلك جبرائيل من السماء بأمرٍ من الله عزوجل ليخبر الرسول القائد بتلك الاشارة الخائنة، ونزلت الايات القرآنية لتسجل هذا الحدث الخطير... اذا كان كل ذلك قد حدث جراء إشارةٍ صدرت من أبي لبابة، فما حالُنا اليوم ونحنُ نعيش في زمن أصبح فيه الكثير ممن يدعونَ الاسلام والايمان والوطنية جنوداً أوفياء لليهود الغاصبين، بل ووصل الأمر بهؤلاء الى محاربة كلّ من يكن للصهيونية العداء!.

وما أجمل ما قالهُ الشاعر العراقي أحمد مطر بحقّ هؤلاءِ الحكام إثر زيارة السادات للكيان الغاصب، وتشكيل محكمة ومؤتمر في بغداد لمحاكمته:

الثور فر
من حظيرة البقر
فثارت العجولُ في الحظيرة
تبكي فرار قائد المسيرة
فشكلت على الأثر محكمة ومؤتمر
فقائلٌ قال: قضاءٌ وقدر.
وقائل: لقد كفر.
وثالثٌ: الى سقر

وبعضهم قال امنحوه فرصةً أخيرة

لعلهُ يعودُ للحظيرة

وفي ختام المؤتمر

تقاسموا مربطهُ وجمدوا شعيره

وبعد عامٍ وقعت حادثةُ مثيرة

لم يرجع الثور

ولكن ذهبت وراءهُ الحظيرة!!

فإنا لله وإنا إليه راجعون.

النكات البلاغية في تفسير الطبري
القسم الأول

الاستاذ محمد علوي مقدم

ترجمة: عبدالرحيم مبارک



هناک عوامل مختلفة أثّرت في نشأة وظهورالبلاغة العربية، مثل: الشّعر الجاهلي، ونظم ونثرالقرون الاولى! للهجرة، وبحث وجدال المتكلمين المسلمين، وعلماء اللغة والنحويين، وكتب ارسطو ومفسّري القرآن. ومن بين العوامل المختلفة هناک عامل فاق تأثيره باقي العوامل في تكوّن وتدوين البلاغة العربية، وهو القرآن الكريم.

وقد تناول المفسرون كتاب الله من زوايا نظر مختلفة، فبعض تكلّم في إعجازه ونسب اعجازه الى! بلاغته، و اكدّوا على! ضرورة البحث والتدقيق في علوم البلاغة حيث اعتقد هؤلاء ان التبحر والتضلع في علوم البلاغة لازم للاحاطة بإعجاز القرآن.

وبناءً على! هذا الأصل، فقد تحدّث كثير من المفسرين الأوائل في كتاباتهم ضمن بحثهم عن المسائل القرآنية الاخرى! في تفاسيرهم، عن بلاغة القرآن بشكل غيرمباشر.

فالفرّاء مثلاً «المتوفى ٢٠٧ هـ الّف كتابه «معاني القرآن» وتناول فيه علاوةً على! الشرح اللغوي للألفاظ المسائل النحوية للكلمات وإعرابها، وبحث في كتابه احياناً المسائل البلاغية وتحدّث عن الكناية، التشبيه، المجاز، والاستعارة. وتحدث عن

نظم الكلمات و فصاحتها، ووزن الالفاظ، وتأثير هذا التوازن والتناسق في ذهن السامع والقارىء. وحيث انه قد بيّن تركيب الكلمات والآيات، وشرح المسائل النحوية، فقد تحدث عن التقديم و التأخير، المسند والمسنداليه وعن الايجاز والاطناب ايضاً.(١)

وفي أيدينا كتاب «مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى «متوفى ٢١٠هـ وهو أيضاً مفسرآخر من مفسري القرون الاولى للهجرة.

وصحيح أن أباعبيدة في كتاب «مجاز القرآن» اعتبر «المجاز» مرادفاً لكلمة التفسير والتأويل، وفَرَضه معبراً وجسراً يوصل القارىء الى فهم المعاني، وفي الواقع فإن فهمه «للمجاز» كان نفس معناه اللغوي وليس المفهوم المصطلح بين علماء البلاغة، ولكن في نفس الوقت، فان أباعبيدة في كتابه مجاز القرآن و الذي يعد تفسيراً نوعياً للقران الكريم، قد بحث ايضاً عن التشبيه والاستعاره والكناية والتقديم والتأخير والايجاز والالتفات، وعدّد، في هذا الكتاب، ثمانية وعشرين قسماً من المجاز في القرآن.(٢)

و رأي أبي عبيدة أن الاطلاع على المسائل البلاغية له أهمية خاصة لمعرفة وفهم المعاني القرآنية، وان غيرالمطّلع على فنون البلاغة لن يستطيع، كما هو مطلوب، ان يدرك المعاني القرآنية واعجازها.(٣)

ولذا فإنّه فكّر بإنارة هذه المسالة، وكتب كتاباً بهذا الخصوص، والرواية التاريخية بشأن الدافع لتأليف كتاب «مجاز القرآن» تنير وتوضّح هذه المسألة.(٤)

وقد كتب ابومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري «المتوفى ٢٧٦هـ المعروف بـ«ابن قتيبة» من علماء ونحويي القرن الثالث الهجري، في رده على الطاعنين والملاحدة الذين قالوا إن هناك تناقضاً في الآيات القرآنية، صنّف كتاب «تأويل مشكل القرآن» وبحث فيه عن المجاز، الاستعاره، الكناية والمباحث البلاغية الاخرى، واثبت فيه أن الجهل باساليب العربية، وعدم الأطلاع على الاستعمالات اللغوية المختلفة لها، قد سبّب هذا الفهم الخاطيء، وقد كتب ابن قتيبة علاوةً على كتاب «تأويل مشكل القرآن»، كتاب «غريب القرآن» أيضا(٥) وقد كتب العالم المصريّ -السيد أحمد الصقر- في مقدمته على كتاب «تأويل مشكل القرآن» أن ابن قتيبة

قد صنّف مصنفات كثيرةً بلغت عدّتها -في مايقول أبوالعلاء المعري- خمسة وستين مصنّفاً.(٦)

ومن بين ماكتب كان كتابه تفسير«غريب القرآن»، وهو متمم ومكملٌ لكتاب «تأويل مشكل القرآن».(٧)

والكتاب المذكور يحوز أهمية من جهة أنه أولاً اعاد ذكر المعاني اللغوية لبعض من الكلمات القرآنية، ولأنه اوضح ثانياً، كثيراً من مسائل البلاغة اكثر مما فعل ابن المعتز(٨)، «يعتقد البعض أن كتاب البديع لابن المعتز اول كتاب في البلاغة»، وفي هذا اللحاظ يجب ان نعرف مساهمته المؤثرة في تكوين وتدوين البلاغة العربية، وثالثاً فقد بحث كثيراً من الآيات القرآنية وأوضح جوانبها البلاغية.(٩)

وبعد هؤلاء الذين عدّدناهم(١٠) نصل الى المفسر الكبير محمد بن جرير الطبري «المتوفى ٣١٠ هـ. وقد بحث الطبري في تفسيره الكبير(١١) في مباحث بلاغة القرآن اكثرمما فعل الفرّاء، وأشار الى نظم بديع القرآن الذي عجزالعرب عن مناظرته ومجاراته، وأشار كذلك الى محاسن الكلام القرآني التي باينت القرآن عن كلام العرب، وفي الواقع فقد وضع أساس البحث عن مسائل البلاغة القرآنية في أوساط المفسرين ولفت أنظارهم الى قيمة وأهمية علوم البلاغة في الآيات القرآنية الى درجة ان جارالله الزمخشري «المتوفى ٥٣٨ هـ يقول في مقدمة تفسيره(١٢): ان الفقيه مهما بزّ أقرانه في الإفتاء واستنباط الأحكام الفقهية، والمتكّلم مهما كان متضلّعاً في علم الكلام، والمحدث في الأخبار والاحاديث مهما حاز أهمية وتميز عن الاخرين، والخطيب مهما تفوّق في فن الخطابة بحيث فاق الحسن البصري، والنحوي في علم النحو مهما حاز قصب السبق على سيبويه، فان أيّاً من هؤلاء لن يصل الى الحقيقة الاّ اذا حصل على البراعة والكلمات في فرعين من العلم: يعني علمي المعاني والبيان المختصين بالقرآن الكريم.

ويُستنبط من قول الزمخشري في مقدمة تفسيره، أن علمي المعاني والبيان من أهم العلوم التي يجب على المفسّرمعرفتها، وبدون الإحاطة بهذين العلمين فلن يستطيع درك الروائع البلاغية والمحسنّات البديعية لكلام الخالق. وفي الواقع فإن الزمخشري قد شخّص طريق الوصول الى إعجاز

القرآن في التبحّر ومعرفة العلوم البلاغية، وهو يرى' أن معرفة لطائف الكلام الالهي، مع الاطلاع على العلوم البلاغية، ستكون اكثرامكاناً.

وقد بحث الطبري في تفسيره الكبير عن بلاغة القرآن اكثر مما فعل القرّاء والمفسرون الآخرون الذين سبقوه، وقد أشار الى' بعض تفاوت الكلمات القرآنية، فمثلاً قال: تفاوت «الحمد لله» في اول آية من سورة الحمد، مع «حمداً لله» هو أن في «الحمد لله» تُستنبط عمومية اكثر، ويدرك القارىء ان جميع المحامد والشكر الكامل وحمد جميع الموجودات هو للّه، بينما في «حمداً لله»لاتستنبط العمومية والشمول، ويشمل ذلك حمد القائل فقط .(١٣)

ولكن ينبغي علم أن الألف واللام أحياناً لاتدلّ على' الاستغراق ولايمكن استنباط الاستغراق والشمول والعموم منها. فمثلاً في آية **«واذا قيل لهم آمِنوُا كما آمَنَ النّاس»** البقرة: ١٢. فإن الالف واللام لاتفيد الاستغراق. لان جميع الناس لم يؤمنوا بما جاء به الرسول(ص) ولم يصدّقوا أقواله، بل ان بعضهم قد آمن، وهؤلاء هم الذين سبق أن عرفهم مخاطبو الآية، وسيكون معنى' الآية «آمنوا كماآمن الناس الذين تعرفونهم من اهل اليقين والتصديق بالله وبمحمد(ص) وبما جاء به من عندالله واليوم الآخر». وفي الواقع فقد أراد القول بأن هذا النوع من الألف واللام هو عهد ذهني، كما هوالحال في آية **«الذّينَ قالَ لَهمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قد جَمَعوُا لكم فاخشَوهُم...»** آل عمران:١٧٣، فان الف ولام «الناس» لاتدلّ على' الاستغراق.

عند البحث في آيتي **«مالكِ يومِ الدين»** و**«ايّاك نعْبُد وايّاكَ نستعين»** سورة الحمد:٤-٥، فقد اشار الطبري الى' صناعة الإلتفات، ذلك ان العرب عندما يريدون التكلّم على' شيء فانهم يعدلون من المخاطب الى الغائب ومن الغائب الى المخاطب، كما لو قيل لشخص: «قد قلتُ لأخيك: لوقمتَ لقمتُ، وقدقلتُ لأخيك لوقامَ لقمتُ، وكذا لـ«الالتفات» من الغائب الى المخاطب أورد شعرالهُذلي الذي قال:

يالهف نفسي كان جلدة خالد

وبياض وجهك للتراب الاعفر

حيث عدل من الغائب الى المخاطب.

وقد اورد الطبري في هذا الشأن ايضاً مثالاً من شعرلبيد بن عامر، ولكنه

اعتبرافضل مثال لهذه الصنعة آية «هو الَّذي يسيِّرُكم في البّر والبحر حتى! اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيِّبة...» يونس:٢٢، حيث عدل من الغائب الى المخاطب ومن المخاطب الى الغائب.(١٤)

عند البحث في آية «**مَثَلُهم كَمَثَل الَّذي استوقَدَ ناراً فلمّاأضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركَهم في ظُلُمات لايبصرون**» البقرة:١٧، كتب الطبري:(١٥) اذاقال شخص انه كيف يمكن جعل حال مجموعهم «مثلهم» وحالة فرد واحد «مثل الذي استوقد ناراً» حالاً واحداً، يعني لماذا ضرب فرداً مثالاً لجماعة ولم يقل «مثلهم كمثل الذين استوقدوا ناراً»؟ نقول في الجواب: انه قد شبهت حالة بحالة، ولها نظير في القرآن الكريم مثل آية «...**تدور أعينهم كالّذي يغشى! عليه من الموت...**» الاحزاب:١٩، حيث شبهت حالة بحالة، وفي الواقع فقد قيل «كدوران عين الذي يغشى! عليه من الموت». وفي الآية مورد البحث «البقرة:١٧» ايضاً نقول: «ان حالة أولئك كحالة من اوقدالنار...» واضاف الطبري موضحاً، ان تمثيل ومساواة جماعة في الطول والاعضاء الباقيه بفرد واحد وشيء واحد غير جائز، ولكن تمثيل جماعة من المنافقين بفرد مشعل للنار صحيح. وفي الحقيقة فان اصل المطلب كان هكذا «مثل استضاءة المنافقين بماظهروه من الاقرار بالله وبمحمد(ص) وبماجاء به، قولا، وهم به مكذّبون اعتقاداً، كمثل استضاءة الموقد ناراً...» ثم حُذفت كلمة استضاءة وأُضيفت كلمة «مثل» الى «الذي»، واوضح الطبري: في تشبيه اعيان بني نوع الانسان فالافضل تشبيه جماعة بجماعة وفرد بفرد، ولكن الآية مورد البحث كانت تشبيه حالة بحالة.(١٦) في القسم الاخير من آية «...**فلما اضَاءَت ماحَولَه ذَهَبَ الله بنورهم وتركهم في ظُلُمات لايبصرون**» اشارالطبري بايجازالى الحذف والاختصار، واضاف ان الجملة كانت في الاصل «...فلما اضاءت ماحوله، خمدت وانطفأت، ...» وحذف منهافعلا«خمدت» و«انطفأت» واذا ما اعترض شخص بان ذلك «ليس بموجود في القرآن فما دليلك على ان ذلك معناه»؟ نقول في الجواب: «من شأن العرب الايجاز والاختصار». وقد ذكر الطبري نماذج كثيرة ايضاً من «الحذف» و«الايجاز» من الشعرالعربي، واضاف ان في كلام

العرب قاعدة كلية على انهم في الموارد التي تستوجب ذلك، يوجزون الكلام ويختصرونه.(١٧)

عند البحث في آية «...ولاتقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين» البقرة:٣٥ اشار الطبري الى حذف الجملة الشرطية وقال: (١٨) باعتقاد نحويّي الكوفة فان اصل العبارة كان هكذا: «ولاتقربا هذه الشجرة، فأنّكما ان قربتما، كنتما من الظالمين» وحذف الجملة الشرطية زاد من بلاغة الجملة وصار بيانها بصورة «ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين».

عند البحث في آية «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا...» البقرة:١٠، اشارالطبري الى حذف واسناد الفعل الى غير الفاعل الأصلي وقال: في الواقع فان معنى[1] الآية الاصلى هكذا «في اعتقاد قلوبهم الذي يعتقدونه في الدين والتصديق بمحمد(ص) وبما جاء به من عندالله مرض وسقم»، المرض القلبي للمنافقين في هذه الآية شكهم وترددهم في تصديق النبي(ص) وما نزل عليه.

وقد اورد الطبري امثلة لهذا الحذف من اشعارالعرب مثل شعرعنترة العبسيّ:

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك
ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

حيث كان في الاصل: «هلاّ سألت اصحاب الخيل»؟

أوقول من قالوا «ياخيل الله اركبي» حيث كان المقصود «يااصحاب خيل الله اركبوا»، وذكر الطبري في هذا المورد شواهد كثيرة.(١٩)

عند البحث في آية «اياك نعبد واياك نستعين» الحمد:٥، اورد الطبري علاوة على[1] بحث افاده الحصر، تقديم المفعول على الفعل، وفي النتيجة اثبات ان المحور هوالله و«لااحد سواه»، واضاف: لماذا قدمت «نعبد» على «نستعين»؟ أي تقديم العبادةعلى الاستعانة بينما «مسألة المعونة كانت احق بالتقديم»، سبب ذلك في نظر الطبري لماكان الانسان في عبادته نفسها يحتاج الى معونة الله وكان محالا ان يكون العبد عابدا الاّ وهو معان على العبادة ومحال ان يكون معاناً عليها الاّ وهو لها فاعل، كان سواءً تقديم ماقدّم منهما على صاحبه.

وقال الطبري في وجه تكرار الضمير «اياك» في «اياك نعبد واياك نستعين»: عند لحاظ عظمة المخاطَب، فالفصاحة

تستوجب تكرارالضمير، كما انهم يقولون «اللهم أنا نعبدك ونستعينك ونحمدك ونشكرك»، ويقول الطبري: (وكان ذلك افصح في كلام العرب من ان يقال «اللّهم انا نعبدك ونستعين ونحمد...» كان الافصح اعادتها مع كل فعل).(٢٠)

عند البحث في آية «ذلك الكتاب لاريب فيه» البقرة:١ فان الطبري ضمن نقله لروايات مختلفة في ان «ذلك الكتاب» جاء بمعنى «هذا الكتاب»، القى شبهة وقال: (كيف يمكن قول «ذلك» في هذه الآية بمعنى «هذا»، في حين ان هذا اشارة لحاضر معاين وذلك اشارة الى غير حاضر ولامعاين)؟

قال الطبري(٢١): في الواقع ان الباري استعمل اسم الاشاره للبعيد لتبيين عظمة القرآن ورفع مقامه، وقال ان مقام القرآن من العلّو والسمّو كما لو كان في اوج السموات بعيداً عن التناول. وضرب الطبري مثالاً لتأييد قوله، من اشعار العرب، استعملت فيه «ذلك» بمعنىٰ «هذا». وذكر الطبري احتمالاً آخر وقال: (يمكن ان يكون ذلك الكتاب: السور والآيات التي نزلت قبل سورة البقرة في مكة والمدينة، بمعنىٰ ان الباري قال: ياايّها الرسول ان الآيات والسورالتي نزلت عليك قبل ذلك «لاريب فيه». وقول آخر ذكره الطبري ان «ذلك الكتاب» اشارة للتوراة والانحيل، وفي هذه الحالة فلا حاجة للتأويل.

عند البحث في هاء الضمير «فيه» قال الطبري: ان مرجع هذا الضمير هو«كتاب» ومعنىٰ لاريب فيه «لاشك في ذلك الكتاب انه من عندالله هدىً للمتقين».(٢٢) وقد طرح الطبري في معرض البحث في آية «**أَلَم تعلم انّ الله له ملكُ السموات والارض ومالكم من دون الله من وليٍ ولانصير**» البقرة:١٠٧، موضوع الاثبات والتقرير واقرار الكلام في ذهن المخاطب، وفي الواقع فهو يجيب على من أشكلوا وقالوا: أوكان ممكناً الاّ يعلم الرسول ان الله قادر وبيده حكومة السموات والارض، ليخاطب النبي بـ«ألم تعلم انّ الله له ملك السموات والارض...»، وقال الطبري ان في هذه المورد، يقال في العربية للتقريروالاثبات مثلاً «ألم اكرمك»؟ «ألم أتفضّل عليك»؟ بمعنىٰ «قد اكرمه وتفضّل عليه»، وعلاوة على هذه المطالب، فان الطبري، مع وجود القرينة المقالية في الخاتمه «...ومالكم من

دون الله من وليّ ولانصير» يعتقد أن الخطاب في هذه الآية للنبي ولكن في المعنى لامتّه واصحابه، وامثال هذه العبارات التي يخاطب بها المتكلم فرداً ويعني جماعةً، في كلام العرب كثير، وقد اورد الطبري في هذا المجال اشعاراً للكميت بن زيد، وكذلك استند الى آيات «**ياايها النبي اتّق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين...**» و «**واتبع مايوحى! اليک من ربک ان الله كان بما تعملون خبيرا**» الاحزاب:١-٢، حيث كان الخطاب يخصّ النبي الكريم(ص) ولكنه يفيد العموم، بدليل نهاية الآية «ان الله كان بما تعملون خبيراً» حيث فعل «تعملون» ورد بصيغة المخاطب الجمع.(٢٣)

عند البحث في آية «**ولَقد آتينا موسى الكتابَ وقفَينا من بعده بالرُسل وآتينا عيسى بن مريمَ البينات وايّدناهُ بروح القدُس أفكلّما جاءَ كم رسول بما لاتهوى! أنفُسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون**» البقرة:٨٧.

قال الطبري(٢٤): مع ان الجملة «...افكلّما جاءَكم رسول...» استفهامية ولكن من باب التقرير في الخطاب لها جانب خبري، وفي الحقيقة فالقرآن قال: النبي الذي اتى! بخلاف هوى! انفسكم استكبرتم مقابله ولم تطيعوا امره وغلبت عليكم شقوتكم فكذّبتم بعضاً من الرسل وقتلتم آخرين، كما ان آية «**الم تعلم ان الله له ملك السموات والارض**» البقرة:١٠٧ لها نفس الوضع وتحمل جانباً تقريرياً في الخطاب، ويضيف الطبري ان نظائر ذلك في كلام العرب كثير.(٢٥)

عند البحث في آية «**ثم توليتم من بعد ذلک فلولا فضْل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين**» البقرة:٦٣، وضع الطبري لـ«ثم تولّيتم» معنى! «ثم اعرضتم» واوضح ذلك بقوله.(٢٦) انه «يستعمل ذلک في كلّ تارک طاعة أُمربها» واورد عدة امثلة من آيات القرآن، واشارالى الاستعاره واضاف، «ومن شأن العرب استعارة الكلمة ووضعها مكان نظيرها» كما:

فليس كعهد الدار ياأم مالك

ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

و«احاطت بالرقاب اسلاسل» في الشعر المذكور استعارة من ان الاسلام مثل السلاسل يحيط برقابنا ويمنعنا عن كثير مما اعتقدناه وكنّا عليه في الجاهلية. وفي الواقع فقد اراد الطبري ان يقول ان «توليتم»

كانت في الآية استعارة ايضاً لترك العمل والاعراض عن الميثاق.

عند البحث في آية «...**وأشربوا في قُلوبهم العجل بكفرهم**». البقرة:٩٣ حيث بناءً على درك السامع وفهمه لمعنى الكلام حذف المضاف وكان في الاصل «وأشربوا في قلوبهم حبَّ العجل» يعني ان عشق عجل السامري الذهبي قد تعدى الى أعماق قلوبهم وتشرّبت قلوبهم به، حيث في لسان العرب: اشرب قلب فلان حبَّ كذا بمعنى «سقى ذلك حتى غلب عليه وخالط قلبه»، واورد الطبري لحذف المضاف، وان ترك ذكر شيء أبلغ احياناً من ذكره، مثالاً من شعر زهير، وكذا آيات «**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر...**» الاعراف:١٦٣، و«**واسأل القرية التي كنّا فيها والعيرالتي أقبلنا فيها...**» يوسف:٨٢. وعلى اي حال فانه يتّضح مع التعبير الذي بحثه الطبري في الاية مورد البحث وتقديره لكلمة «حبّ» ان بني اسرائيل قد سقوا قلوبهم محبة عجل السامري واظهروا بهذا علاقتهم بذلك العجل.(٢٧)

وقد بحث الطبري نظير هذا الحذف في ذيل آية «**وأقيموا الصلو ة وآتوا الزكاة و ماتقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله...**» البقرة:١١٠

وقال ان تقدير ذلك هو «تجدون ثوابه عندالله...»

ولدعم نظره هذا، فقد اورد الطبري في ذيل هذه الآية شاهداًمن شعر عمربن لجأ حيث قال:

وسبّحت المدينة لاتلمها

رأت قمراً بسوقهم نهارا

وأصله كان: «سبّح أهل المدينة».

عند البحث في آية «...**قل فلم تقتلون انبياءَ الله من قبل ان كنتم مؤمنين**» البقرة:٩١، حيث اشكل البعض على الابتداء بفعل المستقبل «تقتلون» ثم تحدث عن الماضي بكلمة «من قبل».

قال الطبري في هذا الشأن(٢٨). في لسان العرب شاع ان الفعل الماضي بمعنى المستقبل والمستقبل بمعنى الماضي، كماهو في آية «**واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان...**» البقرة:١٠٢، بينما كان يجب القول «واتبعوا ماتلت الشياطين...»، وكذلك ايضاً كثيراً مايرى في شعرالشعراء مثل شعر:

ولقد أمرُّ علىٰ اللئيم يسبني
فمضيتُ عنه وقلتُ لايعنيني

حيث المقصود من «أمرّ» هو فعل «مررت» اي فعل ماض بدليل الشطر الثاني الذي يقول «فمضيت عنه»، ولم يقل «فامضىٰ عنه» ولاثبات كلامه هذا فقد اورد الطبري ايضاً عدة ابيات من الشعر. ثم في مقام توضيح الآية اضاف: ان الله قد خاطب اليهود الذين ادركوا ايام النبي(ص)، وعدّد نعمه على اسلافهم وكفر اسلافهم بأنعمه، وكذا ارتكابهم المعاصي ووقاحتهم وتجرئهم علىٰ انبياءالله.

واضاف ان اشياء مثل هذه كثيرة في لسان العرب كمالوقيل «أعملُ لكم في اليوم الفلاني كذا وكذا وانتم عملتم كذا وكذا» .

وفي الواقع فان الفعل في «فلم تقتلون انبياءالله من قبل» إخبار عن اعمال ارتكبها أسلاف اليهود الاوائل، وتأويل «من قبل» ايضاً كان في الاصل «من قبل اليوم».

قال الطبري عندالبحث في آية «**من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين**».البقرة:٩٨ اولاً اذا قال شخص: أوليس جبرئيل وميكائيل من اللائكة حتي يذكر اسماهما معزولين عنهم؟ قلنا في الجواب: انهما منهم ولكن لان اليهود قالوا بان «جبرئيل عدوّنا وميكائيل وليّنا» وتتصوّرهم ان ميكائيل لم يک لرسول الله(ص) كجبرئيل لذا أُتي باسم هذين الاثنين صراحة لرفع الابهام.(٢٩)

وفي باب اظهار كلمة «الله» علىٰ صورة «فان الله عدو للكافرين» وليس باضمارها على صورة «فانه عدو للكافرين»، قال الطبري انه لرفع الاشتباه أظهرت كلمة «الله»، لانه اذا ماجاءت بشكل ضمير فان السامع سيشکّ الىٰ من يرجع الضمير، ثم اورد مثالاً على ذلک قول الشاعر:

ليت الغراب غداة ينعب دائماً
كان الغراب مقطّع الاوداج

باظهار «الغراب» وليس باضماره.(٣٠)

وتحدّث الطبري في معرض البحث في آية «فان آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا...»البقرة:١٣٧، عن تشبيه حالة بحالة ورأىٰ أنه في هذه الآية «التشبيه انما وقع بين التصديقين والاقرارين الذين همااليمان هؤلاء وايمان هؤلاء»(٣١)، ثم ضرب مثالاً وقال انه مثل ان نقول «مر عمرو بأخيک مثل مامررت به» يعني المساواة بين المرورين، وفي هذا المثال فالمتكلم ساوىٰ

بين المرورين بينما لامساواة بين عمرو والمتكلم وهكذا في مورد الآية محل البحث ايضاً و «انماوقع التمثيل بين الايمانين لابين المؤمن به» بتعبير الطبري.

واحدة من الآيات المثمرة للبحث والجدال هي آية «**ليس البّر ان تولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البّر من آمن بالله واليوم الآخر...**».

لانه بالالتفات الى شأن نزول الآية نرى انه في صدرالاسلام حيث نشب جدال وبحث بين مخالفي الاسلام من جهة، والمسلمين حديثي العهد بالاسلام حول تغيير القبلة، الى ان نزلت الآية المذكورة.

واشكل المخالفون والطاعنون في هذه الآية وقالوا: كيف يمكن القول «ولكن البّر من آمن بالله» يعني كيف يمكن حمل المصدرعلى الذات؟ واجاب الطبري على ذلك (٣٢): (وانما معناه: عندما يقال «الجود حاتم» و«الشجاعة عنترة» فمعناه «الجود جود حاتم» و «الشجاعة شجاعة عنترة» وفي الواقع ففي هذا المورد يكون التأكيد اشد، وفي هذه الصورة يدرك المطلب بشكل افضل، كما لوقيل «زيد عدل» يعني زيد عادل، وكما لوكان كل وجوده عدل ولاشيء فيه غير العدل).

وطبعاً فالطبري قال انه علاوة على اننا نستطيع فهم معنى الآية «وَلٰكنّ البِرّ من آمن بالله واليوم الآخر» فقد اضاف في نهاية البحث (وقد يجوزمعنى الكلام: ولكن البارّ من آمن بالله، فيكون «البّر» مصدراً وضع موضع الاسم).(٣٣)

وفي بحثه في آية «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم».البقرة:٢٢٣

قال الطبري: ان ذلك من باب تسمية السبب باسم المسبب، و«حرث» هنا بمعنى «المزرعة» ويقول الطبري: (اما الحرث فهي مزرعة يحرث منها)، «فأتوا»: «الفاء فعل امر من مادة اتيان وفي هذه الآية كناية عن الجماع» كما في الآية التى تسبقها بهذا المعنى ايضاً «**...فاتوهن من حيث امركم الله...**». وقد طرح الطبري في جملة «انّى شئتم» بحثاً شيّقاً واشار فيه الى مسألة تفاوت بعض الكلمات التي تبدو ظاهراً بنفس المعنى ولكنها في الاصل تتفاوت وتفاوتها دقيق جداً، ويمكن معرفة اختلافها فقط من جواب القائل.

مثلاً «اين» من ادوات الاستفهام وتستخدم للسؤال عن المحل والمكان، لانه

حين يسأل «اين اخوك»؟ فالجواب أن نقول «ببلدة كذا» او «موضع كذا» و«كيف» للسؤال عن الحال، فحين يقال «كيف انت»؟ فالجواب مثلاً «بخير» او «في عافية» ولكن اذا ماقيل «انّى' يحيي الله هذا الميّت»؟ فجوابه ان يقال «من وجه كذا» اوحين يقال «انّى' لک هذا المال»؟ فالجواب ان يقال «من كذا وكذا»، كما ورد في آية ٣٧ من سورة آل عمران، فزكريا(ع) يسأل مريم(ع): **«انّى' لک هذا قالت هو من عند الله ...»** اوفي آية ٢٥٩ سورة البقرة: «**...أنّى' يحيي هذه الله بعد موتها...**».

ويورد الطبري في هذا المجال ايضاً امثلة من اشعار العرب، وفي جميع هذه الاشعار فان جواب «أنّى'» يأتي جملة «في وجه كذا».

واشارالطبري في هذا البحث بهذا الاستدلال أولاً لاختلاف الكلمات في المعنى' والمفهوم، وثانياً أظهر خطأ اولئک الذين قالوا في تفسيرآية «...**فأتوا حرثكم أنّى' شئتم...**» «انّى' شئتم» يعني «كيف شئتم» او «حيث شئتم» او «حتى' شئتم» او «اين شئتم» راضاف انه يجب الانتباه للمعنى' الصحيح لـ«أنّى' شئتم».

ويقول الطبري: فبيّن خطأ قول من زعم ان قوله تعالى' «**فأتوا حرثكم أنّى شئتم**» دليل على اباحة اتيان النساء في الادبار لان الدبر لامحترث فيه،(٣٤) وانما قال تعالى' ذكره «حرث لكم فأتوا حرثكم في اي وجوهه شئتم».(٣٥)

وفي البحث في القسم الاخير للآية «**والى الله ترجع الامور**» البقرة:٢١٠ قال الطبري(٣٦): المنظور من الامور الاعمال الدنيوية والاخروية، وهذه العمومية استفادها الطبري من ألف ولام «الامور» وكون الكلمة بصيغة الجمع، وفي الواقع فان الطبري بيّن هنا قاعدة بلاغية: «الجمع المحلّى' بالألف واللام يفيد العموم». ويقول الطبري نفسه «انه جلّ ثناؤه عنى' بها جميع الامور ولم يعن بها بعضاً دون بعض».

في العربية، احياناً، الألف واللام تدل على' العموم كما يقال «يعجبني العسل» و«البغل اقوى' من الحمار» حيث تدلّ كلمتا «العسل» و«البغل» المحلاّتان بالألف واللام على' العموم.

عند البحث في آية «**والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً وصية لأزواجهم متاعاً الى الحول...**» البقرة:٢٤٠، قال

الطبري: في اعراب كلمة «وصيّة» اختلاف، فبعض قرأ كلمة وصية بالنصب وعليه فيجب تقدير كلمة «فليوصوا»، والعبارة في الاصل تصبح: «فليوصوا وصية لأزواجهم»، وبعض آخر قرأ كلمة «وصيّة» مرفوعة، اما سبب رفعها فقا ل البعض انها نائب فاعل للفعل «كتبت» وتقدير ذلک کان «كتبت عليهم وصية لأزواجهم». وقد رجّح الطبري قراءة الرفع علىٰ قراءة النصب.

وقد اشار الطبري في ذيل الآية مورد البحث بايجازالى الحذف، ونعلم ان احد موارد الحذف (٣٧) هو عندما تكون الكلمة مورد الحذف معلومة كما في «عالم الغيب والشهادة» الانعام:٧٣ يعني: «هو عالم الغيب والشهادة»، و«فعّال لما يريد» هود:١٠٧ يعني: «هو فعّال لمايريد» وقد جاء الطبري بأمثلة للحذف في المورد الذي يكون المحذوف معلوماً للسامع (٣٨) مثل: «سورة أنزلناها» النور:١، و «براءة من الله ورسوله» التوبة:١ حيث حذف المبتدأ في هاتين الآيتين.

الهوامش

---

(١) للتوسع في المباحث البلاغية للكتاب، يرجع الى ابي زكريا يحيي' بن زياد الفرّاء، معاني القرآن، تحقيق: محمد يوسف نحاتي، محمد علي النجار، طبع: دارالكتب المصرية، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م ، ج١، ص١٤-٤٨-٢٠٢-١٥-٣٣-٦٣.

(٢) ابو عبيدة معمربن مثنى'، مجاز القرآن، تحقيق: الدكتورمحمد فؤاد سزگين، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م، مكتبة الخانجي، دارالفكر «في مجلّدين»، ج١، ص٨-١٦.

(٣) للتوسع في المطلب يرجع الى مقالة الكاتب تحت عنوان «مجاز القرآن، ابوعبيدة وتأثيره في الكتب البلاغية» بالفارسية في نشرة جامعة الالهيات والمعارف الاسلامية،مشهد، ش٢٠، خريف ١٣٥٥ش-١٣٩٧هـ‍ق.

(٤) الحافظ ابوبكر احمد بن علي الخطيب البغدادي «متوفى' ٤٦٣هـ تاريخ بغداد «مدينة السلام» ١٣٤٩هـ-١٩٣١م «في١٤مجلداً»، ج ٣، ص ٢٥٤، وكذلک يرجع الى: شمس الدين احمد بن محمد المعروف بـ:إبن خلكان «المتوفى' ٦٨١هـ وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨م -١٣٦٧هـ الطبعة الاولى'، ج٤، ص٣٢٦.

(٥) تبعاً لقول الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد

١٠: ١٧٠» وكلام ابن خلكان في كتاب «وفيات الاعيان ٢: ٢٤٦و٢٤٧»، وتبعاً للمذكور في «معجم المطبوعات العربية والمعربة ١: ٢١١و٢١٢»، فان لابن قتيبة الكثير من التأليفات.

(٦) ابومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق وشرح السيد أحمد الصقر، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، القاهرة، دارالتراث، المقدمة، ص٧.

(٧) مقدمة تأويل مشكل القرآن، ص١١.

(٨) صنف ابن المعتز كتاب «البديع» سنة ٢٧٤هـ لكن ابن قتيبة كان قد تعرض للمباحث البلاغية قبل عدة سنوات من تأليف كتاب «البديع» وذلك في كتابه «تأويل مشكل القرآن»، ولكن نظراً لان كتابه كان قد ضم مباحث مختلفة ولم يشبه كتاب «البديع» الذي تحدث فقط عن المباحث البلاغية، فلم يعرف كتابه في قاموس الثقافة الاسلامية ككتاب بلاغة، في حين ان ابن قتيبة كان قد تحدث في كتابه «تأويل مشكل القرآن» عن مبحث المجاز من ص١٠٣ الى١٣٤ وعن الاستعارة من ص ١٣٤ [illegible] ١٨٤، وعن الحذف من ص٢١٠ الى٢٣١، [illegible] عن الكناية والتعريض.

[illegible] والتعرف على' شخصية ابن [illegible] العلماء فيه وفي كتابه «تأويل [illegible] الى المقدمة التحقيقية في ٨٧ صفحة [illegible] المحقق السيد احمد الصقر الذي طبع الكتاب المذكور مع تحقيقه العلمي وتعليقاته الممتازة.

(١٠) في القرن الثالث الهجري كان هناك علماء آخرون كتبوا في المسائل القرآنية والبلاغية مثل: الجاحظ البصري «ت ٢٥٥هـ الذين كتب في باب نظم القرآن واسلوبه المدهش كتاب «نظم القرآن»، ولكن مع الأسف فأن هذا الكتاب فقد ولم يصل لأيدينا، وقد اورد الجاحظ اسم هذا الكتاب عندالبحث عن الايجاز في كتابه «الحيوان»،

«الجاحظ الحيوان، طبع فوزي عطوي، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ ١٩٧٨م، بيروت، ج ٣ ص ٤٢٨.

كما اورد ذكره ابن النديم أيضاً في كتابه «الفهرست» سنه ٣٧٧هـ ضمن فصل الكتب المؤلفة في باب القرآ ن،

«ابن النديم، الفهرست، نشر دارالمعرفة، بيروت ص٥٧»

أبوعلي محمّد بن يزيد الواسطي «ت ٣٠٦هـ من المتكلّمين الاجلاّء، كتب كتاباً في ايجاز القرآن بناءً على ما ذكر إبن النديم «الفهرست ص[illegible]»، ولم يصل، مع الاسف، الى أيدينا.

حاجي خليفه [illegible] ج١ ص١٢٠ من كتاب «كشف الظنون» كتب بانّ الواسطي له كتاب «اعجاز القرآن» واثبت اسم اب الواسطي «زيد» وليس «يزيد» وقال ان عبدالقاهر الجرجاني كتب شرحين على الكتاب المذكور سمّى' الشرح الكبير بـ«المعتضد».

(١١) الاسم الاصلي للكتاب «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الذي عُرف باسم مؤلفه: ابي جعفر محمدبن جرير الطبري «ت ٣١٠ هـ»: تفسيرالطبري، وقد اسميناه هنا بهذا الاسم.

(١٢) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، المعروف بـ تفسير الكشّاف، مصر، الطبعة الاولى! ١٣٥٤هـ-ق، ج١ ص١٦.

(١٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المعروف بتفسير الطبري، ابوجعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق وتعليق الحواشي والاحاديث لمحمود محمد شاكرواحمد محمدشاكر، دارالمعارف بمصر، بدون تاريخ، ج١ ص١٢٨.

(١٤) تفسيرالطبري ١: ١٥٣-١٥٤

(١٥) ١: ٣١٨

(١٦) ١: ٣١٨-٣٢٠-للتوسع البحث.

(١٧) ١: ٣٢٧-٣٢٨

(١٨) ١: ٥٢١

(١٩) ١: ٢٧٩

(٢٠) ١: ١٦٠-١٦٦

(٢١) ١: ٢٢٦

(٢٢) [illegible]-٢٦٩

(٢٣) [illegible]: ٤٨٤-٤٨٩

(٢٤) ٢: ٣٢٤

(٢٥) ٢: ٤٨٥

(٢٦) ٢: ١٦٢-١٦٤

(٢٧) ٢: ٣٥٧-٣٦٠

(٢٨) ٢: ٣٥٠

(٢٩) ٢: ٣٩٤-٣٩٥

(٣٠) ٢: ٣٩٦

(٣١) ٣: ١١٤

(٣٢) ٣: ٣٣٩

(٣٣) هذا القول لأبي عبيدة في «مجاز القرآن» ص ٦٥، وكذا الفرّاء في «معاني القرآن» ١: ١٠٤.

(٣٤) وقد نقلت رواية عن جابر وابن عباس تدلّ على هذا المعنى!.

(٣٥) تفسيرالطبري ٤: ٢٩٧-٤١٦

(٣٦) ٤: ٢٦٩-٢٧٠

(٣٧) ذكرعلماء البلاغة عند البحث في «ايجاز الحذف» عدة اسباب للحذف:

١- الاختصار وتجنب الاطاله واللغو.

٢- قصر الزمان، يعني اننا اذا [illegible] المحذوف فاننا سنفتقد امراً مهماً، وهذا [illegible] في [illegible] والاغراء مثل «ناقة الله وسقياها» [illegible] «ناقة الله» من باب التحذير [illegible] و«سقياها» من باب الاغراء [illegible]

٣- في مكان [illegible]

«عالم الغيب والشهادة» الانعام: [illegible]

هود:١٠٧ حيث ان الموضوع من مختصات الباري وحده لاسواه.

٤- الحذف يورد احياناً للتحقير مثل «صمٌ بُكم عُمي...» البقرة:٨، يعني «هم» أي المنافقين والمرائين.

٥- يأتي الحذف احياناً لمراعاة الفواصل «في القرآن الكريم يقال اصطلاح «فاصلة» محل السجع»، مثل «ما ودعك ربّك وماقلى[!]» الضحى[!]:٢ حيث كان في الاصل «ما ودعك ربّك وما قلاك» ولكن لان الآيات التي سبقته كانت تختم بالف مقصورة «والضحى[!]، والليل اذا سجى[!]» فقد جاءت هذه الآية ايضاً بهذه الصورة وحذف المفعول جهة رعاية الفاصلة.

٦ - عند ما يدل الفعل البعدي على المحذوف، مثل آية «ولو شاء لهداكم» النحل:٩ يعني «ولو شاء هدايتكم لهداكم».

(٣٨) تفسيرالطبري ٥: ٢٥٠-٢٥٢

دروس من تجربة العبد الصالح ذي القرنين

الشيخ محمدعلي جواد

قال تعالى:

(ويَسـألونَكَ عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً * إنّا مكنّا له في الأرض وآتينـاهُ من كل شيء سببـاً * فأتبَـعَ سَبَباً * حتّىٰ إذا بَلَغَ مَغْـرب الشّمس وجـدَهـا تغْرُبُ في عينٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عندها قوماً قُلنا يا ذا القَرنين إمّا أن تُعَذِبَ وَإمّا أن تَتّخِذ فيهم حسناً * قال أمّا مَنْ ظَلَمَ فسوف نُعذِبُهُ ثُمَ يُرَدُّ الى رَبِّه فَيُعذِبُه عَذاباً نُكراً * وأمّا مَنْ آمن وَعَـمِـلَ صالحـاً فله جَزاءً الحُـسْنى وسنقـولُ له مِنْ أمرنا يُسْرا * ثُمَ أتْبَعَ سَبَبَـاً * حَتّىٰ إذا بلغَ مَطلِعَ الشمس وجَدها تطلُعُ على قوم لم نجعَلْ لَهُمْ مِنْ دونها سِتْراً * كذٰلك وقد أحطنا بما لديهِ خُبْرا * ثُمَّ أتبَعَ سَبَباً * حَتّىٰ إذا بلغَ بين السّـدين وَجَـدَ مِنْ دُونِهما قَوْماً لا يكـادون يَفـقـهُـونَ قَوْلاً * قالوا ياذا القَرْنين إنّ يأجوجَ ومَأجُوجَ مُفسدونَ في الأرضِ فهـل نجعَـلُ لكَ خَرْجاً علىٰ أن تجعَلَ بَينَنَا وبينهم سدّاً * قال ما مكّنّي فيـه ربّي خيرٌ فأعينـوني بقُوّةٍ أجعَلْ بينكم وبينَهُمْ رَدْماً * آتوني زُبرَ الحديدِ حتّـىٰ إذا ساوىٰ بين الصَّـدَفـين قالَ انفُخُوا حتّىٰ إذا جعله ناراً قال آتوني أفـرغْ عليـه قِطْراً * فمـا اسطاعوا أنْ يَظْهَـرُوهُ وما استطاعوا له نَقباً * قالَ هذا رحمـةٌ مِنْ ربّي فاذا جاءَ وعْد ربّي جَعَلَه دَكّاءَ وكان وَعْدُ رَبّي حقّاً)[1]

ليس لنا حاجة الى اسم ذي القَرنين ولا الى ذكر مسقطِ رأسِه ولا إلى اسماء البُلدان التي فتحها أو لماذا لقب بذي القَرنين كما يفعل المفسرون والمؤرخون، بل نحن نقتفي أثر القرآن الكريم نتلو علىٰ القاريء العزيز منه ذكراً - أي قرآناً - وقد نقلنا آياته البيّنات ثم نضعُ بين يديه ما تحملُه تلك الآيات من مفاهيمَ قرآنيهٍ تَبني حياةَ الفرد والجماعةِ علىٰ حدٍّ سواء.

والقرآن الكريم انما احتفظ لذي القَرنين بهذا الذكرِ المجيدِ لما كان عليه من الطاعة والعبودية الحقة لله عزوجل، وهكذا هو شأن القرآن يسجل اكملَ التجاربِ البشريةِ الخيّرة ويقدمُها لنا لعلنا نهتدي بها ونستنير.

والتجربةُ التي بين أيدينا هي تجربةُ عبدٍ صالحٍ أحبَّ الله وأحبَّه ونصحَ للهِ فنصحه، ومن هنا جاء التمكينُ له في الأرض وإتيانهُ من كل شيء سبباً. فهي تَعرضُ لنا كيف آتّبع هذا الرجلُ المخلصُ والعبدُ الصالحُ الأسبابَ التي هيّأها الله له، وكيف تحرّك بها بقوة وعدالة وعن أمر من الله تعالى، وكيف تعامل مع الجماهير والبلاد المفتوحة، وكم كانت نزاهته في طريق الوصول للاهداف الالهية، وكم كانت قدرته علىٰ ربط الأحداث بموجدها، وقابليته علىٰ جذب بني الأنسان صوب الهدف الذي يقصده.

ونوَدُّ أن نذكّرَ أن القرآن بقدر ما هو كتاب علم فهو كتاب عمل، وهذا العبد الصالح الذي سنتناول ذكره بعد قليل ضمن عدة نقاط هو ممن جسّدَ هذا المفهوم بحق، ونذكّر أيضاً أن القرآن لا ينتصر ولا يكون فاتحاً قلوبَ الناس وعقولَهم الاّ إذا تهيّأ له مَنْ يحملُه بكفتيهِ كفةِ العلم وكفة العمل وباخلاص وأمانة.

ذو القرنين وحبّه لله ونصحه له عزَّ وجلّ:

ان الآيات القرآنية - الوارد ذكرُها في صَدْرِ البحث - ابتَدَأتِ الحديثَ عن ذي القَرنين، بذكر التمكين له في الأرض، واتيانه من كل شيء سبباً، وهذا - أي التمكين - يتوقفُ علىٰ مقدماتٍ، حسب مقتضىٰ الحكمة الإلهية. إذ كلُّ أفرادِ البشر يتمنَوْنَ أن يمكّنَهم اللهُ في الأرض، ويؤتيهمُ الأسبابَ كلَّ الاسباب، لأنهم يعتقدون أن ذلك من الكمالات التي تنزعُ نحوَها نفسُ الأنسان وتتطلع اليها[٢]. أو لأنهم يخافون الضررَ فيريدون دفعَه بهذا التمكين، أو قل تمنّيهُم هذا ناشيءٌ من حبِّ السلامة وحبِّ

الملك، ولكن ليس كلُّ الأفراد حظّهم واحدٌ، في هذا الأمر، إذا قلّما مَكّنَ اللهُ شخصاً وآتاه من الأسباب، مثلما آتىٰ ذا القرنين ومكّنَــه، ولو أردنا أن نعرفَ السِّرَ في ذلك نجدُ من خلال التأمل والأمعان الدقيق في الآيــات البيّنــات ان هذا الأمــرَ مرتبــطٌ بمقــدمــاتٍ يجبُ توفرُها، إنْ وُجِدتْ وُجِدَ وإنْ عُدِمَتْ عُدِمَ.

ومن هذه المقــدمــات التي توفــرتْ عليهــا شخصيةُ هذا العبدِ الصالحِ هو حبُّه لله عزوجل، وطاعتهُ، والنصحُ له، فقد رُوِيَ عن عليٍّ(ع) في روايةٍ لا نذكَرُ منها الّا مَحَلَّ الشاهد، وذلك في جوابه ابن الكوّاء، عنــدما سألَه عن خبر ذي القَرنين فقال: «... كانَ عَبْداً أحبَّ اللهَ فاحبّه ونصحَ لله فنصحه الله...»[٣].

وفي روايةٍ اخرىٰ عن سالم بن أبي الجُعد قال: سُئِل عليٌّ عن ذي القَرنين أنبيٌّ هُو؟ فقال: سمعتُ نبيكم(ص) يقول: «هو عبدٌ ناصَحَ اللهَ فنصَحه»[٤].

والنصحُ لله هو ضِدُّ الغِشّ والحِقد فكــان هذا العبــدُ الصــالحُ معروفاً بهذه الخَصلة الحميدة، إذْ كيفَ يغُشُ اللهَ تعالىٰ وهو يَعلَمُ انه محيطٌ بما لديه خُبْرا، وكيف يَحقِدُ وهو يرىٰ غِناه بالله ويرىٰ قلبَه هائماً متعلقاً بالله عزَّ وجلّ.

والنصحُ للهِ، كما هو معروفٌ، لدىٰ علماءِ الأخلاق، هو النصحُ لله في حقِّه وفي خلقــهِ، وهو أفضلُ عملٍ يُقدمُه الإنسانُ لنفسِه وللبشرية. فقد جاء عن الصادق(ع) قوله: «عليك بالنصحِ لله في خلقِه فلن تلقاه بعمل أفضلَ منه»[٥].

والنصــحُ للهِ هو حبُّ اللهِ عزَّ وجلّ، والتقــربُ اليه بصالحاتِ الأعمال، وغايةُ النصُّحِ لله أن يحُبَ الإنسانُ ما يُحبُّه اللهُ، ويُبغضُ ما يُبغضُــه الله، والنصحُ للهِ، هَو الصِّدق مع الله في كلِّ المواطنِ، وقد ذكر في معــاني النصــح «بقــاءُ نعمــةِ اللهِ علىٰ المسلمين وكراهةُ وصولِ الشَّرِ اليهم»[٦].

وقد تجسّدَ هذا المعنىٰ جليّاً في حياة هذا العبــدِ الصالح، حيث أقدمَ علىٰ بناءِ أســاسِ العَــدْل في تلكَ المجتمعات التي تعيشُ الظُلمَ والإعتسافَ، مثلما أقدم علىٰ بناءِ الردم، ليحفظَ اولئك القومَ الذين شكوْا اليه أمرَ يأجوجَ ومأجوجَ، ووصولَ شرِّهما اليهم، منــطلِقاً من هذا الباعث الحميد، وهــو إرادةُ بقــاءِ نعمــةِ العــدلِ والأمانِ عليهم، وكراهة ممارسةِ الظلمِ والشرِّ فيهم.

والنصحُ لله هو الإخلاصُ له عزَّ وجلَ، الا ترىٰ أنَّ ذا القرنين أقدمَ علىٰ بناء الرَّدم الحديدي المحكَم، دون أن يرجوَ غَرضاً دنيوياً من مَدحٍ ، أو سمعةٍ، أو أجرٍ ماليٍّ أو تخليدِ ذكرٍ أو غيرها من الأمور الحقيرة، بل بنىٰ ذلك الردمَ الذي استَغرقَ جُهداً ووقتاً لا يعلمُه الّا الله من أجلِ أن يتقرَبَ الىٰ الله عزَّ وجلّ، ومن أجلِ أن يحميَ بني الإنسانِ من شرورِ المعتدين والظالمين. ومعلومٌ أنَّ العملَ بهذا الباعث ـ أيْ باعثَ الأخلاص ـ لا يتحققُ الا لحبٍ لله تعالىٰ مستهترٍ به مستغرقَ الهمِ بعظمتِه وجلالِه، بحيث لم يكن ملتفتاً الىٰ الدنيا مطلقاً، ويشهدُ لهذا المقام الذي عليه هذا العبدُ الصالح انه لم يجذبْه الخرجَ (الأجر) الذي عَرضوهُ عليه مقابل ان يجعل لهم سدّاً ولم يسلِ له لعابة بل قال: **(ما مكنّي فيه ربّي خير)**. وعلىٰ رغمِ قوةِ ذلك السّدوَ عظمتِه لم تَصرفْه عظمةُ ذلك السّدِ عن عظمةِ الله والاعترافِ بنعمتِه فقالَ وَهمهُ الاستغراقُ بعظمةِ الله وجلاله دون غيره (.. **قال هذا نعمة من ربي**..). فالإخلاصُ لله هو أن لا يرىٰ الانسانُ لنفسه شيئاً أمامَ الله تعالىٰ بل كلُّ شيءٍ هو نعمةٌ من الله تستحقُّ الشكرَ والذكر. وذو القرنين لم ينسبْ لنفسه هذا العمل، علىٰ رغم جسامتِه وعظمتِه، وكيفَ لا يكون عظيماً وهو قد أنقذَ به قوماً مستضعفين من شرورِ وغاراتِ المعتدين والناهبين اقوامٌ ياجوجَ ومأجوج؟ وكيف لا يكون عظيماً ذلك السّدُّ الذي حارَ المؤرخون في وصفِ متانتِه، وقوته، وطوله، وعَرضِه، وارتفاعِه بحيث قال عنه القرآن **(فما اسطاعوا أن يظهروهُ وما استطاعوا له نَقباً)** بل كان التفانيّ، وبذلُ الجهد، والخبرةُ العلميةُ، من أجلِ ان يكون العملُ خالصاً لوجهِ الله، ومن أجل ان يكونَ متقناً جداً أشدَّ من نفس العمل، حيث نَلمَسُ من قوله **(هذا رحمةٌ من ربّي)** بعد تمامية العمل أنه لا يريد أن يَرىٰ نفسَه محسناً أو ممتناً عليهم بل يريد أن يوجّه الانظار الى الله عزَّ وجلّ، من غير ان يلاحظ عوضاً لنفسه في الدنيا والآخرة. وأنه لا يريد أن يَحمُدَه عليه أحد الا الله، بل يُريُد من الحمدِ والشكر والعرفان أن يتوجهَ نحو الله عزَّ وجلّ ورَدَ عن الامام الصادق(ع): «الابقاءُ علىٰ العملِ حتىٰ يخلصَ أشدُّ من العملِ، والعملُ الخالصُ الذي لا تُريد أن يحمدَك عليه أحدٌ الّا الله عزَّ وجلّ...»[٧].

ولا غرابةَ حينما يحتفظُ القرآنُ بهذا

العملِ المخلصِ، والذكرِ الحميد، لهذا العبدِ الصالح المخلصِ، الذي أبىٰ إلّا أن يذكرَ اللهَ ويعظمَهُ، في لحظاتِ نشوةِ الانجاز، فنسبَ ما انجزه الىٰ الله، وانه نعمةٌ من ربه. ولا غرابةَ أن يقدّم تجربَته وعمله كنموذجٍ صالح، يقتدي به العاملون في طريق الله.

فالقرآن الذي لم يذكرْ من ذي القرنين اسماً، ولا تعريفاً لشخصه، ولا لموطنه، ولا لعمره الا من أجل التركيز على الجوهرِ والعمدةِ، في حياةِ هذا الرجل الصالح، وهو عملهُ الذي أخلصَ فيه لله تعالى.

روي أن موسى ـ عليه السلام ـ لمّا تعجّلَ الى ربه رأىٰ في ظلِّ العرش رَجُلاً، فغبطه، وقال: «ان هذا الكريمُ على ربه. فسأل ربَه أن يخبَره باسمه فلم يُخبرْه بأسمه، وقال: أُحدثك عن عمله: كان لا يحسدُ الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله، وكان لا يَعُقُّ والديه، ولا يمشي بالنميمة»[٨].

٢ـ اتّباعه للأسباب التي آتاه الله اياها:

اتباع الأسباب حركة موفقة ومنسجمة مع سنة الله عزَّ وجلّ وبالعكس الاستغناء عن الأسباب في الوصول الى المسببات والنتائج إذهابٌ لسنةِ الله تعالى وحكمته، فقد «روي أن زاهداً من الزهاد فارقَ الأمصارَ وقامَ في سفحِ جبلٍ وقال: لا أسألُ أحداً شيئاً حتّى يأتيني ربّي برزقي، فقَعَدَ سبْعاً فكادَ يموتُ ولم يأته رزقُهَ، فقال: يا ربِّ إنْ احييتَني فاتِني برزقي الذي قسمتَ لي وإلاّ فاقبضْني اليك. فأوحىٰ الله اليه وعزتي وجلالي لا أرزقُك حتىٰ تدخلَ الأمصارَ وتقعدَ بين الناس. فدخل المصرَ واقامَ فجاءَ هذا بطعامٍ وهذا بشرابٍ، فاكلَ وشربَ وأوجسَ في نفسه ذلك، فأوحىَ إليه أردتَ أن تُذهبَ حكمتي بزُهدك في الدنيا، أما علمتَ انْ أرزُقْ عبدي بأيدي عبادي أحبّ اليّ من أنْ أرزقَه بيد قدرتي»[٩].

كما ان العملَ بالاسباب المظنونةِ والمقطوعة كما يقول العلماءُ أمرٌ لا يُخالفُ التَّوكُّلَ على الله. إنّما الذي يُخالفُ التوكلَ هو التعلقُ بالأسبابِ الموهومةِ مثلَ الطيرة والرُّقية، وإنَّ التوكلَ على الله لا يتحققُ الا للذين هُم في المرتبةِ الثالثة من مَراتب التوحيد[١٠] وهم اولئك الذين يعتقدون أنّ الله هو فاعلُ الاسباب وموجدُها والمؤثر في

كل شيء ولا فاعلَ حقيقياً غيرهُ، وحدَه لا شريك له، وان جميعَ الموجوداتِ من ابداعِ الله عزوجل واختراعاتِه.

وبعد أن استعرضنا بهذه العُجالةِ والايجازِ هذه الأمورَ الثلاثةَ وهي كونُ اتباعِ الاسباب هو عملٌ بالحكمة الالهية، وانّ الاسبابَ المقطوعةَ والمظنونةَ لا تُخالفُ التوكلَ، وانّ التوكلَ الحقَّ لا يتحققُ إلّا لِمَنْ هو في المرتبةِ الثالثةِ من مراتب التوحيد، نقولُ: إنَّ ذا القرنين بعدَ أن آتاهُ الله من كلِّ شيء سبباً أتبعَ سبباً ومقتضىٰ ما فاتَ من بيانٍ أنه عَمل وفقَ سُنة الله في ربط الأسباب بالمسببات. قال الامام الصادق(ع): «أبىٰ اللهُ أنْ يجريَ الأشياءَ الّا بالاسباب فجعلَ لكلِّ شيءٍ سببا»[11].

ونقولُ: لما كان السببُ الذي سلكَهُ واتخذَه وصلةً لهدفِهِ من النوعِ المظنونِ لأنَّ تهيئةَ السلاحَ مثلاً واعدادَ الجيش والمؤونةِ والخطط العسكرية وتوفيرَ مستلزماتِ السَّيْر وغيرها من امورٍ كلُّ ذلك من اجلِ الانتصارِ على حكّام الشرك والكفر الذين كانوا يحكمون الارض آنذاك ويضلون عبادَ الله. ومعلوم أن النصرَ العسكري وفق الاعدادات المادية ظنيٌّ، اذن فاتباع هذه الاسباب لا يُخالف حقيقة التوكل على الله لأنها ظنيةٌ ولان الثقةَ الحقيقيةَ قائمةٌ بالسببِ الكلي الحقيقي وهو اللهُ تعالى شأنهُ ولا حظَّ لهذه الثقة بهذه الأسباب الظنية فلا تقل ان ذا القرنين من المقرّبين ومن أولياءِ الله الصالحين فكيف وهو على هذه الدرجة من التوحيد والتوكل على الله يتبع الأسبابَ المادية الظاهرية كما هو صريح قوله تعالى **(فاتبعَ سبباً)** نقول هو إتّبعَها ولكن دون ان تكون ثقتَهُ المطلقة بها وانما هي باللهِ سبحانه وتعالى، لانها صادرةٌ منه وهو الموجدُ لها وانما لا وجودَ لها لولاه، غاية الأمر انه باتباعه الاسباب عَمِلَ وفقَ سنةِ الله وحكمته لا غير، ولهذا نراه حينما أكمل بناءَ الرّدمِ الحديدي لم يتفوّهْ في التعبيرِ عنه بأكثر من هذه الكلمة قال **(هذا رحمةٌ من ربي)** فقد أرجعَ كلَّ ما اعطتْهُ الاسبابُ الظاهريةُ الى السببِ الفاعلِ والموجدِ الحقيقيّ لها وهو الله تعالى. كما بيّنَ بكلامه هذا أنّ هذه الأسبابَ انمَا خلقها الله وسخرها لكي تكونَ رحمةً للبشرية وأنه اقتضتْ حكمتُهُ وسنتُه انه لا وصولَ الى الاهدافِ والمقاصدِ الا من خلالِ سلوكِها

واتباعها.

ولكنْ من المعلوم أنَّ القائد العسكري الربّاني يختار الأسباب بحرية وبملء ارادته، إذا كانت تنسجم مع ارادة الله تعالى، أما أن يقيّدَ بشروطٍ من الخارج، أو تُركّع ارادته بأساليب تساوميه، فهذهِ الممارسات، التي يعاني منها اكثر ثوار هذا العصر، لاتنسجم مع حرية اختيار القائد العسكري، في توجيه الأسباب، وفي استعمالها، وامتلاكها الى غير ذلك، لهذا نجد ان الآية الكريمة، بعد ان ذكرت مامكّنه المولى عزَّ وجلّ به. تركت لهذا العبد الصالح مجالاً يستعمل فيه ارادته، وفكره، وحريته فقالت: **(فأتبعَ سبباً)**.

ثُمّ إنَّ قولَه تعالى: **(فأتْبَعَ سبباً)** جاءَتْ فيه كلمةُ السببِ نكرةً وذلك للدلالةِ على أن الأسبابَ لا تنحصرُ ولا تُعدُّ وانها تتغيرُ حَسَبَ الاماكنِ والظروفِ الخارجية والمقاصدِ ومقاطعِ الزمن وأنّ مِنْ حقّ الانسانِ اختيار واتباع ما يناسبُ أهدافَه ومرامَيه من الأسباب سرّاً أو علناً، وقوله تعالى: **(ثم أتبعَ سبباً)** يُشير الى أن الاسبابَ التي سلكَها في سيرِه نحو الشرق غير الأسبابِ التي سلكها في مسيره نحو الغرب، فقد يكونُ الهدفُ واحداً في كِلا السيرين وهو تحريرُ بني الانسان من ظلامِ الشرك والكفر والوثنية إلّا أن المكان الذي قصدَه أولَ الأمر كما يظهرُ من الآية الكريمة مكان محاذٍ للمياه قال تعالى: **(حتّى إذا بلغ مغربَ الشمسِ وجدها تغرُبُ في عينٍ حمئةٍ ووجدَ عندها قوماً...)** والمكان الذي قصده ثانياً كما يظهرُ من الآية الكريمة كان مكاناً صحراوياً قال تعالى: **(حتّى إذا بلغ مطلِعَ الشمسِ وجدهَا تطلُعُ على قومٍ لم نجعْل لهم من دونِها سِتراً)** واما في سيره الثالث فقد جاء قوله تعالى: **(ثم اتبع سبباً)** يشير الى جملةٍ من الاسباب الأخرى التي لا تتلائمُ مع ذينك السيرين السابقين. فكان من جملةِ الأسباب التي اعتمد عليها زبرُ الحديد والصفرُ المذاب ومنافيخُ الهواء وسَواعدُ الرجال والعلمُ الهندسيّ العمرانيّ والنارُ... الخ من الأسباب التي اشتركت بدرجةٍ أُولى أو ثانوية في انجازِ الردم. فكان ذو القرنين يعلمُ علمَ اليقين ان هذه الموجودات والاسماءَ كلُّها مخلوقاتٌ لله سبحانه وتعالى ومسخّرات بامره ولهذا فهو لم ينسبْ هذه الرحمة - التي كانت سبباً لنجاةِ وأمانِ أصحاب السّد - الى نفسِه أو الى قوتهم أو

الى معدنِ الحديد أو النحاس أو الى غيرها من الاسباب المادية الاخرى بل لفت انتباهَ الجميع الى أن السببَ الحقيقي في هذا الأمر هَوَ الله دون غيره (**قال هذا رحمة من ربي**)[١٢] فليست الرحمةُ من الحديد ولا من سواعدِ الرجال ولا من علمهِ وملكاتهِ الهندسية ولا من عوامل الطبيعة الاخرىٰ ولا من افاضات وبركات وأنفاسِ الأرباب الاخرىٰ التي كانت تُعبدُ من دون الله بل هي من ربِّهِ من اللهِ الواحد الأحد فهو لم يرَ في الوجود مصدراً للرحمة غيرهَ ولم ير فاعلاً ومؤثراً غيرَه.

ان مثلَ هذا الإنسانِ لا طمعَ للشيطان فيه بل الشيطانُ حالما يلتقي أو يعلمُ بأمثالِ هؤلاء الاولياء يولّي خائباً آيساً لا يستطيعُ أن يأخذَ من دينهم شيئاً ولا من توحيدِهم ذرةً.

ان مثلَ هذا الإنسان لأهلٌ وجديرٌ أن يتحرك وان تكون له مسؤوليةُ محاربةِ الشرك وفتحِ بلادِ المشركين وتعبيدِ البشريةِ لله تعالى.

إنَ أمثالِ هذه المهمات ـ يحتاجُ الى امثال هؤلاء الرجال وإلّا فالأمر واضح حينما يدعي مدع بمحاربة المشركين والكافرين وهو بعد لم يتسلح بسلاح الايمان بالله فضلا عن توحيده بالمرتبة الثالثة من مراتب التوحيد فهو أجدر أن يُحاربَ لا أن يُحارِبَ وأن يبتعد على الأقل من هذا النفاق لا أن يتمشدق كذباً وافتراءً على الله وعلى الناس.

ومن هنا نعلم أن مهمات فتح البلدان وفتح قلوب الناس وازالة الشرك والكفر والضلال. والتبعية لغير الله من قلوبهم تحتاج الى عبد صالح مخلص متوكل على الله لا على أعداء الله معتمد على الايمان وصفِّه وأدواتِه ووسائله لا على الكفر واساليبه ومناهجه وسياساته وألاعيبه.

٣ـ القيادة القديرة العادلة:

لقد عرفنا في النقطة الثانية أن هذه القيادة كانت على مستوىً رفيع جداً في الأيمان والتوكل على الله وفي هذه النقطة نحاول أن نُلقي الضوءَ على الصفات الاخرى التي تتصفُ بها هذه الشخصيةُ القيادية.

وصفةُ القدرة واضحةٌ بجلاء في كلام ذي القرنين وفي فعله وفي امتنان الله تعالى عليه، فما جاء في كلامه يشير الى هذه القدرة، فالقومُ سألوه أن يجعلَ بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّاً.. فقال لهم: (...

أجعلْ بينكم وبينهم ردما) والردم هو السد الشديد فقد اجابهم بأكبر مما يتمنّون ويُريدون وهذا دليل على امتلاك القدرة والإمكانية.

وقد عرضوا عليه أجراً إن هو جعلَ هذا السَّدَ فرفض قائلاً: **(ما مكنّي فيه ربي خير..)** مستغنياً عن عروضهم المالية لانه يملكُ اكبرَ منها وافضلَ واوسعَ.

ثم ان رجلاً يجوبُ الارضَ غرباً وشرقاً يقاتِلُ الظلمة ويطاردُ المشركينَ ويَفتحُ بُلدانَهم ويحكُم فيهم لهو على قدرةٍ لا يتمتع بمثلها الا نبيٌّ أو وليٌّ.

وان رَجلاً يبني سدّاً من الحديد والنحاس المذاب بين جبلين ويمنعُ به أعتى أجيالِ السطو والغصب والعُدوان والإفساد من أمثال يأجوج ومأجوج لهو على مكانةٍ من القدرة المكينة. فأفعالهُ هي الاخرى اذن تشير الى أنّه ذو قدرةٍ غريبة ناهيك عمّا اخبر عنه القرآن الكريم حيث قال المولى: **(انا مكنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا)** هذا حال القدرة.

وأقول تطبيقاً لهذا الكلام المتين إنّ ذا القَرنين وهو في تلك الحالةِ حالةِ الرجل الفاتح التي تتهايجُ فيها عادةً قوى كثيرةٌ متضادةٌ وامورٌ متعددةٌ استطاع ان يقهر تلك القوى بالقوة الخيِّرة المودعة عنده وهي قوة العقل السليم «خليفة الله على جميع القوى» هذه القوة الفطرية التي فطر الله الناس عليها وهي استقباح الظلم واستنكاره، ناهيك عن أنّ ذا القرنين كما يظهرُ من قوله تعالى **(وقد أحطنا بما لديه خبراً)** أنه ما كان يَردُ ولا يصدُرُ الا عن هدايةٍ يهتدي بها وأمرٍ يأتمره كما أشار الى مثل هذا المعنى الكنائي عند ذكر مسيره الى الغرب بقوله: **(قلنا ياذا القرنين... الخ الآية)**[١٤] فالقائل هو الله تعالى ولكن لا دلالة في قوله على أنه يوحى اليه لكون القول أعم من الوحي المختص بالنبوة كما يقول السيّد الطباطبائي في تفسيره.

وبما أن الرجلَ الفاتحَ والقائدَ المظفّر يتمكنُ من قمعِ الظلم وابادتِه لم يكتفِ بهذا الاستنكارَ والاستقباحَ الذي تهتفُ به الفطرةُ، بل لا بُدَّ لاستئصالِه من ترتيبِ آثارٍ اكثر من الاستنكار ألا وهي قهرَ الظلم والظالمين وتعذيبهُم بما جنتْ أيديهم وتعظيماً لامرِ الله تعالى في محوهم والقضاء على شريعتهم. وكيف لا يفعل هكذا وهو يُريد أن تسود العدالةُ بين أفراد المجتمع الإنساني، أليس من الحق والعدِل أن يبدأ أولاً بتطبيقها في مجالها

الحق وهذا هو مجالها.

وأخيراً نقول في بحث هذه النقطة إنَّ قدرةً يتحلّى بها قائدُ بدون أن ترافقها العدالةُ لهي أقربُ الى خدمةِ الظلم منه الى غيرِه، والواقعُ الخارجي مشحونٌ بهذه المصاديقِ من الحكّامِ والأولياءِ الظلمة الذين يمتلكونَ قدرةً ولا يمتلكون عدالةً في التصرفِ بتلك القدرة.

ولا يفوتك - أخي القاريء العزيز - حقيقةَ العادل «فالعادل بالحقيقة يجب ان يكون حكيماً عالماً بالنواميس الإلهية الصادرة من عندِ الله سبحانه لحفظ المساواة)[١٥]... كما أن العدالة غير مفهوم الإنسانية التي يتمشدَقُ بها حكام العالم هذا اليوم وغير مفهوم الشرعية الدولية التي يُقتّلُ تحت غطائها مئاتُ الآلاف من الابرياء. وليس من البعيد أيضاً لو قلنا ان القرآن الكريم احتفظ للبشرية بهذه التجربة الايمانية العادلة في ميدان الفتوح والحروب لما تشعّ به هذه التجربة من رُوحِ العدالة الحقّة والانسانية النبيلة واحقاق حق وابطال باطل.

وإذا كان النبي محمد(ص) يقول: «عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سبعين سنة»[١٦] نستطيعُ أن نقولَ ان تلك الفترةَ التي خرج بها ذو القرنين كانت بحق فترةً ذهبيةً في حياة الانسان عامةً بعد أن عاشَ في دياجير الظلم والقهر والاستعباد والسلب والعدوان والشرك والكفر أعصاراً رهيبة.

٤- نزاهة القائد واستغناؤه عما في أيدي الناس:

عندما يرى الإنسان نفسه محتاجاً الى متاع دنيوي وفي نفس الوقت يرى هذا المتاع موفوراً عند الآخرين فمرة يسألهم ويتملق لهم من اجل نيله أو يطمع به فيدنو منهم ويخدمهم ويتزلف اليهم لاستحصاله، ومرة لا تمتدُّ عينهُ الى ما في أيدي الناس حتى وان كان في فاقة وحاجة شديدة، بل هو يصبر ويحتسب أمرَه عند الله متمثلًا قول الامام الصادق(ع): شيعتنا من لا يسأل الناس ولو مات جوعاً» ومرة ثالثة يرى الانسانُ أن ما في يده من امكانات وقدرات وامتعة واموال وأشياء اخرى تُغنيه عما في ايدي الناس ولا حاجة له بما يمتلكون من أموال. فأما الأول فهو الطامع وبئس عبداً ذليلاً هو، وأما الثاني فهو ضدّ الأول غنيّ النفس وهو الخير كله قال سيد الساجدين(ع): «رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في أيدي

الناس»[17] وأما الثالث فهو القنوع الذي لا يشتغل قلبهُ بالزائد عما في يده وعما رزقه الله واعطاه وهو اغنى العباد روي أن موسى سأل ربه تعالى، وقال: «أي عبادك أغنىٰ قال أقنعهم بما أعطيته»[18] وقال الامام الباقر(ع): «من قنع بما رزقه الله فهو اغنىٰ الناس»[19]. فمن اي صنف من الأصناف الثلاثة يكون ذو القرنين؟ والجواب بلا شك هو من الصنف الثالث لان الله مكنه وآتاه من كل شيء سببا، فهو لا يحتاج بعد هذا التمكين الى الخرج الذي يجمعه جمهور المستضعفين ويقتطعونه من لقمة عيشهم لا سيما وهم في حالة يرثىٰ لها يشكون السلب والنهب والتقتيل الذي يُمارس ضدهم من قبل أقوام يأجوج ومأجوج. وهو بلا شك من الصنف الثاني لكن على نحو الموجبة الجزئية إذ هو ليس من لا يمتلك ما يراه موفوراً ومهيئاً عند اولئك القوم الذين طلبوا منه بناء سدّ لهم بل لانه غنيّ النفس كما يشهد له قوله «ما مكني فيه ربي خير» ولأن «اليأس مما في أيدي الناس عز المؤمن في دينه» كما جاء في رواية عن الامام الباقر(ع)[20]. فذو القرنين صاحب رسالة ودين ويريد لهذا الدين ان يكون عزيزاً وقوياً بعزة المؤمن وعفته، ولهذا عبر عن الذي في يده بأنه خير وقد جاءت كلمة الخير نكرة للاشارة الى أن الخير الذي آتاه الله إيّاه عامٌ وشاملٌ غيرُ منحصرٍ بجهة أو شيء من الأشياء.

وهذه المشكلة كثيراً ما تعترض القادة في الطريق الى الهدف فتشغلهم عنه، ولكن هذا القائد الرسالي لم يُدِرْ بالاً لهذا الأمر بفضل الله وعطائه بل تجاوزه الى الاستجابة لهم في الطلب الذي يَصُبُّ في مصلحتهم ومصلحة الدين الا وهو بناء السد. فقد استجاب لهم بأكثر واكبر مما كانوا يتوقعون قال: «فاعينوني بقوة اجعلْ بينكم وبينهم ردما». وهذه الأستجابة طبيعية لأن القائد المخلص لرسالته يتفاعل مع الناس ويعيش همومهم ويعطيهم اكثر حينما يجد الاجواء اكثر ملائمة للعمل والعطاء. ثم ان ديدن الاولياء الصالحين هو عمل المعروف الى أهله وهؤلاء هم من أهله، لانهم مستضعفون يخشون سطوة الناهبين والغاصبين والمفسدين من أقوام يأجوج ومأجوج، فهل هناك أحوج منهم آنذاك الى اسداء هذا المعروف وهو بناء سد متين حريز يمنع عنهم صولات وغارات يأجوج

ومأجوج الذين اشبعوهم قتلاً وسبياً ونهباً وتدميرا. وهل هناك أحب من عمل المعروف ومن ذات المعروف عند رجل صالح أحب الله فأحبه الله ونصح لله فنصحه الله يدعو الى التقوىٰ والعدل والاحسان يقول الباقر(ع): «انَّ مِنْ احبِّ عباد الله الى الله، لَمَنْ حُبِّبَ اليه المعروفُ وحُبِّبَ اليه فعالُه»[٢١].

ثم لا يفوتنا أن هذا العبدَ الصالح قد آتاه الله ما آتاه، فماذا يعمل بما آتاه الله؟ أليس هذا مورداً صالحاً. لئن يقدم فيه ما ينشر فيه شريعة الله ويثبِّت به دينَه.

قال الامام الصادق(ع): «ان من بقاء المسلمين وبقاء الاسلام ان تصيرَ الاموالُ عند من يعرفُ فيها الحقَ ويصنعُ المعروف وان من فناء الاسلام وفناءِ المسلمين أنْ تصير الأموالُ في أيدي من لا يعرفُ فيها الحقَّ ولا يصنعُ فيها المعروف[٢٢].

هذا فضلاً عن رغبة هذا العبدِ الصالح في ثوابِ الله حينما يجعلُ بينهم وبين اعداء البشرية والانسانِ ردماً يصدُّهم عن الوصولِ اليهم وحينما يساهم في مشروع أمنيّ يحفظ استقرارُ المنطقة من حالات العدوان وتجاوز الحقوق وامتهان الكرامات وهدر الدماء ومن حالات القلق وأعمال الإرهاب.

وهُو بهذا المشروع الضخم لا يريد أيضاً أن يبيعَ جهدَه ووقتَه وطاقاتِ من معه من أجل مدحٍ أوثناءٍ أوسمعةٍ أوجاهٍ لانه ليس هناك شيء أشرفَ وَأسمىٰ من تمكين الله وايتائه الذي بيّناهُ، وانما يُريدُ التقربَ الى الله تعالى فلا المدحُ والإطراء عنده ألذَّ من الخرج ولا الخرجُ عند ألذَّ من المدح بل اللذيذ عنده فقط هو العمل لمرضاة الله ولوجهِ الله تعالى.

ولكن مَنْ يعملُ لمرضات الله فان الله كفيل أن يظهرَ له عملَه، وأيُّ اظهارٍ اعظم من هذا الذي يُتلىٰ ليل نهار «... آتوني زبر الحديد حتَّىٰ إذا ساوىٰ بين الصدفين قال انفخوا فيه حتَّىٰ إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا» وكأنَّ هذا العبدَ الصالح يعمل الآن، وكأنه يأمر ويتحرك وينفذ ويخطط... الخ.

وهكذا يبقىٰ العملُ الصالح والمعروف يعرِّف باصحابهِ المخلصين في الحياة الدنيا ما دامت الدنيا وكذلك يعرِّف بهم في الآخرة. قال الامام الصادق(ع): «قال اصحاب رسول الله(ص): يا رسول

الله فداك آباؤنا وامهاتنا! ان أصحاب المعروف في الدنيا عرفوا بمعروفهم فبم يعرفون في الاخرة؟ فقال(ص): ان الله إذا أدخل أهلَ الجنة، أمرَ ريحاً عبقة طيبة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمرُّ أحدٌ منهم بملأٍ من أهل الجنة الّا وجدوا ريحه، فقالوا: هذا من أهل المعروف».

أين هذا المشروع الأمني من مشاريع هذا اليوم. فمعظم مشاريع الحكام انما تقام اليوم من أجل امتصاص خيرات الناس والتضييق عليهم وليس لدفع غائلة العدوان بل لتكونَ ذريعةً قابلة التحريك والتقليبِ من أجل العدوان عليهم متى شاءوا.

ما أحوجَنا اليوم الى سدّ يأجوج ومأجوج ليحميَ بلادَ الاسلام وخيرات المسلمين من عداواتِ الصليبية واحقادها ومن بربريةِ أمريكا وحلفائها واجرام الصهاينة واعتداءاتهم وما أحوجنا الى سد عظيم يحمينا من استهتار الاستكبار ومكر الاستعمار، انه ليس الا الأسلامُ وليس الا وحدةٌ أبناءِ الاسلام فانهم إذا ما اتحدّوا سيكونون كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضهم بعضاً فلا يسطيعون أن يظهروه ولا يستطيعون له نقبا فمتى؟ انَّ هذا السؤال تبقىٰ الاجابة عليه ضروريةً في مثل هذه الظروف الخطيرة.

٥- العلم يوجه القوة ويستثمرها:

هذا العبد الصالح تحرك بالقوة لأن الله مكّنه وآتاه من كل شيء سببا ولكن لا يخفىٰ على اللبيب ان هذه القوة كان العدل والرفق يرافقها كما بيّنا. وليست ـ هي ـ قوة البطش التي عرف بها التتر والنازيون أو وُسِمَتْ بها دولُ الغرب وعلى رأسها أمريكا وفرنسا وبريطانيا في هذا اليوم اعاذ الله الانسانية من شرِّها.

والعلم هو أحدُ عناصرِ هذه القوة بل سيدُها وسنامُها الى هذا اليوم، وهذا العبدُ الصالح ذو القرنين من ضمن الامكانات التي مكنه الله بها هي العلم اضافةً الى العقل المشرق بنور الحق وقوة الجسم وغيرهما مما مرّ ذكره. والغرض من ذكر هذه الملكة ـ أي العلم ـ في بحثنا هذا هو للاشارة الى أن جميع الاعمال والانجازات والاحكام والتصرفات التي صدرت في هذه المسيرة الثلاثية الاتجاه والمكللة بالنجاح الباهر والنصر المظفر في كل الاتجاهات كانت تنبيء عن وجود رجل على نصيب رائع من هذه الملكة العظيمة، لان هذه

المسيرة الجهادية الظافرة اتسمت كما قلنا بالقوة ومعلوم ان القوة ما لم تَكن هناك نفس عارفة بالله وواعية لاحكامه وعالمة بتشريعاته تحركها بالشكل الذي اعطت معه هذه النتائج الباهرة لا تستطيع بمفردها ان تصل الى نتيجة كهذه، حيث ان القوىٰ التي تفتح هذا اليوم مثل تلك الفتوح تقدم ابناء تلك البلدان حطباً لمصالحها ودروعاً تحتمي بها وتقدمها لتقلل عن نفسها الخسائر المادية والبشرية ولم ترقب فيهم إلّا ولا ذمة، والسبب واضح هو أن وراء هذه القوة نفوساً فارغة من الرحمة وخالية من الانسانية وكافرة بكل مباديء السماء التي هي مباديء الأمن والسلام والاخوة والتعاون.

والعلم كما ورد في الاخبار يهتف بالعمل، والمسيرة بكل اتجاهاتها كما هو واضح عملية وليس فيها مساحة للقول المجرد عن العمل أو الشعار الذي لا يتصل بالواقع فالمسيرة بوصفها استوعبت ارجاء المعمورة شرقاً وغرباً وما بينهما ومن دون أن يكون فيها تلكؤ أو تباطؤ في اعطاء النتائج الكبيرة والمثمرة تَدُلُّ دلالة واضحة على ارتكازها على الكفاءة العلمية. ولا أدري كيف عرف اولئك القوم الذين لا يفقهون قولاً كما يُعبِّرُ عنهم القرآنُ كفاءةَ هذا القائِد وعلمِه بالامور العمرانية والتحصيناتِ الوقائية، لا أظنُّ انهم عرفوه من أقواله وخطبه بل من خلال ما شاهدوه فيه من براعةٍ في إدارة جيشه ومما لديه من خبرة تصرف فريدة فيما مكّنه الله به وآتاه في طريق الوصول الى اهدافه ومقاصده، هذا اضافة الى امارات الصلاح التي تشع كالنور على محيّا هذا العبد الصالح. وفعلاً كان كما وقع في ظنهم واكثر. فاستطاع بفعل ما متعه الله من قدرة علمية دنيوية واخروية ان يربط تلك العناصر الفلزية بأمتن رباط ويكوّنَ منها رد ما سجلته الآياتُ القرآنية مشروعاً ضخماً وانجازاً جبّارا قاهرا. كما انه استطاع ان يربط هذا الحدث وغيره بالموجد والفاعل والمنعم وهو الله عزوجل قال: **(هذا رحمةٌ من ربي)** وقال: **(ما مكني فيه ربي خير)** وقال: **(ثم يُردُّ الى ربه فيعذبُه عذاباً نكرا)** وقال: **(فاذا جاء وعد ربي جعله دكّاءَ وكان وعدُ ربي حقّاً)** وفي هذا القول الأخير نوعُ تنبؤٍ بمستقبلِ هذا الردم ونوع معرفة خاصة بمستقبل الحياة.

ان رجلاً يعرف هذه الاشياء ثم يعرفُ انها من فعل الله ومرتبطة بقدرته

وارادته وحكمته لهو عارفٌ بالله وحقيق بأن يدعوَ الى الله، فهذه المعرفةُ هي التي تُريه الأسبابَ الصالحة وتسددُ خطواته في طريق الهدف وتحقق له بالتالي النجاحَ والظفر، ان مثل هذا العلم هو الذي يصلح فقط لتوجيه القوة واستثمارها استثماراً صحيحاً ونافعاً للبشرية، ان هذا العلم هو الكمال والرقي والحضارة والتقدم أما غيره فالوجدان يشهد على ما أقول هو التخلف الحضاري والبهيمية والضياع والمآسي والعدوان وما الى ذلك.

اننا بحاجة الى علم يجعل حالاتِ البطش والابتزازِ وحالاتِ امتهان الشعوب واللعب بمقدراتهم دكّاءَ (ذليلة).

اننا بقدر ما تقدمْنا في علوم الدنيا وصِرْنا نتحدّى الجبالَ والهضابَ والبحار والارض والفضاء، بحث لم يَحُلْ أمامَنا سدٌّ ولا حاجزٌ ولا حقولُ الغامٍ ولا بقعُ زيت كبيرة بحاجة الى علوم نصير بها قادرين على تحدّي نوازع الشر والعدوان وحالات الهيمنة والاستكبار ومشاريع الاحتيال والاستعمار بحيث تكون هذه العلوم نصيراً للشعوب المظلومة المضطهدة.

اننا بحاجة الى أن نُعطيَ للآخرين لا أن نحتال عليهم ونفكرَ كيف نسرقُهم ونتسلط عليهم.

اننا بحاجة الى أن نَدرسَ بدقةٍ مشاريعَ القرآن الكريم ومفاهيمَ السماء لانها وُضعت من اجل الانسان ومن أجل الحياة الحرة الكريمة لا أن نعنىٰ بمخططات الشياطين ونتسابق في المساهمة فيها والتهالك على موائدها وغنائمها وهباتها وأسهمها، واخيراً اننا بحاجة الى علم يستثمر مظاهرَ القوةِ لصالح الإنسان لا لتدمير الانسان والفتك به اننا بحاجة الى علم بقدرِ ما يُعطي للحياة الدنيا يجب ان ياخذ بيد هذا الانسان نحو الله ونحو الحياة الاخرىٰ ألا ترىٰ ان ذا القرنين حينما اكمل بناء السد قال «هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعدُ ربي جعله دكّاءَ وكان وعدُ ربي حقّاً». فالقوة العظيمة التي أعطت لبني الانسان هذا الانجاز العظيم رحمة منها بهم هي نفسها فقط القديرة على جعله دكّاء متىٰ شاءت وبطريقة علمية أيضاً. وهذا هو الحق في المسألة فالعلم والقدرة يبنيان ويهدمان ونحن في الحياة الدنيا نريد من بني الانسان العلم والقدرة البناءة لا الهدامة التي تحيل جهود الانسان هباءً منثوراً.

ولـ... يجب أن نعلم ان الله ليس له

عداوةٌ مع السّدود حتّى يجعلها دكّاء، لكن مثلما كانت ردما لا يسطاع ان يُظهر ولا يستطاع ان ينقب فهي كذلك عندما كان الناس يطلبون المنعة والنجاة بصدق ويتمسكون بمَنْ يُوَفّرُ لهم ذلك حقّاً ويساهمون فيه، ولكن عندما يُلقىٰ الحبل على الغارب ويتخلّىٰ الناس عن كرامتهم وحياتهم وأموالهم ويعلّقون حفظها على الامانيّ أو يفهمون تحمُّل الاضرارِ بها صبراً وبلاءً لابُدَّ منه ويسيرون في معالجه الاحداث على خلاف السَيْر في سنةِ الله في ربط الاسباب بالمسببات عندئذ ترتفع الرحمة ويأتي عليها يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون يمزقونها ويعملون فيها معاولهم فيظهرونها بعد ان كانت لم تظهر وينقبونها بعد ان كانت لم تنقب، وعندئذ تأتي عليها سنة الله في الموجودات فتكون دكّاء. لان الناس الذين من دونها قد تخلوا عنها وتدكدك حالهم ولم يروموا العز والامان والاستقرار الذي كانوا يرومونه وكان وعد ربي حقّاً إنها السنة الكونية الثابتة التي لا تتخلف ولا تتأخر ولا تتأثر بالرُّقىٰ والرؤىٰ ولا يمنعها من الجريان سواء احرقتَ لها البخورَ أو نقرتَ لها القدور. ويبقىٰ شيء أخير ينبغي ان ننتبهَ لهُ هو أن هذا السد جاء كمثال لحفظ اولئك القوم في ذلك المكان وفي ذلك الزمان لأنّ يأجوج ومأجوج ما كان لهم طريق لاستغلال هؤلاء ونهبهم الا من خلال تلك الفتحة الموجودة بين ذينك الجبلين أما حينما تعيش البشرية على سواحل البحار والمحيطات فلها اسلوب آخر في تحصينها من الأخطار التي تتهددها، وكذلك لو كانت تعيش في الارض المستوية في البَرّ فلها اسلوب آخر وهذه الأساليب تمنع أهلها ما دام أهلها يواكبون سنة الله في استثمار الأسباب للوصول الى المسببات، والا فالجمود على هالة معينة معناه أن ترمي نفسك من باب قطار السنة الكونية المتحرك فهو لن ينتظرك ولن يمسك بأطراف ثيابك.

اذن علينا ان نكون في حالة من الحركة واليقظة المستمرة في متابعة التطور وفي تقصّي الاسباب الجديدة للحصول على نتائج جديدة فالخيار بأيدينا والاسباب كثيرة والاسرار أكثر وما علينا الا أن نتبع سبباً لكن بشرط ان لا يُحيط به الأعداء خُبرا.

* * *

(١) الكهف: ٨٣ ـ ٩٨.

(٢) يقرر العلامة النراقي(ره): «ان الكمال الحقيقي للانسان هو العلم الحقيقي وفضائل الأخلاق والحرية والقدرة وأما اعتقاد الأنسان بأن الكمال الحقيقي في المال والجاه فذلك وهم وجهل لأنهما ينقطعان بالموت» انظر جامع السعادات ٢: ٣٦٩.

(٣) الميزان ١٣: ٣٤٧.

(٤) المرجع السابق :

(٥) جامع السعادات ٢: ٢١٩.

(٦) جامع السعادات ٢: ٢١٨.

(٧) المرجع السابق ٢: ٤١٧.

(٨) المرجع السابق ٢: ٢٢٠.

(٩) الاخلاق للسيد عبدالله شبر: ٢٧٨.

(١٠) يقول صاحب المحجة البيضاء(ره) في ج٧: ٣٨٢، مراتب التوحيد أربعة: الاولىٰ قول لا اله الا الله مع غفلة القلب عنها وهو توحيد المنافقين والثانية يصدق بمعنىٰ اللفظ قلبه وهو اعتقاد وهو توحيد عموم المسلمين والثالثة وهي مقام المقربين ان يرىٰ اشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة: ان لا يرىٰ الا واحداً وهي مشاهدة الصديقين ويسميه اهل المعرفة الفناء في التوحيد

(١١) الكافي: ١٨٣.

(١٢) ان ورود كلمة الرب خمس مرات دون غيرها من الفاظ الجلالة لعله ـ والله العالم ـ للاشارة الى أنّ تلك المجتمعات كانت مجتمعات مشركة تعبد اربابا اخرىٰ غير الله. وتأكيد ذي القرنين على كلمة «ربي» لتعلم تلك المجتمعات بأن الذي يعذب يوم القيامة والذي هو مصدر الرحمة والذي وعده الحق والذي يمكن عباده هو ربه وليس اربابهم التي لا تنفع ولا تدفع الضر ولا تعقل وليس لها شأن».

(١٣) جامع السعادات ١: ١٢٠.

(١٤) الميزان ١٣: ٣٦٣.

(١٥) جامع السعادات ١: ١١٥.

(١٦) ن.م. ١: ١٢٢.

(١٧) البحار ٧٣: ٢٧١.

(١٨) جامع السعادت ١: ١٠٥.

(١٩) ن.م.

(٢٠) ن.م. ١: ١١١.

(٢١) ن.م.

(٢٢) ن.م. ٢: ١٦٩.

* * *

في العدد القادم

التفسير: نشأته وتطوره - الشيخ محمدهادي معرفة

نظرة في تفسير البرهان - السيد محيى الدين المشعل

فهم العترة لمعارف القرآن: حقائق ومميزات - الشيخ جعفرالهادي

في رحاب سورة الفاتحة - الشيخ سامي الخفاجي

عالم المخطوطات [تعريف ببعض المخطوطات النفيسة الموجودة في مكتبة دار القرآن الكريم]

القرآن وأسرارالكون - الدكتور محمد ناصري

خمسة نماذج متقابلة في القرآن - الاستاذ أحمد القاضي

حول مصطلح الامام - الشيخ علي الكوراني

في أفعال الحج و شئ من أحكامه

السيد حسين الطباطبائي اليزدي

٤٢- قوله تعالى:«فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً فَمن النّاس مَن يقول ربّنا ءاتنا في الدّنيا وما له في الآخرة من خَلاق» (البقرة:٢٠٠).

٤٣- قوله تعالى:«ومنهم مَن يقول ربّنا ءاتنا في الدّنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار»(البقرة:٢٠١).

٤٤- قوله تعالى:«اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب»(البقرة:٢٠٢).

٤٥- قوله تعالى:«واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتّقى واتّقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون» (البقرة:٢٠٣).

المفردات

قضيتم: أصل القضاء فصل الأمر على أحكام، ويفصل بالفراغ منه كقضاء المناسک، وقد يفصل بأن يعمل على تمامه؛ كقوله تعالى في سورة فصّلت:«فقضاهنّ سبع سموات»(الاية:١٢) وقد يفصل بالحكم كقضاء القاضي.

مناسک: جمع المنسک، اما اسم مكان والمراد الافعال الواقعة هناک، من قبيل

تسمية الحال باسم المحل، أو على حذف مضاف، أي عبادات مناسككم؛ واما مصدر بالمعنى المصدري أو بمعنى المفعول وانما جمع لانه يشتمل على أفعال مختلفة.

الخلاق: النصيب من الخير.

قِنا: في أصله من وقى يقي وقاية ووقاء، ومعناه الحجز بين الشيئين، والوقاء الحاجز الذي يسلم به من الضرر.

النصيب: الحظ اعم من الخير والشر، وجمعه انصباء وانصبه.

معدودات: تستعمل في اللغة للشئ القليل.

المحشر: جمع القوم من كل ناحية الى مكان، والمحشر المكان الذي يحشرون فيه.

التفسير

قوله تعالى:«فاذا قضيتم مناسككم» أي أتيتم بها وفرغتم من عبادتكم التي أُمرتُم بها، وهي العبادات الحجية والمناسک هناک أعمال الحج، لانها يُنسک بها لله تعالى.

«واذكروا الله كذكركم ءاباءكم أو أشد ذكراً» كان من عادة العرب في الجاهلية ان لا يغيب آباؤهم عن ذكرهم بالافتخار بهم والاطراء لمحاسنهم، وكان في المواسم لهم مجامع يفاخرون فيها بآبائهم ويذكرون أنسابهم وأفعالهم، فالمعنى العام في الآية: ان لا تغفلوا عن ذكر الله بعد اداء المناسک؛ واولى ما يحتج عليهم في ذلک هو انهم لا يغفلون عن ذكر آبائهم؛ اذن فكيف يغفلون عن ذكر الله تعالى بما هو اهله، وهو الاله العظيم وله المجد والجلال وهو خالقهم، وكل نعمة عليهم حتى التي من آبائهم هي منه جلّت الاؤه؛ فعلى هذا ينبغي أن يكون ذكرهم لله أشد من ذكر الآباء، بنحو يناسب جلاله ونعماءه.

وجاء في التفسير في الروايات ببيان بعض المصاديق العادية في ذكرهم لآبائهم. ففي صحيحة الكافي عن منصور بن حازم عن الصادق(ع): كانوا اذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا، فقال الرجل منهم: كان ابي يفعل كذا وكذا؛ فقال عزوجل:«فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً»... الحديث.(1)

وفي رواية زرارة عن ابي جعفر(ع) قال: سألته عن قوله:«واذكروا الله...» الاية قال: ان اهل الجاهلية كان من قولهم: كلا وابيک؛ فأمروا ان يقولوا: لا والله بلى

والله.(٢)

وفي تفسير الدر المنثور للسيوطي(٣) عن ابن عباس قال: كان اهل الجاهلية يقفون في الموسم ويقول الرجل: كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فانزل الله:«فاذكروا الله...» الاية.

وفي تفسير الطبري(٤) عن مجاهد:«فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله...» الاية، قال: تفاخرت العرب بينها بفعل آبائها يوم النحر حين فرغوا، فأمروا بذكر الله مكان ذلك.

وبعد ما بيّن سبحانه وتعالى ان الذكر يجب ان يكون لله وهو اهله، اشار بان الذين يذكرون ويدعون على قسمين بقوله:«فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق» وقد اعرض عن الآخرة ونسيها، وصار كل همه الدنيا، ولا يبالي أكانت شهواته وحظوظه حسنة ام سيئة، فهو يطلب الدنيا من كل باب، ويسلك اليها كل طريق من دون التفات الى النافع والضار، فباستيلاء حب الدنيا عليه لم يكن للاخرة وما اعده الله للمتقين من الرضوان موضع في نفسه حتى يرجوه ويدعو الله فيه، كما انه لا يخاف ما توعد الله به المجرمين فيها فيلجأ اليه تعالى بان يقيه شره، فحرمان هذا الفريق من خلاق الاخرة اثر كسبه وسوء اختياره وتفضيله حظوظ الدنيا الفانية على سعادة الاخرة الباقية. هذا هو القسم الاول، واما القسم الثاني فاشار اليهم بقوله:

«ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» أي ومنهم يطلب خير الدنيا والاخرة جميعاً، لا حظوظ الدنيا وحدها كيفما كانت كالفرقة الاولى.

واختلف المفسرون في معنى الحسنة؛ فعن انس وقتادة: نعيم الدنيا ونعيم الاخرة.

وروي عن ابي عبد الله(ع): انها سعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا، ورضوان الله والجنة في الاخرة.(٥)

وقيل: العلم والعبادة في الدنيا، والجنة في الاخرة؛ عن الحسن وقتادة.

وقيل: هي المال في الدنيا وفي الاخرة الجنة؛ عن ابن زيد والسدي.

وقيل: هي المرأة الصالحة في الدنيا، وفي الاخرة الجنة؛ عن علي(ع).

وروي عن النبي(ص) انه قال: من

أُوتي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على امر دنياه واخراه فقد أُتي في الدنيا حسنة، وفي الاخرة حسنة ووقي عذاب النار؛ كما في مجمع البيان.(٤)

وقد يسبق الى الذهن انه لم يذكر سبحانه في التقسيم من لا يطلب الا حسنة الاخرة.

فالجواب عنه: ان التقسيم لبيان ما عليه الانسان في الواقع ونفس الامر بحسب داعي الجبلة وتأثير التربية وهدى الدين، ولا يكاد يوجد في الناس من لا تتوجه نَفسه الى حسن الحال في الدنيا مهما يكن غالبا عليه العمل للاخرة، لان الانسان محتاج بالذات في الدنيا، وانه يحس بالجوع والبرد والتعب والمرض، وهذا الاحتياج والاحساس يحمله ولو كرها واجباراً عل التماس رفع الحاجة وتخفيف ألم ذلک الاحساس، والشرع الاقدس يكلفه ذلک بما يقدر عليه من اسبابه، ومنها الدعاء والالتماس من الله تعالى شأنه، وعلاوة على ذلک قد جعل الله عليه حقوقا لبدنه واهله وولده واخوانه وامته، فلا يتحقق بعضها الا بالطلب من الله عزوجل؛ هذا والله العالم.

قوله تعالى:«اولئک لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب» اشارة الى الفريق الثاني، وهم الذين يطلبون سعادة الدارين والحسنة في المنزلتين، لان حكم الفريق الاول الذي يطلب الدنيا وحدها قد علم من قوله تعالى:«وماله في الاخرة من خلاق». فيكون المعنى: لهم نصيب من جنس ما كسبوا من الاعمال الحسنة وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة، ونعطيهم على حسب ما كسبوا، وبحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الاخرة.

وقيل: اشارة الى القسمين؛ فيكون المعنى: وان لكل فريق نصيباً من جنس ما كسبوا.

وبعد ما بيّن نصيبهم، وصف نفسه سبحانه وتعالى بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة اعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر منه. وذُكِرَ لمعنى قوله:«سريع الحساب» وجوه، منها ان معناه: سريع المجازاة للعباد على اعمالهم وقيل: يحاسب جميع الخلق في قدر لمحة، ويوشک ان يقيم القيامة فيحاسبهم، فبادروا اكثار الذكر وطلب الاخرة.

وروي: انه يحاسب الخلق في قدر حلب شاة. وروي في مقدار فواق ناقة.

ورُوي: في مقدار لمح البصر. ومنها-انه سبحانه وتعالى سريع لدعاء هؤلاء والاجابة لهم من غير احتباس فيه وبحثٍ عن المقدار الذي يستحقه كل داع كما يحتبس المخلوقون للاحصاء والاحتساب.

عن ابن عباس انه قال: يريد انه لا حساب على هؤلاء انما يعطون كتبهم بايمانهم فيقال لهم هذه سيئاتكم قد تجاوزت بها عنكم وهذه حسناتكم قد ضعفتها لكم.(٧)

قوله تعالى:«**واذكرو الله في ايام معدودات**» وهي أيام التشريق الثلاثة من حادي عشر ذي الحجة الى الثالث عشر، والذكر المأمور به هنا هو اما التكبير فيها عقيب خمس عشرة صلاة اذا كان بمنى، ومن كان بغير منى يكبر عقيب عشر صلوات واولها صلاة الظهر؛ واما المراد به مطلق الدعاء، كما سيأتي في بيان حكم الاية:«فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى» أي من تعجل في سفره وارتحاله بعد اقامته يومين بمنى، ونفر في النفر الاول وهو الثاني من ايام التشريق بعد الزوال الى غروب الشمس جاز له، واما اذا غربت الشمس فلا يجوز له ان ينفر، ويجب عليه المبيت وينفر يوم الثالث عشر في أي وقت شاء بعد الرمي. وفي الاء الرحمن في قوله تعالى:«**فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه**» قال: لهذه الجملة ظاهر لا حاجة الى بيانه لأن في رواية الكافي عن اسماعيل بن نحيح رداً عليه، ولأن الاحاديث عن الفريقين جاءت على خلافه، وهو ان المراد غفرت ذنوبه؛ منها صحيحة الحلبي في قوله تعالى:«**الحج اشهر معلومات**» وصحيحة عبد الأعلى؛ ورواية ابن عيينة، ورواية ابن نحيح، ورواية العياشي عن معاوية بن عمار وعن ابي بصير عن الصادق(ع)، ورواه في الدر المنثور عن علي امير المؤمنين(ع) وابن مسعود وابن عمر وابن عباس في احدى الروايتين؛ فيكون حاصل المراد من الاية الكريمة: فمن اتم حجه بالتعجل والتأخر غفرت ذنوبه فانه لا اثر لخصوص عنوان التعجل والتأخر في غفران الذنوب.

ثم سبحانه وتعالى جعل التخيير في التعجيل والتأخير مشروطاً بالتقوى، حيث قال:«لمن اتقى» وهو النساء والصيد كما هو المشهور بين الامامية.

وقيل: ان الحج يقع مبروراً مكفراً

للسيئات اذا اتقى ما نهى الله عنه.

«واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون» مقتضى سوق الاية هو انه لا تتكلوا على غفران ما مضى من ذنوبكم بسبب الحج، بل اتقوا الله في ما بقي من اعماركم وتحققوا وليكن على علمكم وذكركم دائما انكم الى الله لا محالة تحشرون فيحاسبكم على اعمالكم ويجازيكم، فاستعدوا لذلك بالتقوى، وتزودوا منها فانها خير الزاد.

في تفسير البرهان: عن سلام بن المستنير عن ابي جعفر(ع): في قوله:« فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى» منهم الصيد واتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله عليه في إحرامه.(٨)

وفيه ايضاً-عن حماد، عنه: في قوله:«لمن اتقى» الصيد فان ابتلي بشئ من الصيد ففداه فليس له ان ينفر في يومين.(٩)

الحكم

وفيه مسائل:

المسألة-١: في قوله تعالى:**«فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله...»** الاية اختلف الفقهاء في هذا الذكر على قولين:

احدهما- ان المراد منه التكبير المختص بأيام منى في أيام التشريق، لانه الذكر المرغب فيه، كما يظهر من صحيحة منصور بن حازم المتقدم شطر منها، من قوله: فقال عزوجل:**«فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله كذكركم ابائكم أو أشد ذكرا»** قال والتكبير: الله اكبر، الله اكبر، لا اله الا الله، والله اكبر، الله اكبر، ولله الحمد، الله اكبر، على ما هدانا، الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الانعام.

وقد يخطر بالبال: ان الاية ليست هكذا فكيف يحسن الاستدلال بها. فالجواب عنه: الظاهر انه(ع) طوى الوسط فكأنه قال:«فاذا افضتم من عرفات» الى قوله:«فاذكروا الله كذكركم...» الاية وهو كثيراً ما يقع في نقل الكلام وذكر الآيتين في الحديث للايماء الى انه سبحانه وتعالى كرر الامر بالذكر هنا مبالغة في الرد على من كان يتشاغل بالمفاخرة في تلك الايام الشريفة والاماكن المقدسة، كما تقدم في بيان تفسير الاية.

والثاني- ان يراد بالذكر مطلق الدعاء والثناء على الله تعالى شانه، فانه مرغوب اليه في تلك الاماكن المقدسة، وحمله على

ما يشتمل التكبير وغيره من الاذكار والادعية لا يبعد بل هو الاقرب؛ كما في قلائد الدرر. والله العالم.

المسألة-٢: في قوله تعالى:«**مناسككم**» قد ذكرنا ان المناسك جمع منسك، والمراد منه ههنا جميع ما أمر الله تعالى به الناس في الحج من الاعمال والاذكار والعبادات، وقد تقدم ان الحج على ثلاثة اقسام التمتع والافراد والقِران، وذكرنا الفارق بينهم.(١٠)

ولما كان حج التمتع هو فرض النائي عندنا ومحل ابتلاء اكثر المسلمين لا بأس بالاشارة الى اعماله من ابتدائه الى نهايته على سبيل الاجمال، حتى يسهل الوقوف على آيات الحج.

اما العمرة فواجباته خمس:

الاول: الاحرام، وله واجبات وتروك، اما الواجبات فهي: النية والتلبيات الاربع ولبس ثوبي الاحرام للرجال اجماعاً، وللنساء على بعض الاقوال.

واما تروكه: فهي خمسة وعشرون تركا، المذكور تفصيلها في كتب مناسك الحج، يأتي بيانها ان شاء تعالى.

الثاني والثالث- من واجبات العمرة، طواف العمرة وهي سبعة اشواط حول البيت، والصلاة ركعتين لها في مقام ابراهيم(ع).

الرابع- من واجباتها السعي بين الصفا والمروة سبع مرات.

الخامس- الحلق أو التقصير، بمعنى ان يقص شيئاً من شعره أو من أظافره.

وعند الفراغ من ذلك يحل له جميع ما حرم عليه بسبب الاحرام، الا الصيد ما دام في الحرم، وبما ذكر تتم عمرة التمتع.

ولما فرغ من العمرة وجب عليه الاحرام للحج من مكة قبل ظهر اليوم التاسع، ويجوز من اليوم الثامن.

ثم يفيض الى المزدلفة وهي المشعر الحرام، على بعد ستة اميال من مكة تقريبا، فيقف بها من اول طلوع فجر يوم النحر وهو يوم العيد الى طلوع الشمس.

ثم يذهب الى منى وهي اسم موضع قريب من مكة المشرفة وفيها اعمال ثلاث في يوم النحر.

الاول-رمي جمرة العقبة. الثاني- الذبح أو نحر الهدي. الثالث- الحلق للصرورة، وتقليم الظفر أو اخذ شئ من الشعر ، او الحلق، لغير الصرورة على سبيل

التخيير.

ثم يرجع الى مكة ويطوف طواف الزيارة ويصلي ركعتي الطواف؛ ثم يسعى بين الصفا والمروة حسب ما تقدم؛ ثم يطوف طواف النساء؛ رجلا كان أو امرأة أو طفلا، ويصلي ركعتي الطواف.

ثم يعود الى منى، ويجب المبيت فيها ليلة الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، في صورة عدم النفر في اليوم الثاني من ايام التشريق.

وفي اليوم الحادي عشر والثاني، يجب عليه رمي الجمرات الثلاث كل جمرة في كل يوم بسبع حصيات، وكذا اليوم الثالث عشر اذا كان قد بات ليلتها؛ هذا تمام اعمال الحج والعمرة للمتمتع بها؛ وبعد الفراغ من هذه الاعمال تفرغ ذمته من حجة الاسلام التي اشتغلت ذمته بها.

المسألة-٣: في قوله تعالى:«**فمن الناس من يقول ربنا آتنا...**» الاية. اشار سبحانه وتعالى على انقسام الطالبين في تلك الاماكن المقدسة الى قسمين؛ كما تقدم في تفسير الاية.

وفيه دلالة ايضاً على انه سبحانه وتعالى اراد ان يحث ويحرض الناس على الذكر والدعاء في تلك الاماكن المشرفة، وانه تعالى شأنه يجيب دعوة كل داع، ولو لم يكن مستحقا واهلاً ان ينظر اليه لتمرده عن اوامر المولى وعدم انتهائه عن نواهيه، فمع ذلك يجيبه ويعطيه ما سأله لدنياه، وان كان غير مؤمن وليس له في الاخرة من نصيب.

كما يظهر من الروايات الصادرة من اهل بيت العصمة سلام الله عليهم اجمعين.

كمرسلة الصدوق «قده»(١١) عن ابي جعفر(ع) قال: ما يقف احد على تلك الجبال برّ ولا فاجر الا استجاب الله له، فاما البر فيستجاب له في آخرته ودنياه، واما الفاجر فيستجاب له في دنياه.

وما في الكافي(١٢) باسناده عن سفيان بن عيينه عن ابي عبد الله(ع) قال: سئل رجل أبي بعد منصرفه من الموقف؛ فقال: اترى يخيّب الله هذا الخلق كله؛ فقال ابي: ما وقف بهذا الموقف احد الا غفر الله له مؤمنا كان أو كافرا، الا انهم في مغفرتهم على ثلاث منازل مؤمن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر واعتقه من النار؛ وذلك قوله عزوجل:«**ربّنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار**

اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب» ومنهم من غفر الله له ما تقدم من ذنبه وقيل له: احسن فيما بقي من عمرك، وذلك قوله عزوجل:«فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» الى ان قال:- وكافر وقف هذا الموقف يريد زينة الحيوة الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ان تاب من الشرك فيما بقي من عمره، وان لم يتب وافاه اجره ولم يحرمه اجر هذا الموقف وذلك قوله عزوجل:«من كان يريد الحياة الدينا وزينتها نوفّ اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون* اولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون»- هود:١٥-١٦.

المسألة-٤: في قوله تعالى:«واذكروا الله في أيام معدودات» الظاهر انه لا خلاف ان المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة، والذكر هو التكبير فيها، كما تقدم.

ويدل عليه مضافاً الى صحيحة ابن حازم المتقدمة في بيان تفسير الاية، صحيحة محمد بن مسلم قال: سألت ابا عبد الله(ع) عن قول الله عزوجل:«واذكروا الله في أيام معدودات» قال: التكبير في أيام التشريق، صلاة الظهر من يوم النحر الى صلاة الفجر من اليوم الثالث، وفي الامصار عشر صلوات، فاذا نفر الناس النفر الاول امسك اهل الامصار، ومن اقام بمنى فصلى بها الظهر والعصر فليكبر.

ونحوها ما عن التهذيب صحيحة حماد بن عيسى، وغيرها، كما في الوسائل.(١٣)

واخرج السيوطي في تفسير الدر المنثور(١٤) عن علي(ع) قال: الايام المعدودات ثلاثة أيام يوم الاضحى ويومان بعده اذبح في ايها شئت وافضلها أولها.

وفيه ايضاً- اخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير:«واذكروا الله في أيام معدودات» قال: هي أيام التشريق يذكر الله فيهن بتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وفي تفسير الطبري(١٥) عن مجاهد وعن ابن عباس: ايام معدودات هي أيام التشريق.

الى غير ذلك من الروايات الصادرة من الطريقين الخاصة والعامة.

وصورة التكبير المتفق عليها بين المسلمين، كما ذكر في التبيان: الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر ولله الحمد. وزاد اصحابنا تبعاً للروايات عن ائمتهم أهل

البيت عليهم السلام، كما تقدم في صحيحة ابن حازم: الله اكبر على ما هدانا الله اكبرعلى ما رزقنا من بهيمة الانعام. وبزيادة«والحمد لله على ما أولانا» في صحيحة بن عمار(١٦) وهو مستحب عندنا على المشهور لصحيحة علي بن جعفر(ع) عن أخيه موسى الكاظم(ع) قال سألته عن التكبير أيام التشريق أواجب هو أم لا قال(ع): يستحب فان نسي فليس عليه شئ.(١٧)

فالامر في الاية الشريفة تحمل على الندب عند المشهور.

نعم ينسب الى ظاهر ابن جنيد والمرتضى القول بوجوبه، ويدل عليه ما رواه عمار الساباطي في الموثق عن ابي عبد الله(ع)؛ قال: سألته عن التكبير فقال: واجب في دبر كل صلاة فريضة أو نافلة أيام التشريق.(١٨)

وظاهرها متروك العمل به عند الاصحاب لتضمنها وجوبه بعد كل نافلة ولا قائل به منهم، بل يظهر خلافه مما رواه الشيخ«قده» في الصحيح عن داود بن فرقد قال: قال ابو عبد الله(ع) التكبير في كل فريضة وليس في النافلة تكبير أيام التشريق.(١٩)

ومضافاً الى ذلك معارضته لصحيحة علي بن جعفر عن اخيه(ع) المتقدمة، ومن ثم ذهب الاكثر الى الاستحباب وحملوا الامر في الاية والرواية على ذلك. هذا والله العالم.

ثم لا يخفى ان اول وقته عند الاصحاب بعد صلاة الظهر من يوم النحر الى صلاة الفجر من اليوم الثالث هذا اذا كان بمنى، واما في الامصار عشرة صلوات، ويدل عليه ما رواه الشيخ«قده»(٢٠) عن الحسن عن محمد بن مسلم؛ قال: سألت أبا عبد الله(ع) عن قول الله عزوجل:«واذكروا الله في أيام معدودات» قال: التكبير أيام التشريق صلاة الظهرين يوم النحر الى صلاة الفجر من اليوم الثالث وفي الامصار عشرة صلوات. هذا ما ذهب اليه اصحابنا الامامية في وقت التكبير.

واما الجمهور فقد اختلفوا بينهم في طرفي مدة التكبير الى خمسة اقوال:

الاول- ان يكبر من صلاة الظهر من يوم النحر الى بعد صلاة الفجر من آخر أيام التشريق؛ وبه قال مالك والشافعي في أحد اقواله، فيكون التكبير على هذا القول في

خمس عشرة صلاة، كما هو مذهب الامامية.

الثاني- ان يكبر من صلاة الظهر يوم النحر الى عصر آخر أيام التشريق؛ ونسب هذا القول الى زيد بن ثابت.

الثالث- ان يكبر من صلاة المغرب ليلة النحر الى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وعلى هذا القول تكون التكبيرات بعد ثماني عشرة صلاة؛ وبه قال الشافعي في أحد اقواله.

الرابع- ان يبتدأ بها من صلاة الفجر يوم عرفة وينقطع بعد صلاة العصر في يوم النحر؛ فتكون التكبيرات بعد ثمان صلاة؛ وهو قول ابي حنيفة والشافعي في أحد أقواله.

الخامس- ان يبتدأ بها من صلاة الفجر يوم عرفة وينقطع بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق فتكون التكبيرات بعد ثلاث وعشرين صلاة؛ ونسبوا هذا القول الى أكابر الصحابة؛ كعلي بن ابي طالب(ع) وعمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس، ومن الفقهاء قول الثوري وابي يوسف ومحمد واحمد واسحاق والمزني وابن شريح.

ولا يخفى ان الاقوال والوجوه المذكورة عن الجمهور مأخوذة من تفسير فخر الدين الرازي(٢١) واحكام القرآن لابن العربي.(٢٢)

اقول: ولا يخفى ان ماذهب اليها اصحابنا الامامية، ومالك والشافعي في أحد أقواله من الجمهور، هو الموافق لظاهر الكتاب والسنة، لان الامر الموجود في الاية بهذه التكبيرات انما ورد في الحاج بعد افاضتهم الى منى، بتقريب ان هذه التكبيرات مضافة الى الايام المعدودات، وهي أيام التشريق التي يجب فيها البقاء بمنى، واول صلاة يصليها الحاج بمنى هي صلاة الظهر من يوم النحر، وآخر صلاة يصليها بمنى صلاة الفجر من اليوم الثالث عشر آخر أيام التشريق. فعلى هذا يظهر ان هذا القول هو المستفاد من الكتاب، ويؤيده الروايات الصحيحة الصريحة الصادرة عن اهل العصمة والطهارة، وغيرهم كما تقدم.

واما ما نسب الى ابي حنيفة: من ان يكبر من يوم عرفة، ويقطع العصر من يوم النحر، مخالف لظاهر القرآن لان الله تعالى يقول:«في أيام معدودات» واقلها ثلاثة أيام، وهو يقول: يكبر في يومين، وهذا خروج عن الظاهر، من دون دليل ظاهر، مضافاً الى ما

تقدم من الروايات في تفسير«المعدودات» بأيام التشريق.

المسألة-٥: «في قوله تعالى:«**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه...**»الاية. أي تعجل في سفره وارتحاله بعد اقامته بها يومين، وفيه دلالة واضحة بوجوب المبيت بمنى ليلتين، وهما ليلة الحادي عشر والثاني عشر، لانه يستلزم ثبوت الاثم للتعجيل قبل ذلك، بمفهومه وقيل: ويدل ايضاً على وجوب الكون بمنى قوله تعالى:«واذكروا الله في أيام معدودات» بتقريب ان لازم الامر بالذكر فيها الكون بها.

وفيه تأمل: اولاً- انه قد سبق ان الامر بالذكر ليس امراً وجوبياً عندنا، بل هو على سبيل الندب والاستحباب، كما تقدم الكلام فيه.

وثانياً- على فرض ان يكون الامر بالذكر واجباً كما زعمه البعض، لا يستلزم ان يكون الكون ايضاً واجباً، لانه لا ينافي ان يكون الكون مستحباً ولكن اذا عمل بهذا الاستحباب يجب عليه الذكر، كما في الاعتكاف فالامر به امر ندبي استحبابي ولكن اذا اعتكف يومين يجب عليه في اليوم الثالث.

هذا بالنسبة الى استفادة الوجوب من هذه الاية، واما وجوب المبيت بمنى في أيام التشريق مضافاً الى الاية السابقة والاجماعات المقولة كما سيأتي، النصوص التي ان لم تكن متواترة فهي مقطوعة المضمون منها-ما رواه الشيخ«قده» في الاستبصار(٢٣)- باسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر(ع): عن رجل بات بمكة في ليالي منى حتى اصبح قال: ان كان أتاها نهاراً فبات فيها حتى اصبح فعليه دم يهريقه.

وفيه ايضاً- باسناده: عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله(ع) قال: لا تبت أيام التشريق الا بمنى فإن بتَّ في غيرها فعليك دم... الحديث.

الى غير ذلك من النصوص عن طريق اهل العصمة عليهم السلام، واما عن طريق غيرهم من الجمهور، ما رواه مسلم في صحيحه(٢٤) باسناده عن ابن عمر: ان العباس بن عبد المطلب استأذن رسول الله(ص) ان يبيت بمكة ليالي منى من أجل السقاية فاذن له.

اقول: يظهر من هذا الحديث ان وجوب المبيت بمنى كان من شعائر الحج ومن

المسلّمات عند المسلمين ولأجله استأذن العباس ليبيت بمكة ليالي منى من اجل سقايته.

وفي تفسير القرطبي(٢٥) عن موطأ بن مالك عن نافع عن ابن عمر قال: قال عمر: لا يبيتنّ احد من الحاج ليالي منى من وراء العقبة.

هذا وقد نقل الاجماع على وجوب المبيت من الطريقين. قال صاحب الجواهر«قده»: بلا خلاف اجده فيه بل الاجماع بقسميه عليه.

وفي تفسير القرطبي(٢٦): ولا يجوز البيتوتة بمكة وغيرها عن منى ليالي التشريق، فان ذلك غير جائز عند الجميع الا للرعاء ولمن ولي السقاية من آل عباس، وقال ايضاً: واجمع الفقهاء على ان المبيت للحاج غير الذي رخصّ لهم ليالي منى بمنى من شعائر الحج ونسكه.

هذا يظهر من كتاب الفقه على المذاهب(٢٧): وجوب المبيت بمنى ليالى ايام النحر عند الجمهور الا عند ابي حنيفة فانه مستو عنده.

هذا ما يدل على وجوب المبيت بمنى، ولا بأس ببيان ما يجب على الحاج من المناسک فيه على سبيل الاجمال فعلم ان مناسک منى يوم النحر بعد العود من مكة وأداء مناسكه هناک من طواف الزيارة والسعي وطواف النساء، ثلاثة أمور:

الاول- رمي جمرة العقبة، فانها واجبة على الاشهر والاظهر؛ كما في الحدائق.

وعن العلامة في المنتهى والتذكرة: لا نعلم فيه خلافاً.

وقد نسب الى الشيخ والقاضي، وظاهر المفيد وابن جنيد القول باستحباب الرمي.

وعن ابن ادريس في السرائر: وهل رمي الجمار واجب أو مسنون، لا خلاف بين اصحابنا في كونه واجباً، ولا اظن احداً من المسلمين يخالفه فيه، وقد يشتبه على بعض اصحابنا ويعتقد انه مسنون غير واجب، لما يجده من كلام بعض المصنفين، وعبارة موهمة اوردها في كتبه، ويقلد المسطور بغير فكر ولا نظر، وهذا غاية الخطأ وضد الصواب، فانّ شيخنا«ره» قال في الجمل: والرمي مسنون؛ فظن من يقف على هذه العبارة انّه مندوب، وانما اراد الشيخ بقوله مسنون، ان فرضه عرف من جهة السنة لان القرآن لا يدل على ذلک.

هذا والاخبار الدالة على وجوبه كثيرة

صريحة.

كقول الصادق(ع) في صحيحة معاوية بن عمار أو حسنته: ثم أئت الجمرة القصوى التي عند القصبة فارمها من قبل وجهها... الحديث.(٢٨)

وعن معاوية بن عمار- ايضاً قال: سألت ابا عبد الله(ع) ماتقول في أمرأة جهلت ان ترمي الجمار حتى نفرت الى مكة؛ قال: فلترجع ولترم الجمار كما كانت ترمي والرجل كذلك.(٢٩)

وعن عبد الله بن جبلة عن أبي عبد الله(ع)؛ قال: انه من ترك رمي الجمار متعمداً لم تحلّ له النساء وعليه الحج من قابل.(٣٠)

الى غير ذلك من الاخبار الدالة على وجوبه.

وأما ما يجب فيه، أمور وهي:

النية والعدد وهو سبع حصيات. وعليه اتفاق الخاصة والعامة. وايصالها بما يسمى رميا، واصابة الجمرة بها بفعله؛ وهو مما لا خلاف فيه بين كافة العلماء.

وأن يرميها متفرقة متلاحقة، فلو رمى بها دفعة لم يجزه، لان المروي من فعل النبى(ص) والأئمة(ع) انما هو الاول وهي عبادة مبنية على التوقيف فلا يجزي ما عدا ذلك؛ وبذلك صرح جملة من الاصحاب«رض» كما في الحدائق.

الثاني- من مناسک منى يوم النحر الذبح، ويجب ان يقع بعد الرمي مرتباً، وهو الهدي على المتمتع خاصة في الفرض والنفل، وفيه واجبات قد تقدم الكلام فيه في المسألة الخامسة من الآية-١٩٦- فراجع.

الثالث- من مناسک منى يوم النحر بعد الذبح، الحلق او التقصير، والحلق افضل، والقول بوجوب احدهما هو المشهور بين الاصحاب«رض»، كما في الحدائق.

وفي الجواهر: المعروف بين الاصحاب وجوب النسک المزبور، بل عن المنتهى: انه مذهب علمائنا اجمع.

ويدل على وجوبه اخبار كثيرة. كصحيحة الحلبي؛ قال: سألت ابا عبد الله(ع) عن رجل نسي ان يقصر من شعره أو يحلقه حتى ارتحل من منى؛ قال: يرجع الى منى حتى يلقي شعره بها حلقاً كان او تقصيراً.(٣١)

وعن ابي بصير قال: سألته عن رجل

جهل ان يقصر من رأسه أو يحلق حتى ارتحل من منى؛ قال: فليرجع الى منى حتى يحلق بها شعره أو يقصر، وعلى الصرورة ان يحلق.(٣٢)

وعن جماعة: يجب الحلق على الصرورة والملبد، وهو من اخذ عسلا وصمغاً وجعله في رأسه لئلا يقمل.

ونسب هذا القول الى جماعة من اكابر العلماء، كالمفيد والشيخ وابن حمزة وابن جنيد وابن ابي عقيل وغيرهم، وكذا يظهر من صاحب الحدائق«قده»، واليه مال سيدنا الجد«قده» في حاشيته على التبصرة. ويدل عليه روايات منها- صحيحة معاوية بن عمار عن ابي عبد الله(ع)؛ قال: ينبغي للصرورة ان يحلق، وان كان قد حج فان شاء قصر وان شاء حلق، قال: واذا لبد شعره أو عقصه فان عليه الحلق وليس له التقصير.(٣٣)

وصحيحة ابي سعيد عن ابي عبد الله(ع)؛ قال: يجب الحلق على ثلاثة نفر، رجل لبد، ورجل حج بدواً ولم يحج قبلها، ورجل عقص(٣٤) رأسه.(٣٥)

الى غير ذلك من الاخبار الصريحة بذلك.

هذا بالنسبة الى الرجال، واما النساء فالواجب في حقهن هو التقصير خاصة بما يحصل المسمى اتفاقاً؛ كما في الحدائق.

وعن العلامة«قده» في المختلف: حكاية الاجماع على تحريم الحلق عليهنّ.

ويدل عليه صحيحة سعيد الاعرج في حديث انه سأل ابا عبد الله(ع) عن النساء؛ فقال: ان لم يكن عليهن ذبح فليأخذن من شعورهنّ ويقصرن من اضفارهنّ.(٣٦)

وعن الحلبي عن ابي عبد الله(ع) قال: ليس على النساء حلق ويجزيهنّ التقصير.(٣٧)

وعن الشيخ«قده» في التبيان والطبرسي«قده» في مجمع البيان القول: بعدم وجوب الحلق والتقصير وفي الحدائق: نقل في المختلف عن الشيخ في التبيان انه قال: الحلق والتقصير مندوب غير واجب، وكذا ايام منى ورمي الجمار. «ثم قال»: المشهور ان ذلک كله واجب؛ لنا انه(ع) فعل ذلک والاخبار ناطقة بالامر بايجاب هذه الاشياء وايجاب الكفارة على تاركها.

وفي الجواهر بعد نقل هذا القول عن الشيخ والطبرسي قال: فلا ريب في ضعفه للتأسي وما تسمعه من النصوص الموجبة

للحلق على الملبد أو الصرورة، المجيزة لغيرهما بينهما، والامر بهما اذا نسي حتى نفر او اتى مكة، وبالكفارة اذا طاف قبلهما، والمعلقة الا حلال عليهما، ولا خلاف محقق اجده في وجوب فعل احدهما بمنى قبل المضي للطواف.

اقول: وقد احتمل البعض انه يمكن حمل كلام الشيخ والطبرسي هنا على كلام الشيخ في الرمي حيث حملوا كلامه هناك بان يكون المراد منه ان وجوب الرمي ثبت بالسنة لا بالكتاب، كما تقدم من ابن ادريس على حمل كلام الشيخ على ذلك في الرمي، وانت خبير ان هذا الحمل هنا ضعيف، بل لا يمكن حمل كلامهما على ذلك، لان في الرمي كان عبارة الشيخ: مسنوناً؛ فيمكن حمله على ذلك، ولكن هنا كلامهما صريح بعدم الوجوب وانه مندوب، فحينئذ كيف يمكن حمله على ذلك. هذا والله العالم.

وقد ظهر مما تقدم مناسك يوم النحر بمنى اجمالاً. فلنرجع الى الاحكام المستفادة من الاية الشريفة. فنذكرها في طي فروع.

الفرع الاول- ان وجوب الكون بمنى في الثلاثة، أو التخيير بينها وبين اليومين الاولين خاصة، هو المستفاد من قوله تعالى:«فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى» وهذا في الجملة لا خلاف فيه بين المسلمين.

وفي الجواهر: فهو في الجملة لا خلاف معتداً به اجده فيه، بل الاجماع بقسميه عليه.

نعم المشهور عند اصحابنا«رض»: انما يجوز النفر الاول وهو اليوم الثاني عشر من ذي الحجة، لمن اجتنب النساء والصيد؛ أو سائر ما يحرم عليه فيه، كما عن ابن سعيد؛ أو خصوص ما يجب الكفارة فيه؛ كما عن ابن ادريس وابي المجد.

ويدل على ما ذهب اليه المشهور رواية حماد بى عثمان عن ابي عبد الله(ع) قال: في قول الله عزوجل «ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى» الصيد يعني في احرامه فأن اصابه لم يكن له ان ينفر في النفر الاول... الحديث.(٣٨)

ورواية محمد بن مستنير عن ابي عبد الله(ع) قال: من أتى النساء في احرامه لم يكن له ان ينفر في النفر الاول.(٣٩)

وفي الكافي ضمن رواية طويلة عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله(ع): الصيد.(٤٠)

واما ما يدل على ما ذهب اليه ابن سعيد، ما رواه في الفقيه(٤١) باسناده عن سلام بن المستنير عن ابي جعفر(ع) انه قال: لمن اتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله عليه في احرامه.

هذا مجمل الكلام في ما ذهب اليه اصحابنا الامامية«رض» في النفر الاول.

واما الجمهور فلم يقيدوا جواز النفر الاول بشئ من ذلك، بل زعموا انه جائز ذلك مطلقاً. كما يظهر من الجصاص في كتابه احكام القرآن(٤٢) حيث قال: ولم يختلف اهل العلم ان أيام منى ثلاثة يوم النحر وبعده، وان للحاج ان يتعجل في اليوم الثاني منها اذا رمى الجمار وينفر، وان له أن يتأخر الى اليوم الثالث حتى يرمي الجمار فيه. انتهى.

اقول: وغير خفي ان العمل بما ذهب اليه الاصحاب«رض» هو الاقرب الى الواقع، لما دلت عليه الاخبار المستفيضه عن اهل العصمة عليهم السلام، كما تقدم شطر منها، وعن طريق غيرهم من الجمهور منها- ما اخرجه السيوطي في تفسيره الدر المنثور(٤٣)، عن ابن جرير وابن منذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس«فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه» قال: فلا ذنب له:«ومن تأخر فلا إثم عليه» قال: فلا حرج عليه لمن اتقى يقول: اتقي معاصي الله.

وفيه ايضاً- اخرجه عن سفيان بن عيينة وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله:«لمن اتقى» قال: لمن اتقى الصيد وهو محرم.

وفي تفسير الطبري(٤٤)-باسناده- عن ابن عباس:«فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه»: فلا حرج عليه، يقول: اتقي معاصي الله عزوجل.

ولما ان قول اصحابنا موافق للاحتياط والاخذ به اولى.

الثاني- الظاهر ان النفر الاول لا يجوز الا بعد الزوال، الا لضرورة، وبه صرح غير واحد من اصحابنا«رض»، كما صرح به في الجواهر وقال: بل نفى الخلاف عنه جماعة؛ بل في المسالك: الاجماع عليه.

نعم يظهر من الفاضل المقداد«قده» في كنز العرفان القول: بجواز النفر الاول بعد الرمي؛ وقال: وقته بعد طلوع الشمس.

وعن محكى التذكرة، انه قرب فيها استحباب التأخير، ووجه الواجب انما هو الرمي والبيتوتة والاقامة في اليوم مستحبة،

فاذا رمى جاز النفر متى شاء.

ويؤيده قول ابي جعفر(ع) في خبر زرارة: لا بأس ان ينفر الرجل في النفر الاول قبل الزوال.(٤٥)

اقول: ولو ان ظاهر الاية جواز النفر في اليوم الثاني مطلقاً، ولكن بعدما سمعت من نقل الاجماع المعتقد بنفي الخلاف، والنصوص الصحيحة المستفيضة الصريحة بعدم الجواز الا بعد الزوال.

كصحيحة معاوية بن عمار عن ابي عبد الله(ع) قال: اذا اردت ان تنفر في يومين فليس لک ان تنفر حتى تزول الشمس، وان تأخرت الى أيام التشريق وهو يوم النفر الاخير فلا شئ عليک أي ساعة نفرت قبل الزوال أو بعده.(٤٦)

وصحيحة الحلبي عن ابي عبد الله(ع): سئل عن الرجل ينفر في النفر الاول قبل ان تزول الشمس؛ فقال لا ولكن يخرج ثقله ان شاء ولا يخرج هو حتى تزول الشمس.(٤٧) الى غير ذلک من الاخبار الصريحة بذلک، مضافاً الى ضعف خبر زرارة المتقدم، وامكان حمله على الضرورة والحاجة.

وعلى هذا يشكل القول بجواز النفر قبل الزوال في النفر الاول، فالمتجه ما عليه المشهور.

ووافق المشهور عندنا اكثر العامة: حيث ان وقت الرمي عندهم بعد الزوال في أيام التشريق وصرح به في كتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة(٤٨) ولا خلاف بينهم ان الرمي واجب في اليوم الثاني، فلا محالة يكون النفر بعد الزوال؛ نعم في قلائد الدرر نسب الى ابي حنيفة القول: بجواز النفر قبل الفجر فاذا طلع الفجر لزم التأخير الى تمام الايام الثلاثة.

اقول: ولم اعثر في كتب القوم التي بايدينا ما يدل على هذا القول؛ بل صرح في كتاب الفقه على المذاهب(٤٩): ان وقت الرمي في اليوم الثاني والثالث عند الحنفية بعد الزوال الى الغروب، فحينئذ جواز النفر عنده كذلک يكون بعد الزوال. هذا والله العالم.

الثالث- لا خلاف ظاهر عندنا، في انه يجب الرمي في كل يوم من أيام التشريق بمنى، أي الحادي عشر والثاني عشر.

وفي الجواهر: بلا خلاف محقق اجده فيه، كما اعترف به بعضهم.

وعن محكى السراير: لا خلاف بين الاصحاب في كونه واجباً، ولا اظن احداً من المسلمين يخالف فيه، وان الاخبار به

متواترة.

وكذا يجب الرمي في اليوم الثالث عشر ان اقام ليلته فيها، كما صرح به غير واحد من اصحابنا«رض»، وعن كشف اللثام: لعله لا خلاف فيه.

والترتيب واجب في رمي الجمار، بلا خلاف؛ كما في الخلاف.

وان يرمي التي هي الى منى اقرب؛ ويختم التي هي الى مكة اقرب، ويقف عند الاولى والثانية ويكبر مع كل حصاة يرميها، ولا يقف عند الثالثة؛ وفي الخلاف، كل ذلك لا خلاف فيه.

واما وقته، فالمشهور بين الاصحاب: ان الرمي بمنى في أيام التشريق ما بين طلوع الشمس الى الغروب، وان كان كلما قرب من الزوال افضل؛ والى هذا ذهب الشيخ في النهاية والمبسوط والمفيد والمرتضى علم الهدى وابو الصلاح وابن حمزة وابن جنيد وابن ابي عقيل وغيرهم؛ كما في الحدائق.

وقال الشيخ في الخلاف: لا يجوز الرمي أيام التشريق الا بعد الزوال، وقد ورد رخصة قبل الزوال في الايام كلها؛ وقال: دليلنا اجماع الفرقة، وطريقة الاحتياط، فان فعل ما قلت لا خلاف انه يجزي واذا خالفه ففيه الخلاف.

ويدل عليه صحيحة معاوية بن عمار عن ابي عبد الله(ع) انه قال: ارم في كل يوم عند زوال الشمس.(٥٠)

واجيب عنه: بالمنع من الاجماع في موضع النزاع، بل عن العلامة«قده» في المختلف: ان الاجماع قد دل على خلاف قوله.

واجيب عن الاحتياط: بانه ليس بدليل شرعي، مع انه معارض باصالة البراءة.

واما صحيحة معاوية بن عمار، فمحمولة على الاستحباب جمعاً بينها وبين الروايات الصريحة بجوازها من طلوع الشمس.

وفي الحدائق: هذه الرواية هي مستند الاصحاب في الافضلية لما قرب من الزوال.

واما الاخبار الدالة على جوازه من طلوع الشمس الى غروبها مستفيضة صحيحة.

كصحيحة منصور بن حازم وابي بصير جميعاً عن ابي عبد الله(ع) قال: رمي الجمار من طلوع الشمس الى غروبها.(٥١)

وصحيحة صفوان بن مهران قال:

سمعت ابا عبد الله(ع) يقول: رمي الجمار ما بين طلوع الشمس الى غروبها.(٥٢) الى غير ذلك من الاخبار الدالة على ذلك.

هذا بالنسبة الى الرمي في النفر الاول، واما في النفر الثاني وهو اليوم الثالث عشر، فيجوز في أي وقت شاء قبل الزوال أو بعده، بلا خلاف فيه، كما يظهر من الجواهر، وعن محكى التذكرة والغنية.

ويدل عليه الصحاح المتقدمة، وغير ذلك من الاخبار.

واما الجمهور: فعندهم وقت الرمي في أيام التشريق مطلقاً بعد الزوال الى الغروب؛ كما صرح به القرطبي في تفسيره(٥٣). نعم وقع الخلاف بينهم في وقت رمي جمرة العقبة، فعن مالك وابي حنيفة وأحمد واسحاق: جائز رميها بعد الفجرقبل طلوع الشمس، وعن الشافعي: القول بجوازه قبل الفجر اذا كان الرمي بعد النصف من الليل، وعن مجاهد والنخعي والثوري: لا يرمي حتى تطلع الشمس.

هذه الاقوال ذكرها القرطبي في تفسيره ايضاً.(٥٤)

اقول: وقد عرفت ان وقت الرمي مطلقاً عند اصحابنا، من طلوع الشمس الى غروبها، فلو رمى في ليلة النحر، أو قبل طلوع الشمس من دون عذر لم يجزه؛ وبهذا صرح غير واحد من اصحابنا.

ويؤيده ما روي: ان رسول الله(ص) رمى الجمرة بعد طلوع الشمس في الضحى أو بعد الزوال(٥٥)، وقال: خذوا عني مناسككم.(٥٦)

فمن رمى قبل طلوع الشمس فقد خالف لما سنه(ص) لامته.

الرابع- الظاهر لا خلاف انه اذا لم ينفر في النفر الاول حتى غروب الشمس يجب عليه المبيت ليلة الثالث عشر، لان التعجيل محله النهار فاذا مضى ولم يتعجل فات وقته، ويجب عليه المبيت.

ويدل عليه صحيحة معاوية عن ابي عبد الله(ع) قال: اذا نفرت في النفر الاول، فان شئت أن تقيم بمكة وتبيت بها فلا بأس بذلك؛ قال وقال: اذا جاء الليل بعد النفر الاول فبت بمنى وليس لك ان تخرج منها حتى تصبح.(٥٧)

فاذا اصبح يوم الثالث عشر بمنى فلا يجوز له النفر الا بعد طلوع الشمس ورمي الجمار، فحينئذ يجوز له النفر في أي وقت شاء كما تقدم.

وبعدما عرفت ان المبيت واجب في الليالي الثلاث بمنى اعلم ان الكون بها في الايام مستحب لا واجب ما خلا زمان الرمي. ويدل عليه صحيحة ليث المرادي قال: سألت أبا عبد الله(ع) عن الرجل يأتي مكة أيام منى بعد فراغه من زيارة البيت يطوف بالبيت تطوعاً؛ فقال: بمنى افضل واحب اليّ.(٥٨)

ونحوه غيره.

المسألة-٦: المشهور عند الاصحاب: ان المراد بالمعدودات في قوله تعالى:«واذكروا الله في أيام معدودات» هي أيام التشريق بمنى؛ كما ان المراد بالمعلومات في قوله تعالى في سورة الحج:«**وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام**».

أيام العشر من ذي الحجة آخرها يوم النحر.

وفي مجمع البيان: انه المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

وعن روض الجنان: انه مذهبنا.

ويدل عليه صحيحة حماد عن الصادق(ع) قال: أبي قال علي(ع):«واذكروا الله في أيام معدودات» قال: قال عشر ذي الحجة و:«وأيام معدودات» قال: أيام التشريق.(٥٩)

وما يدل على تفسير المعدودات خاصة على أيام التشريق؛ حسنة محمد بن مسلم قال: سألت ابا عبد الله(ع) عن قول الله عزوجل:«واذكروا الله في أيام معدودات» قال: التكبير في أيام التشريق من صلاة الظهر من يوم النحر الى صلاة الفجر من يوم الثالث... الحديث، ورواية منصور بن حازم.(٦٠)

وربما يؤيده اشعار اللفظ بالعلة؛ وبيانه انه سبحانه وتعالى ذكر الايام المعدودات، والايام لفظ جمع فيكون اقلها ثلاثة؛ ثم قال بعده:«فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» وهذا بمقتضى ان يكون المراد من قوله:«فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه» من هذه الايام المعدودات؛ واجمعت الامة على ان هذا الحكم انما ثبت في ايام منى وهي أيام التشريق، فيظهر ان الايام المعدودات هي أيام التشريق. هذا والله العالم.

وبه قال ابو حنيفة والشافعي من

الجمهور؛ كما يظهر من تفسير القرطبي(٦١) وتفسير الرازي فخر الدين.(٦٢)

وقيل: بعكس ما تقدم؛ وان المراد من المعلومات أيام التشريق والمعدودات العشر؛ وبهذا المضمون ارسل في التبيان عن ابي جعفر(ع).

وفي الجواهر: وهو المحكي عن الشيخ في النهاية؛ والزجاج والفراء؛ لان الذكر يدل على التسمية على ما ينحر ويذبح من البهائم؛ بل هو المحكي عن التذكرة ايضاً؛ قال: قال الصادق(ع) في الصحيح قال ابي: قال علي(ع):«واذكروا الله في أيام معدودات» عشر ذي الحجة؛ وأيام معلومات أيام التشريق.

وبهذا القول ذهب بعض العامة؛ كالثعلبي وابراهيم؛ كما في تفسير القرطبي.(٦٣)

وقيل: باتحادهما، عن ابن جبير والجعفي؛ كما عن الخلاف والدروس.

ويؤيده رواية زيد الشحام عن أبي عبد الله(ع) قال: المعلومات والمعدودات واحدة وهي أيام التشريق.(٦٤)

وبهذا القول ذهب ابو يوسف وما حكاه الكرخي عن محمد بن الحسن؛ من الجمهور؛ كما في تفسير القرطبي(٦٥) ويظهر الاقوال الثلاثة المنقولة عن الجمهور من كتاب أحكام القرآن للجصاص:١/٣٧٣.

اقول: لا يخفى ان الامر سهل على كل حال، لانه لا يتوقف عليه حكم شرعي؛ كما صرح به في الجواهر؛ ثم قال: وان كان الاظهر القول الاول، والله العالم.

فائدة: ذكرها في قلائد الدرر وقال: قال في الدروس اسماء أيام منى على المراء؛ فالعاشر النحر، والحادي عشر القرد؟، والثاني عشر النفر، الثالث عشر الصدر، وليلته تسمى ليلة التحصيب، وفي تفسير القرطبي هي ليلة الرابع عشر. انتهى.

وفي الحدائق: من المستحبات التحصيب وهو انما يكون في النفر الثاني دون الاول، كما صرح به الاصحاب والاخبار، والمراد به النزول بالمحصب وهو الشعب الذي يخرجه الى الابطح ساعة من الليل، والمحصب موضع رمي الجمار بمنى، ونقل عن الشيخ في المصباح وغيره: ان التحصيب النزول في مسجد الحصبة، وقال الصدوق في الفقيه: فاذا بلغت مسجد النبي(ص) وهو مسجد الحصباء دخلته واستلقيت فيه على قفاك بقدر ما تستريح،

ومن نفر في النفر الاول فليس له ان يحصب؛ وربما اشعر هذا الكلام بوجود المسجد المذكور في زمانه«ره» واما الان فلا أثر له.

الهوامش

(١) الكافي باب التكبير في أيام التشريق٤:٥١٦.

(٢) تفسير البرهان١:٢٠٢.

(٣) ١:٢٣٢.

(٤) ١:٢٩٦.

(٥) وفي تفسير البرهان١:٢٠٣. عن عبد الاعلى عن ابي عبد الله(ع): عن قول الله:«ربنا آتنا... الآية» قال رضوان الله والجنة فى الاخرة والسعة في المعيشة وحسن الخلق في الدنيا.

(٦) ٢:٢٩٨.

(٧) مجمع البيان٢:٢٩٨.

(٨) ١:٢٠٥.

(٩) المرجع نفسه.

(١٠) في المسألة الثالثة-من آية-١٩٦.

(١١) من لا يحضره الفقيه، كتاب الحج٢:٧٥-ورواه الكليني في الكافي مسنداً عن ابي الحسن الرضا(ع) عنه(ع)، كتاب الحج٤:٢٦٣.

(١٢) كتاب الحج، باب النفر من منى٤:٥٢١.

(١٣) كتاب الحج، باب كثرة ذكر الله في عشر ذي الحجة وفي أيام التشريق والتكبير بمنى:٤٢٨.

(١٤) ١:٢٣٤.

(١٥) ٢:٣٠٢.

(١٦) الوسائل، كتاب الصلاة، باب استحباب التكبير في الأضحى:٤٨٧.

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) التهذيب، كتاب الحج١:٣٩٢.

(١٩) نفس المصدر، باب استحباب التكبير في العيدين:٤٨٨.

(٢٠) نفس المصدر، كتاب الحج١:٣٩١.

(٢١) ٥:٢١١.

(٢٢) ١:١٤٢.

(٢٣) ٢:٢٩٢و٢٩٣.

(٢٤) ١:٢٧١- باب وجوب المبيت بمنى.

(٢٥) ٣:٨.

(٢٦) المصدر نفسه٣:٧.

(٢٧) قسم العبادات:٥٤٣-٥٤٦.

(٢٨) الكافي٤:٤٧٨.

(٢٩) الكافى٤:٤٨٤- والاستبصار٢:٢٩٦.

(٣٠) الاستبصار٢:٢٩٧.

(٣١) التهذيب، كتاب الحج، باب الحلق١:٣٨٢.

(٣٢) الكافي٤:٥٠٢.

(٣٣) نفس المصدر.

(٣٤) عقص الشعر جمعه وجعله في وسط الرأس وشده، ومنه الحديث: رجل صلى معقوص

الشعر؛ قال: يعيده؛ مجمع البحرين.

(٣٥) الوسائل-كتاب الحج- في أبواب الحلق والتقصير:٤٢٣.

(٣٦) نفس المصدر المذكور.

(٣٧) نفس المصدر.

(٣٨) التهذيب-كتاب الحج- باب النفر من منى:٢٩٢. وينقله الكافي٤:٥٢٢.

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) نفس المصدر المتقدم ضمن رواية طويلة عن سفيان بن عيينة عن ابي عبد الله(ع):٥٢١.

(٤١) ٢:١٥٠.

(٤٢) ١:٢١٦.

(٤٣) ١:٢٣٦.

(٤٤) ٢:٢٠٩.

(٤٥) الوسائل، كتاب الحج، باب وجوب جعل النفر بعد الزوال٢:٤٢٩.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) ١:١٤١ (الهامش).

(٤٩) قسم العبادات، في واجبات الحج١:٥٤٧.

(٥٠) الكافي٤:٤٨٠.

(٥١) الكافي، كتاب الحج٤:٤٨١. ورواه في التهذيب في الموثق عن منصور بن حازم-كتاب الحج- باب وقت رمي الجمار١:٣٨٩.

(٥٢) نفس المصدر اعني التهذيب.

(٥٣) ٣:٤.

(٥٤) ٣:٥.

(٥٥) صحيح البخاري، باب رمي الجمار٢:٢٠٧. وصحيح مسلم-كتاب الحج- باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً١:٣٦٧-٣٦٨.

(٥٦) نفس المصدر.

(٥٧) الكافي٤:٥٢١.

(٥٨) نفس المصدر، باب اتيان مكة بعد طواف الزيارة للطواف:٥١٥ وينقله عن التهذيب والفقيه ايضاً في الوسائل، كتاب الحج، باب اتيان مكة والطواف بها:٤٢٧.

(٥٩) التهذيب:١-كتاب الحج، باب الزيارات:٤٤٢.

(٦٠) الكافي٤:٥١٤.

(٦١) ٣:٢.

(٦٢) ٥:٢١٠.

(٦٣) ٣:١.

(٦٤) الوسائل-كتاب الحج- باب استحباب كثرة الذكر في عشر ذي الحجة وفي أيام التشريق:٤٢٨.

(٦٥) ٣:٣.

دراسات فنية في عمارة السورة القرآنية
القسم الثاني

الدكتور محمود البستاني

ما هو المقطع الذي انتهينا من الحديث عنه يطرح تفصيلات هذا الجانب بحيث نلحظ خطوطاً مختلفة من الاحكام الهندسي للنص داخل المقطع الواحد مضافاً الى تلاحم المقاطع بعضاً مع الآخر بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

قال تعالى **(ولما راى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زاد هم الاّ ايماناً وتسليماً، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفوراً رحيماً وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الّله قوياً عزيزاً* وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً واورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كلّ شئ قديراً*)**

بهذا المقطع ينتهي القسم الثاني من سورة الأحزاب، حيث تضمّن هذا القسم: التذكير بمعركة الأحزاب أو الخندق التي نصر الله فيها المسلمين من خلال امدادهم بجنود من الملائكة والقوى الكونية الأُخرى.

لقد كانت معركة الخدق محفوفة بالشدائد العسكرية: وكان عنصر (الابتلاء) أو (الاختبار) يقف وراء هذه الشدائد: كما صرّح النصّ القرآني الكريم بذلك.

من هنا فشل المنافقون وضعاف النفوس في اجتياز مرحلة الاختبار بنجاح: حيث عرض لنا النصّ ردود الفعل المشار اليها عبر عرض قصصي ممتع وقفنا عليه مفصلاً...

وها هو النصّ يعرض ردود الفعل والاستجابات التي صدرت عن المؤمنين الملتزمين حيال المعركة المذكورة...

ان الفارق بين المنافقين والملتزمين الاسلاميين، انّ المنافقين صدروا عن استجابات مريضة عبرت عن وساخة أعماقهم بنحو ما عرضه النص مفصلاً: حيث سخروا من النبي(ص) غداة بشر المسلمين بان الله سيفتح له اليمن والشام والمغرب والمشرق، ورددّوا بكل وقاحة **(ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا)** فضلاً عن مواقفهم الأخرى التي طبعها الجبن والبخل خلال مواجهتهم لهذه المعركة...

أما الاسلاميون الملتزمون فعلى العكس من ذلك...

لقد تكفل هذا المقطع الذي نتحدث عنه الآن: بعرض المواقف التي صدرت عنهم حيال معركة الاحزاب: حيث يتضمن - بنحو فني غير مباشر - مقارنة بين المؤمنين وبين المنافقين...

لقد كانت ردود الفعل الاسلامية حيال معركة الأحزاب بهذا النحو: **(ولما راى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زاد هم الاّ ايماناً وتسليماً من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)**.

لقد آمن الملتزمون الاسلاميون بما وعدهم الله ورسوله من النصر بالرغم من مشاهدتهم بادىء الأمر: الحشود العسكرية التي جندها العدو من مختلف طوائف المشركين ومختلف طوائف اليهود، بل انّ شدائد المعركة زادتهم ايماناً بالله وتسليماً له: كما يقول النص... انهم مسرورون بالاستشهاد في سبيل الله **(فمنهم من قضى نحبه)** في معارك سابقة، ومنهم من ينتظر الاستشهاد لاحقاً، **(وما بدلوا تبديلا)** ما غيروا العهد الذي أخذوه على أنفسهم في الجهاد من أجل الله

* * * *

هنا ينبغي أن نقف على البناء الهندسي لهذا المقطع الذي يتحدث عن المؤمنين وصلته بالمقاطع السابقة التي تحدثت عن المنافقين...

ففضلاً عن ان الحديث عن المؤمنين أخذ موقعه الهندسي الجميل من عمارة النص التي بدأت الحديث عن الكافرين، فالمنافقين، فضعاف النفوس. ثم ما واكب ذلك من نقض العهود بالنسبة للمنافقين وبالنسبة لليهود أيضاً حيث كانت بعض طوائفهم قد عاهدت النبي(ص) بالمسالمة ثم نقضت العهد... كل اولئك نجد انعكاساته فنياً على هذا المقطع الذي يتحدث عن المؤمنين الملتزمين، فهؤلاء - أي الشخصيات الاسلامية الملتزمة - صدقت فيما عاهدت الله عليه: مقابل الغدر والكذب ونقض العهد الذي طبع المنافقين واليهود وضعاف النفوس، وكما ان المؤمنين: منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر الاستشهاد في سبيل الله: مقابل اولئك الذي هربوا من سوح المعارك وتشبثوا بمختلف الأعذار والتسويغات المرضية الكاشفة عن وساختهم واضطرابهم وجبنهم وبخلهم الخ...

إذاً: نحن الآن حيال عمارة محكمة هندسياً تتقابل فيها الخطوط التي يستخلص المتلقّي منها: مقارنات مختلفة بين مؤمنين ملتزمين وبين رهوط اجتماعية مختلفة تطبعها سمة الانحراف: مشركين أو كتابيين أو ضعاف نفوس... هذا فضلاً عن الاحكام الهندسي الجميل الذي سنلاحظه: عندما يختم النص القرآني الكريم هذا القسم من السورة به، ألا وهو: المعركة الاسلامية التي تنتهي بهزيمة اليهود الذي تعاونوا مع المشركين: بعد أن رسم الهزيمة العسكرية التي لحقت المشركين: حيث يفصح مثل هذا التقابل عن مستويات النمو الفني للمقاطع القرآنية الكريمة بعضها مع الآخر، بنحو مالحظنا، وبنحو ما نقف عليه لاحقاً ان شاء الله.

الملاحظ، انّ معركة الأحزاب أو الخندق التي تكفل القسم الثاني من سورة الاحزاب برسمها، قد اقترنت بجملة من الموضوعات والمواقف التي صاغها النص وفق عمارة خاصة من الاحكام الهندسي الجميل...

فالسورة الكريمة قد استهلّت بالتحذير من الكافرين والمنافقين (مما

يعني ان للكافرين والمنافقين دوراً سوف يطرحه النص في أقسام لاحقة من السورة الكريمة)، وفعلاً: جاءت معركة الأحزاب أو الخندق لترسم لنا مواقف المشركين والمنافقين في هذا الميدان. وقد سبق ان وقفنا مفصلاً على الدور الذي مارسه الكافرون والمنافقون...

أما الآن، فان النصّ القرآني يرسم لنا نتائج الدور المشار اليه، وهو الهزيمة العسكرية التي لحقت أعداء الاسلام...

ويلاحظ: ان اليهود قد تكتلوا مع المشركين في معركة الأحزاب وهذا يعني ان النص سوف يرسم الهزيمة العسكرية التي تلحقهم،... مضافاً الى ذلك: فان سمة (النفاق) تنسحب على الدور اليهودي أيضاً حيث تذكر لنا النصوص المفسرة بان اليهود جاملوا المشركين في ذهابهم الى انّ عقائد المشركين خير من رسالة الاسلام، وهو أمر يجسّد قمة (النفاق) كما هو واضح.

إذاً: من حيث الهيكل الهندسي للسورة، ينبغي أن نضع في الاعتبار ان استهلال السورة بالتحذير من الكافرين والمنافقين قد انعكس فنياً على فئات المشركين واليهود والمنافقين... والمهمّ، أن النص وهو يختم حديثه عن معركة الخندق: يجيء الى هذه الرهوط الثلاثة: فيحسم مصائرهم: كلاً بحسب موقفه.

أما المنافقون فقد نقلهم الى الجزاء الأخروي: بصفه انهم كانوا ـ في الظاهر ـ مع جيوش المسلمين ولم يشهروا السلاح ضدهم،... وامّا المشركون واليهود: **فقد** تكفل النص برسم هزيمتهم العسكرية، حيث يقول:

(وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً)... حيث جاءتهم جنود من الملائكة والقوى الكونية الاخرى، فهزمتهم شر هزيمة...

وامّا اليهود بخاصة (وهم يستوطنون المدينة) فقد رسم النص هزيمتهم من خلال معركة أُخرى أعقبت معركة الأحزاب مباشرة حيث تحدث عن ذلك قائلاً **(وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وارضاً لم تطئوها، وكان الله على كل شيء قديرا)**.

انّ هذه المعركة مع اليهود ربطها النصّ (من الزاوية الفنية) بموقف اليهود

من المسلمين ومساندتهم المشركين (وأنزل الذين ظاهـروهم من أهـل الكتاب) أي: اليهـود الذين ظاهروا المشركين في معركة الخندق، حيث أنهاهم عسكرياً من خلال هزيمة تتناسب خطورتها مع خطورة الدور السلبي الذي مارسوه: فقد أنزلهم الله من صيـاصيهم (مقـابـل: الشمـوخ الذي صدروا عنه غداة تعاونهم مع المشركين)، وقـذف في قلوبهم الرعب (مقابل الاسناد العسكري الذي قدموه للمشركين) مضافاً الى قتل البعض منهم وأسر البعض الآخر مما يضاعف من حجم الرعب، ثم أورث المسلمين ديار اليهود وأرضهم وأموالهم، فضـلاً عن أراضٍ أخـرى تم الاستيلاء عليهـا (مقـابـل: تركهم الموقف لأرضهم وزحـفـهـم مع المشركـين في الحـشـود العسكرية التي اقاموها حيال المسلمين).

المهم، ان النص القـرآني الكـريم (وهو يتحدث عن نعمة الله ويذكر المسلمين بالنصر الذي أمدّهم به في معركة الأحزاب من خلال الاسنـاد الغيبي (المـلائكـة والقـوى الكـونيـة الأخـرى) انمـا تمّت صيـاغته وفق مبنىً هندسي محكم عرض فيـه مختلف أنماط السلوك حيال المعركة المـذكـورة: سلوك المشركـين، واليهـود، والمنـافقـين، وضـعـاف النفـوس، مقـابل الاسلاميين الملتزمين، كل اولئك وفق عمارة هندسية محكمة تتلاحم فيها أجزاء المقطع بعضاً مع الآخر، فضلاً عن تلاحم المقاطع جميعاً، بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * *

نواجه الآن: القسم الثالث من السورة، وقدكان القسم الأول منها يتحدث عن قضـايـا (الاسرة) في بعض وظائفها ومشكـلاتها، وكان القسم الثاني يتحدث عن معركة الأحزاب، وها هو النص يعود الى طرح قضايا (الاسرة) من جديد: بعد أن قطع سلسلة المـوضـوع بمعـركـة الأحزاب التي أوضحنا سياقها الفنّي من السورة...

الحـديث عن قضايا (الاسرة) وما يواكبها من التعامل داخلها وخارجها: يتم من خلال اسرة النـبي في هذا القسم من السورة، الاّ انّ الهدف الفنّي الكامن وراء هذه الصيـاغـة يتمثـل في ان شخصيـة النبي(ص) تظل هي الرافد الذي تصبّ فيه وتتفرع عنه قضايا التنظيم للأسرة في مختلف وظائفها، حيث يستخلص المتلقي من خصـوصيـة النبي وأسرتـه: عمومية (الأفكـار) المـطروحة في النص، وهذا هو

هدف الفن العظيم الذي تشعّ خصوصيته بما هو (عام) من الأفكار...

لقد بدأ هذا القسم بالنحو التالي:

(يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ واسرحكن سراحاً جميلا ... يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقَرْنَ في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى...) فالملاحظ هنا، المطالبة بالحجاب وبعدم ترقيق الصوت مثلاً: انما ينسحب على العنصر النسوي جميعاً... كما ان إنهاء هذا المقطع بقوله تعالى: **(ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات.. الخ).**

يشير ـ بهذا النحو الفنّي غير المباشر ـ الى (عمومية) الأفكار المطروحة، لأن وصل الحديث عن أزواج النبي حل بمطلق المسلمات والمؤمنات والقانتات والصادقات والصابرات والخاشعات والمصدقات والصائمات والحافظات والذاكرات الله كثيراً: يشير الى هذا النمط من الصياغة الفنّية المشار اليها...

إن الأهمية الفنّية لطرح ما هو عام من خلال الخاص لا يعني انحصارها في عملية الربط بينهما فحسب، بل ان (الخاص) نفسه ينطوي على حقائق عامة ينبغي ان يتعرفها المتلقّي أساساً، وهذا من نحو الخصوصية التي أشارت الى عصمة أهل البيت(ع) مثلاً في قوله تعالى خلال الحديث عن نساء النبي(ص) **(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا...)** حيث ألمحت النصوص المفسرة الى ان الشخوص الذين انتظمتهم سمة التطهير هم: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، مما يعني ان ما هو (خاص) مستهدف ايضاً لتقرير احدى الحقائق العبادية...

ومهما يكن، فنحن نتابع هذا القسم من السورة نواجه: عودة جديدة الى الحديث عن اسرة النبي(ص) وانسحابه على ما هو (عام) من الأفكار أيضاً... فمثلاً بدأ المقطع الجديد من هذا القسم بواقعة النبي مع زوجة زيد وما واكبها من المواقف:

(وإذْ تقول للذي أنعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زوجك ... لكي لا يكون على المؤمنين حرج في

أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً).

فهذه الواقعة (الخاصة) شرحتها ـ بنحو فنّي ينسحب على ما هو (عمومي) من الأفكار ـ الحقيقة الاجتماعية القائلة:

(لكي لا يكون على المؤمنين حرج في **أزواج أدعيائهم)... فالأعراف الجاهلية** لم تسمح بمثل هذا الزواج الذي يقرن (المتبنّي) مع (الابن)، وهو أمر قد استهدف النص القرآني إبطاله،....

وهنا، ينبغي الّا نغفل عن الموقع الهندسي لهذه الواقعة: من هيكل السورة الكريمة التي بدأ القسم الأول منها يتحدث عن (الظِهار) و(التبنّي) وغيرهما، مما يجعل من قضية (التبنّي) محوراً فكرياً تحوم عليه مقاطع السورة في أكثر من موضوع، وهو أمر يفصح عن إحكام العمارة الفنّية للسورة من حيث تلاحم خطوطها وتناميها بهذا النحو الذي لحظناه.

* * * *

وتتابع الأقسام الجديدة من السورة، فنجدها لا تزال حائمة على قضايا (الاسرة) أيضاً: لكن في طرح جديد بطبيعة الحال... كما ان سلسلة الحديث عن (الاسرة) لا تزال بين حين وآخر يعترضها أو يقطعها: طرح لموضوع طارىء يستهدف النص توصياته الى المتلقّي... فكما ان القسم الأول من السورة قطعت النص بموضوع طارىء هو معركة الاحزاب ليربط بينها وبين مقدمة السورة التي طالبت بعدم اطاعة الكافرين والمنافقين،... **فكذلك يقطع النصّ الآن** سلسلة الحديث عن الأسرة: ليحدثنا عن الحقيقة العبادية التالية:

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) ويختم ذلك بقوله **(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)**... وهذه المطالبة بعدم اطاعة الكافر والمنافق، ثم المطالبة بالتوكل على الله والكفاية به وكيلاً) ترتبط بنفس المفهومات التي طرحتها مقدمة السورة ألتي استهلت بـ **(توكل على الله وكفى بالله وكيلا)**.

اذاً: نلاحظ (تنامياً) لفكرة (التوكل والكفاية) وفكرة (عدم اطاعة الكافر والمنافق)، كما نلاحظ (تنامياً) آخر بين هذا المقطع الذي طالب بـ **(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً)** وبين مقطع أسبق تحدث عن مجموعة من السمات ختمها بقوله **(والذاكرين الله كثيراً**

والذاكرات).

اذاً: «ذكر الله كثيراً»، «التوكل على الله»، «الكفاية به وكيلاً»، «عدم اطاعة الكافر والمنافق»... هذه المفهومات جميعاً شكلت محاور فكرية تحوم عليه مقدمة السورة ووسطها، وتحوم عليه المقاطع الذي تضمنها وسط السورة: كما لحظنا، مما يكشف ذلك جميعاً عن مدى جمالية العمارة التي انتظمت السورة الكريمة....

* * * *

وتعود السورة الكريمة الى الحديث عن قضايا (الأسرة) من جديد... ثم من خلال شخصية النبي(ص) أيضاً: بعد أن قطعته بالحديث عن ذكر الله تعالى وربطته بمقدمة السورة الكريمة....

العود الى الحديث عن (الاسرة) يتمثل في ظواهر عامة مثل الطلاق قبل الدخول بالمرأة، وفي ظواهر خاصة تتصل بتعامل النبي مع أزواجه، ثم آداب الدخول الى بيت النبي(ص) وآداب الطعام الخ...، لكن: يظل طرح ما هو (خاص): متصلاً اما بحقائق يستهدف النص توضيحها عبادياً حتى يتعرف المتلقّي خصوصية النبي(ص) وافتراقه عن الآخر، أو بحقائق تشع ايحاءاتها بما هو عام من السلوك مثل (واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن) حيث يستخلص المتلقّي انّ تزكية القلب للجنسين من خلال ظاهرة الحجاب: تشكل هدفاً عبادياً ينسحب على الشخوص جميعاً كما هو واضح.

* * * *

قال تعالى (ان الله وملائكته **يصلّون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما انّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهينا والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الاّ قليلا ملعونين أينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)**.

في هذا المقطع جملة من الموضوعات المتصلة بالتعامل مع النبي(ص) في نطاق الطرح العام الذي انتظم هيكل السورة ونعني به:

قضايا (الاسرة) وما ترتبط بها من أشكال التنظيم لهذه الوحدة الاجتماعية. وقد سبق هذا المقطع طرح للتعامل مع النبي(ص) في نطاق التعامل الأسري أيضاً... وهذا يعني اننا أمام هيكل فنّي خاص ينتظم سورة الأحزاب حيث تظل شخصية الرسول(ص) هي الرافد الذي تصب فيه وتتفرع عنه قضايا التنظيم للاسرة في مختلف وظائفها... لقد طرح النص قضايا تخص شخصية الرسول(ص) وأزواجه، الا أنّ الاهداف الفكرية التي أبرزها هذا الطرح تظل من الوضوح بمكان كبير، منها مثلاً قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الّا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه، ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق واذا سألتموهن متاعاً فاسئلوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن...) ومنها: **(يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين...)**.

انّ أمثلة هذا الطرح بالرغم من انه جاء في صعيد الحديث عن النبي(ص) الا انه (من الزاوية الفنّية) يتضمن أفكاراً يستهدف النص توصيلها الينا ـ نحن المتلقين ـ وفي مقدمتها: التعامل بين الجنسين، حيث طالب النص كلاً من الرجل والمرأة بألا يسمحا لانفسهما بأي سلوك يستثير الرغبات الجنسية غير المشروعة،... طالب الرجل بألا يتحدث مع المرأة الّا من وراء حجاب، وطالبت المرأة بأن تحتجب عن الرجل، أي: هناك موازنة فنّية بين كل من الرجل والمرأة في مطالبتهما بنظافة السلوك، بينا السرّ الكامن وراء الحجاب بقوله **(ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن)**...

ويلاحظ، ان المقطع اتجه بعد ذلك الى الحديث عن المنافقين، رابطاً بين سلوك المنافقين الجنسي وسلوكهم الفكري العام، وذلك بقوله **(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة...)**.

ان هذا الربط بين السلوك الجنسي

وبين المنافقين من جانب وبين المنافقين وبين موقفهم الفكري من رسالة الاسلام،... هذا الربط ينطوي على أهمية كبيرة من حيث البناء الفني لهيكل السورة الكريمة... فالمنافقون شكلوا منذ استهلال السورة موضع تحذير من سلوكهم حيث استهلت السورة بهذه الآية (**يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين**...)، وها هو النص يربط بني مقدمة السورة التي حذرت من المنافقين وبين التحذير الجديد الذي نتحدث عنه في هذا المقطع (لئن لم ينته المنافقون...).

وهذا جانب واحد من الربط الفني بين مقدمة السورة ووسطها... اما الجانب الآخر من الربط الفنّي فيتمثل في العلاقة التي أوجدها المقطع بين السلوك الجنسي بعامة وبين السلوك الجنسي الذي يطبع المنافقين حيث كان تعاملهم الجنسي المنحرف مفضوحاً: حسب ما ذكرته النصوص المفسّرة... وأما الربط الفنّي الثالث فهو: ايجاد العلاقة بين سلوك المنافقين الجنسي وبين سلوكهم الفكري حيال رسالة الاسلام حيث مارسوا مختلف الأراجيف للتأثير على معنوية المسلمين من نحو الايحاء بهزيمة المسلمين في معاركهم، وابراز هيمنة جنود الكفر الخ...

والمهم، ان هذا الربط بين موضوعات المقطع الواحد، ثم الربط: بين المقاطع جميعاً من خلال وصل مقدمة السورة بوسطها وخاتمتها، يظل افصاحاً: عن مدى إحكام الهيكل الهندسي وجماليته

* * * *

قال تعالى (**يسألك الناس عن الساعة. قل انما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ان الله لعن الكافرين واعدّ لهم سعيرا خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيرا يوم تقلّبُ وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله واطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلا ربنا آتِهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا**).

في هذا المقطع: عرض للبيئة الاخروية وما يترتب فيها من الجزاء السلبي على الكافرين.... علماً بان مقاطع سابقة من السورة تكفلت بعرض البيئة الدنيوية وما ترتَّب فيها من الجزاء السلبي على الكافرين وهو: الهزيمة العسكرية التي لحقتهم... أما الآن فيتحدث النص عن الهزيمة الاخروية متمثلة في نار جهنم. وقد

ركّز النص على ردود الفعل التي تصدر عن الكافرين (عبر تقلب وجوههم في النار) حيال سادتهم وكبرائهم الذين أضلوهم السبيل... حيث طالبوا بأن يعذبهم الله ضعفين من العذاب...

من الزاوية الفنية ينبغي أن نضع في الاعتبار، ان ابراز هذا النمط من ردّ الفعل الذي يصدر عن عامة الناس حيال قادة الكفر: له فاعليته الكبيرة في ميدان العلاقة بين التابع والمتبوع، فالتابع (في تجربته الدنيوية) منقاد ومطيع وسعيد بمشاعر التبعية للرؤساء،... واما الرؤساء ان جزاء تبعيته هو (نار جهنم) حينئذ: فان شدائده النفسية تأخذ بالتضخم بحيث تنعكس على مطالبته الله تعالى بأن ينزل العذاب ضعفين على من أضلّه وترأس عليه في الدنيا، أي: ان مضاعفة الشدة النفسية لدية انعكست على مطالبته بمضاعفة العذاب على رؤسائه الذين انقاد اليهم...

اذاً: جاء عرض البيئة الاخروية بهذا النمط من المواقف التي تعكس أحاسيس الشخوص الذين انقادوا لرؤسائهم المنحرفين: جاء هذا العرض مشحوناً بفاعلية ضخمة في ميدان الصياغة الفنية للنص بما تستتبعه مثل هذه الفاعلية من أحداث التأثير المطلوب على المتلقّي: بغية ان يعدل من سلوكه في تجربته العبادية التي خلق أساساً من أجل اجتيازها بنجاح...

وأياً كان، ينبغي ألا نغفل أيضاً بأن هذه الموازنة الفنّية بين مشاعر الكافرين: قد واكبتها موازنة فنّية أخرى هي: ان سورة الأحزاب قد استهلت بالحديث عن المطالبة بعدم اطاعة الكافرين والمنافقين،.. وها هو المقطع الذي نتحدث عنه يبرز لنا نتيجة الاطاعة للكافرين حيث يترتب عليها مثل هذا الموقف الذي عرضه النص القرآني الكريم، وهو أمر يكشف عن مدى إحكام وجمالية الهيكل الهندسي للسورة الكريمة، بالنحو الذي تقدم الحديث عنه.

فرحون (في تجربتهم الدنيوية) بهذا الموقع الاجتماعي، وبمشاعر التعالي والسيطرة على تابعيهم... وحينما تتبدل الأحاسيس وتتلاشى المواقع (في التجربة الأخروية) بحيث تتحول مشاعر التابعين الى تمرد وعدوان على رؤسائهم: في المطالبة باتيانهم ضعفين من العذاب: حينئذ فأن أحاسيس الرؤساء تأخذ منحىً متميزاً من الشدّة النفسية يتناسب مع شدة العذاب

الجسدي الذي طولب بانزاله عليهم... فليس من السهولة بان يواجه المتعالي والمتكبر والمسيطر: أتباعه وهم (في لحظة خسرانه لموقعه الدنيوي) يطالبون بانزال العذاب المضاعف عليه: بعد أن كانوا في قبضة يده: منقادين، مطيعين.... كما ان الشدّة النفسية تأخذ نفس الطابع بالنسبة الى هؤلاء المطيعين لرؤسائهم... فهم في غمرة معايشتهم لأحاسيس التبعية في الدنيا وما واكب هذه الاحاسيس من كراهية مستبطنة لرؤسائهم: بصفة ان المنقاد لمن أعلى موقعاً منه يحيا أحاسيس مزدوجة في آن واحد فهو ـ من جانب ـ سعيد بتبعيته ما دام الواقع الاجتماعي يفرض عليه ذلك، وهو كارهُ لهذه التبعية أيضاً ـ من جانب آخر ـ ما دام متحسساً بدونيته مقابل سيطرة الآخرين... لذلك عندما يواجه التابع.

* * * *

قال تعالى **(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى، فبراه الله ممّا قالوا، وكان عند الله وجيهاً يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الانسان، انه كان ظلوماً جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما)**. بهذا المقطع تختم سورة الأحزاب. وقد تضمن هذا المقطع: ثلاثة موضوعات ينبغي أن نعرض لها في ضوء ما تتضمنه من دلالات، وفي ضوء ارتباطها بهيكل السورة وعمارتها الفنية...

الموضوع الأول: يطالب المؤمنين بان يكون تعاملهم اللفظي صائباً وسديداً، والاّ يكونوا كالذين آذوا موسى(ع)... ان مطالبة المؤمنين بالاّ يكونوا كأقوام موسى(ع) يعني ان اليهود يتميزون عن غيرهم من الطوائف والمجتمعات بكونهم أشد الناس مرضاً وانحرافاً وعدواناً بحيث كان اذاهم لنبيهم موسى(ع) معلماً بارزاً في سلوكهم لدرجة أنهم أصبحوا طرفاً لعملية (التشبيه) الفني...

ونحن اذا أخذنا بنظر الاعتبار ان التركيب الفنّي للصورة انما يرتكن الى مسوغات نفسية أو مادية هي: أحداث علاقة بين طرفين وان الطرف الأول منهما

يتميز بكونه أشد بروزاً: حينئذٍ ندرك دلالة هذا التشبيه، أي: تشبيه المنحرفين المعاصرين لرسالة الاسلام بشخصية اليهودي. ويمكننا أن نلقي مزيداً من الضوء على هذه الحقيقة وهي ضرورة أن يكون الطرف الأول من التشبيه أشد بروزاً وفاعلية من الطرف الآخر: حينما نستحضر في أذهاننا ـ على سبيل المثال ـ ان النص القرآني الكريم شبّه في سورة البقرة: اليهود بأنهم (كالحجارة أو أشد قسوة)، فالحجارة (وفي الطرف الأول من عنصر التشبيه) تتميز بكونها أشد بروزاً من القلب البشري بالنسبة الى مفهوم (القسوة): لذلك جاء المسوّغ الفني لاحداث العلاقة بين الحجارة وقلب اليهودي. صحيح ان التشبيه المذكور لم يكتف في احداث العلاقة بين قلب اليهودي والحجارة بمجرد ابراز الضخامة التي ينطوي عليها بالنسبة لانعدام الاحساس لديه، بل تجاوز ذلك الى القول بأن قلب اليهودي أشدّ قسوة من الحجارة: لأن من الحجر ما ينبع منه الماء، ويشقق منه النهر، بل ومنه: ما يسبّح الله تعالى ويشفق منه... لكن في الحالتين يظل: انعدام الاحساس الانساني عند الحجارة هو المسوّغ لعملية التشبيه المذكور... والمهم، هو أن نحدّد فنياً بأن تحذير المقطع القرآني الذي نتحدث عنه في سورة الأحزاب: من أن يصبح المعاصرون لرسالة الاسلام مثل قوم موسى في ايذائهم اياه، هذا التحذير من خلال التشبيه المشار اليه ينطوي على خطورة فنية لا ينبغي أن نمرّ بها عابراً (بخاصة وأنّ الممارسات العدوانية التي نلحظها في تعامل اسرائيل حالياً) تعزز أهمية مثل هذا التشبيه القرآني الكريم في حرصه على إبراز الشخصية اليهودية بكونها مثالاً وسخاً للانحراف والعدوان بحيث تصبح مسوغاً لان تصاغ طرفاً للتشبيه في صياغة الصور الفنّية...

ويلاحظ: ان التشبيه الفنّي المذكور أبهم نوع الممارسات العدوانية التي صدرت عن اليهود حيال موسى(ع)، بل أكدت مفهوم (الأذى) فحسب دون تحديد أنواعه **(لا تكونوا كالذين آذوا موسى)**: مع إبراز براءة موسى **(فبراه الله مما قالوا)** وهذا يعني ان (الممارسات اللفظية) ـ بصفتها أحد وجوه العدوان ـ قد استهدف المقطع القرآني الكريم ابرازها حيث نستخلص ـ من الزاوية الفنية ـ ان

التهم والاكاذيب والاراجيف: شكلت تجسيداً لمفهوم الأذى: بخاصة ان مخاطبة المؤمنين بقوله تعالى: (**اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا**) يدعم هذا الاستخلاص الفنّي، وهو أمر يكشف ـ فضلاً عما تقدم من الوجوه الفنية السابقة ـ عن دلالة فنية جديدة هي التلاحم أو التواشج العضوي أو الهندسي بين جزئيات المقطع الذي نتحدث عنه. فاذا أضفنا الى ذلك صلة هذا المقطع الذي يتحدث عن طرف التشبيه باليهود...) أضفاها الى حادثة مشاركة اليهود للمشركين في معركة الأحزاب أو الخندق التي تكفَّل أحد مقاطع السورة بعرضها: حينئذ ندرك أهمية عمارة السورة الكريمة: من حيث تلاحم وتواشج مقاطعها بعضاً مع الآخر، فضلاً عن تواشج أجزاء المقطع الواحد بعضاً مع الآخر، بالنحو الذي فصلنا الحديث عنه.

* * * *

قال تعالى: (**انّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها واشفقن منها، وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيما**).

ان حمل الامانة او الخلافة او المسؤولية العبادية ليست بالأمر الذي يمر عابراً دون أن يواكبه الاشفاق: وذلك لخطورة مثل هذه الامانة... فالانسان -اساساً- لم يخلق الا من أجل تحمل هذه المسؤولية وممارستها بنجاح، ممايعنى ان التقصير في ممارسة ذلك يعد إفصاحاً عن ظلم الانسان وجهله بمبادئ هذه المسؤولية... وهذا ما أوضحته الاية القرآنية الكريمة حينما وازنت بين كل من (الانسان) الذي تحمل مسؤولية الخلافة وبين السماوات والارض والجبال حيث أشفقن من تحمل ذلك...

بغضّ النظر عن النصوص المتفاوتة في تفسير دلالة (الارض) و (الامانة) و (الحمل) و (الاشفاق) بالنسبة للسماوات والارض والجبال الا انّ المتلقّي -من الزاوية الفنّية- بمقدوره ان يستخلص ماسبق انْ اوضحناه من دلالة تحمل الانسان لسؤوليّه العبادية التي خلق من اجل ممارستها بنجاح...والمهم، ان النص عندما أبرز سمتين سلبيّتين للانسان وهما (الظلم والجهل) انما وصل بين تينك السمتين وبين حمل الانسان للأمانة بمعنى ان (جهله) -من

جانب- بمبادئ الخلافة في الارض، وتعمده بأن يمارس (الظلم) اشباعاً لرغباته غيرالمشروعة -من جانب آخر- هوالمفسّر لهذه الحقيقة...

ان السماوات والأرض والجبال ـ حسب نصوص القرآن والحديث ـ تمارس وظائف عبادية دون أن يعتريها فتور في ذلك...

وهذا يعني (من الوجهة الفنّية) ان النص القرآني الكريم حينما يوازن بين الانسان وبين المخلوقات الكونية المشار اليها إنما يضعنا أمام صورة فنّية تحمل نفس دلالات الصور التركيبية التي تتضمن مثل (التشبيه) أو (الاستعارة) أو (الرمز) بصورة عامة. فالطرف الأول من الصورة يجسّد شيئاً ذا فاعلية أشدّ من الطرف الآخر (كما سبق أو أوضحنا ذلك في صورة سابقة)... والطرف الأول هنا هو (السماوات والارض والجبال) بصفتها موجودات أو مخلوقات ضخمة يصغر الانسان أمامها،... وحينئذٍ: عندما يوازن النصّ بين هذه الموجودات (الضخمة) وبين الانسان (الضئيل) حجماً، انما يحقق من خلال ذلك: فاعلية الفنّ العظيم عبر التشبيه بالسماوات والأرض والجبال...

ومن الواضح، ان هذا النمط من التركيب الصوري يجسّد نموذجاً غير مباشر بين نماذج العنصر الصوري... فالصور بعامة قد تكون تشبيهاً أو تمثيلاً تتصدره أداة الشبه والمثل أو تكون (رمزاً) قد حذفت الأداة منه،... أما الصورة التي واجهناها فهي تتميز عن الصور المألوفة بكونها ذات تركيب خاص هو: عرض (موازنة) بين ظاهرتين، يستخلص المتلقّي من خلالهما نفس الاستخلاص الذي تحققه الصورة المألوفة...

وأيّاً كان الأمر، فالمهم هو: دلالة ما تنطوي الصورة الفنية عليه ما دامت الصورة أو أي عنصر فني آخر يظل مجرد وسيلة لاحداث التأثير في المتلقّي: بغية التعديل لسلوكه...

وهنا حينما يوازن النص القرآني الكريم بين اشفاق السماوات والارض والجبال من تحمل الأمانة أو المسؤولية العبادية وبين تقبّل الانسان ذلك: انما يضع المتلقّي أمام جسامه وخطورة وعِظَم المسؤولية عليه، وهو أمرٌ ينبغي أن يفيد المتلقّي منه في تعديل سلوكه العبادي الذي خلق أساساً من أجله...

أخيراً، يلاحظ ان النص ختم حديثه عن مفهوم (الأمانة) بالحديث عن تعذيب الله للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وعن غفرانه للمؤمنين وللمؤمنات...

ترى: ما هو الموقع الفنّي لهذا الختام الذي انتهت السورة الكريمة به أيضاً؛ ما دمنا نتحدث عن عمارة السورة القرآنية الكريمة؟

لقد بدأت سورة الأحزاب بالاشارة الى عدم اطاعة الكافرين والمنافقين (**وَلا تُطِعِ الكافرين والمنافقين**)وها هي السورة الكريمة تختم حديثها بنفس الاشارة الى هؤلاء المنحرفين لكن: في صعيد الجزاء الذي ينتظرهم أخروياً...

وهذا من حيث صلة خاتمة السورة بمقدمتها... أما من حيث صلة هذا الختام بوسط السورة، فان المتلقّي بمقدوره أن يصل بين مفهوم (ظلم الانسان وجهله) فيما عرضت له الآية القائلة (**إنّا عرضنا الأمانة على السماوات...**) وبين (تجسيد الظلم والجهل) في شخصية المنافق والمشرك بصفتهما (كفاراً) لم يمارسوا اية طاعة، بعكس: الشخصية المؤمنة التي تمارس الطاعة لكن: ليس بقدر ما تفرضه الأمانة عليها حيث يسمح لها بتعديل سلوكها من خلال (التوبة) التي أباحها الله تعالى لعبده...

ويلاحظ أيضاً انّ النصّ عبر حديثه عن الشخصية المنافقة والمشككة والمؤمنة قد شطرها الى الجنسين (**ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات**).

في تصوّرنا الفنّي المحض: ان سورة الأحزاب ما دامت موضوعاتها قد انصبّت ـ كما لحظنا ـ على ظاهرة (الأسرة) والتعامل بين الجنسين: حيث شخصت انماطاً متنوعة من السلوك الذي يصدر عنه الرجل والمرأة، حينئذٍ فان فرز كل من الرجل والمرأة عبر الجزاء الأخروي لهما يظل متجانساً ـ فنياً ـ مع الفرز الدنيوي الذي لحظناه... وهذا بدوره يشكل واحداً من سمات التلاحم والتواشج الفنّي بين موضوعات السورة ومقاطعها وجزئيات كل منها، مما يفصح بوضوح عن مدى ـ إحكام وجمالية البناء الهندسي للسورة الكريمة، بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

في عيادة المصحف الشريف

الاستاذ أحمد القاضي



يمّمتُ وجهي شطر ينابيع النور، أنهلُ من روائها شفائي ، ممّا ينتابُ نفسي الحيرى من وساوس... ويعصف بقلبي الواهن الكليم من فتن... فلقد نقّبتُ في الآماد و البلاد، عن مصح استشفي به من عللي... و أُداوي بعقاقيره أوجاعي... فما دلّني طولُ التجواب... ولاقادتني أزمّة تفكيري الاّ الى ناقصٍ، يتسولُ على اعتاب الأطباء ضالته المنشودة ، علاجاً من نقصٍ مقيم، و دواءً لدائه العقيم!

والى ضال، يفتش في لجة البحر الهائج عن قاربِ نجاة... تتلاعبُ به الأمواج، كما تتقاذف الصبية الكرة، ذات اليمين، و ذات الشمال... يمنّي النفس المشرفة على شفير القنوط بخشبة الخلاص... أو بيد اللطف الخفيّة تمتد الى ساحل الأمل لتنتشله كما انتشلت من قبل صندوق«الكليم» الناعم بالاستسلام لرحلة النيل ومجاديف القدر! أو ان تستحيل ألسنة النيران المرمي في خضّمها ـ كماكانت على الخليل ـ برداً وسلاماً...أو ان يغيض الطوفانُ الذي يحاصره فتستوي على الجوديّ سفينةُ أفكاره!

والى حيران جاس خلال كتب الأولين و الآخرين ، فأتى عليها طرآً ، فما ألفى سوى هنات الآدمية، ورشحات انائها الصغير... وأنها كلما ارتقت في مدارج العلياء تكبو... و أنّى أفضى بها مطافُ

كدحها فهي الى الارفع ، الاسنى ، الاتم تصبو!

والى متجرد من لباس القيم... عار عن حلّلِ المثل... يتخبط كريشة في مهبّ الريح... فلا هو يستفيءُ بنور شريعة... ولاهو ينضوي تحت لواء رسالة... كالأنعام بل هو أضل!

والى صفر اليدين، يمدّهما بضراعة الراجي ان ينعم ذو السعة عليه!

* * *

أجهدني التطواف... و أمضّ هو اجري العطش... وتقطعت بي الأسباب... وما كان تلامع الأمواه على مبعدة مني الاّ بروقُ السراب... و عود السرابِ... خواء السراب!

وإذ وجدتك... أناخت رحلها روحي.

هاهنا الملاذُ الهنيءُ بأطايب السعادة... والمأوى الحافل بأنوار الطمأنينة و أُغاريد السلام... والطبابة التي على يديها الرحيمتين أُتماثل للشفاء... كل الشفاء! فعلى بوابتها المنيفة طالغتني ملائكة العافية و أسرابُ الرحمة:«وننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين»(١)... وفي أروقتها المزدانة بأكاليل اللطف عثرت على مراهم آلامي وضمادات جروحي:«و اذا مرضتُ فهو يشفين»(٢)...

هاهنا مَرجُ نقاهتي... ومحطُ رحالي... و كعبةُ امنياتي:«قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء»!(٣)

* * *

وما أن تركتُ لقلبي يرتعُ في خمائله... ويرتوي من فرات نميره... و يستزيد من لذاذات مائدته الشهيّة، حتى اكتسى حلة النظارة، وبُردة العافية: «الا بذكرالله تطمئن القلوب»(٤) فكأنّي لم اشعر بالروح و الراحة قبله... ولا تنفسَت عليَّ الحياة بريح صباً مثله... فرحتُ كما المتيّم ألتم صحائفه الوضاءة بعيون هُيامي... وأحتسي أكؤس الشَهد من ريقه العذب بشفاه اشواقي... أطيل اليه مكوثي، فأعودُ محملاً بغنائم الألطاف، وليس في الغانهين من آبَ بالغنيمة الغنّية مثلي... وأصحبُه في حلّي و ترحالي فأنسُ به ايناسَ الطفل بمحالب أمّه... وقد أمّل صحبة حبيب وقريب... أما هو فهيهات هيهات... ينمو على الأيامِ حبي له... ويزداد على كر الجديدين شوقي اليه!

فاذا ماقفلتُ الى أمسي راجعا... عاد معي القهقرى... يذكّرني بـ«ألم يجدك يتيماً فآوى*ووجدكَ ضالاً فهدى*ووجدك عائلاً فأغنى»(٥) فأردُّ و كلّي ايجاب: آواني من يتم... هداني من ضلالة... أغناني في

إعالة... فاتني عليه حامدا... وأذكره مسبحاً!

* * *

ولّما شببتُ عن الطوق... وبلغتُ مبلغ الرجولة... جاءتني دعوته السخية لتنقذني من جهالة الصبا وطيش الشباب... فأشارت بسبابتها الى الطريق، وقالت:«قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا و من اتّبعني وسبحان اللّه و ما أنا من المشركين»(٦) والقت في مسمعي شدوها الرخيم:«ومن أحسن قولاً ممن دعا الى اللّه و عمل صالحا وقال إنّني من المسلمين»(٧) فما رأيتُ - العُمُرَ- أحلى من ترنم دعوته... ولاأصدق من اشارة سبابته!

* * *

ورحتُ اشقُّ - بقدمين ناعمتين - طريقي بين الصخور الناتئة والأشواك الواخزة وبيدي هبتُهُ: عصايَ التي اتوكأ عليها:«واستعينوا بالصبر والصلاة وانّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم و أنّهم اليه راجعون».(٨)

وفي بعض الطريق صادفتُ أُناساً أشاحوا بوجههم عني بجفاء... فكُبرَ عَلَيَّ ذلك ... وأهمّني صدود الناس عن دعوة الحق و الصدق التي أحملها اليهم... فربّت على كتفي بلطفه الفيّاض:«لعلّك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين»(٩) و أردف:«انك لاتهدي من أحببتَ ولكنّ اللّه يهدي من يشاء»(١٠) و زاد في التوكيد:«لو أنفقت مافي الارض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكن اللّه الّف بين قلوبهم إنّه عزيز حكيم».(١١)

وكم جلستُ اليه الساعات الطوال أبثّه حزني وشكواي من سخرية القوم واحجامهم . فيقبل علّي إقبال النسائم الرخيّة الهابّة في سحر ربيعي... فيسكبُ في كل جارحة مني سلسل لطفه المعهود:«وكلاً نقّص عليك من أنباء الرسلِ مانثبّتُ به فؤادك، وجاءك في هده الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين» (١٢) فأغدو كأني بين ظهرانيهم أسمع و أرى كيف يردون الاساءةُ بالاحسان، والقطيعة بالصلة، والهجران بالقرب، والفضاضة بالسماحة، والنكران بالتذكرة، والجحود بالبرهان، والأذى بالصبر... واذا بي اقفُ مصيخاً سمعي لكل نبيّ يخلص الى ربّه نجيّا:«ربّ انّ قومي كذّبون»(١٣) «ربّ انصرني بما كذّبون»(١٤) «انّي مغلوب فانتصر»(١٥) «متى نصرُاللّه؟!»(١٦) فيسكت عني الغضب... وتهدأ ثورتي... ويلينُ خافقي... وتستكينُ

جوارحي... وأعرفُ أنّ الذي الاقي نزر يسير، من بعض ما كابده السابقون... السابقون!

* * *

ويومَ اشتدت على الحاكم الظالم دعوتي... وهالَهُ أنّ أمةً تصدع بها... طفق يتربص بي الدوائر... ويكيدُ لي كيداً... ويقعُد لي كل مرصد... حتى اذا مالقيتُ من عنته الويلَ والثبور... هبّتَ نسائمُ العاطرات في لفح الهجير تلطف وقع البلاء وأليم العذاب: **«أحسبَ النّاسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنّاوهم لايفتنون»**(١٧) **«ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمرات. وبشّر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا للّه وإنّا اليه راجعون* أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة و اولئك هم المهتدون»**(١٨) فشكرت له اسداءَهُ الدواء مع الداء، والرخاء مع الشدّة، واليسر مع العسر: **«فانّ مع العسر يسرا* انّ مع العسرِ يسرا»**(١٩) ونهضتُ أُغالبُ ضعفي... وأكابرُ أحزاني، وهوينفثُ في روعي: «ولولا أن ثبتناكَ لقد كدتَ تركن اليهم شيئاً قليلاً».(٢٠)

* * *

وحين استضرى الطاغية... وبثّ في كل ناحية رجاله... و اودعني قعر مظلمة لايراني ولايسمعني فيها احد الاّ اللّه سبحانه، احضرَ لي«يوسف الصدّيق» بابتسامته الملائكية، ليتلو عليّ كلمته التي شدت من أزري وقوّت من عزيمتي: **«ربِّ السجنُ احبّ اليّ ممّايدعونني اليه»**.(٢١)

وكانَ أن وهنَ العزمُ من ثلّة، إنكفأت لمارأت أحكامَ الطاغوت لقبضته... و ازدياده في بطشه وتنكيله بالفئة المؤمنة... ولّما ظن الظانون منهم أنّه مقيم غيرُ راحل... دائم ليس بزائل... خفّ اليّ يبردُ خاطري... ويسكن الجائش المتلاطم من مشاعري: «لايغرنّك تقلبُ الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد»(٢٢) ومضى يعرض لي آثار الذين طغوا في البلاد... ويريني عواقب جبروتهم... وخواتيم أعمالهم: **«ألم تركيف فعل ربُّك بعاد* ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد* وثمود الذين جابوا الصّخر بالواد * و فرعون ذي الاوتاد* الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد* فصبّ عليهم ربُّك سوطَ عذاب* انّ ربّك لبِالمرصاد»**.(٢٣)

* * *

ورغم الضغوط الخانقة... والعذابات المبرِّحة... والتهم الباطلة... ازداد المعدن صلابة... وجواهر النفوس صفاءً... وسرائر الصدور خلوصاً... فاستاء الطاغية، من اشتداد ساعدالمؤمنين... وقوة شوكتهم فسدَّ بوجهم سبل العمل... وغلّق أبواب العطاء... فهاجرت مع من هاجر، بحثاً عن مأمن في الارض، أنشر منه رسالتي... وبينما أنا خائف أترقّب و افاني بزاد، و راحلة، ووعد، فأما الزاد:«ومن يهاجر في سبيل اللّه يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة»(٢٤) وامّا الراحلة:«ان الذين آمنوا و هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أُولئك يرجون رحمة اللّه واللّه غفور رحيم»(٢٥) وامّا الوعد:«والذين هاجروا في اللّه من بعد ماظُلموا لنبوّئنّهم في الدنيا حسنة ولأجرُ الآخرة أكبرُ لوكانوا يعلمون»(٢٦) فمارأيتُ في هجرتي الا ماوعدني ربي حقّا وصدقا.

* * *

واليوم اذ تجيِّشَ ملّةُ الكفر جيوشها... وتحشّد قوى البغي سراياها... وتقبل تريدُ اطفاءَ نوراللّه، أصرخُ مستغيثاً:«متى نصراللّه»؟ فيهتفُ بي هاتفُه منجداً:«ألا انّ نصراللّه قريب»!

ويوماً اثر يوم... وتلاوة اثر تلاوة... وختماً بعد ختم... وسياحة بعد سياحة أجدُ في «عيادة المصحف الشريف» مزيد العافية من البلوى، و دوائي الذي أدمنُ عليه:«قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور»(٢٧)واذا بالصدر ينشرح بالرضى... والنفسُ باليقين... والبصرُ بالنور... والبصيرة بالحكمة والسداد!

عافيتي هذه ... من عيادة المصحف الشريف هذا.

الهوامش:

---

(١) الاسراء : ٨٢.
(٢) الشعراء : ٨٠.
(٣) فصلت : ٤٤.
(٤) الرعد : ٢٨.
(٥) الضحى : ٦ - ٨.
(٦) يوسف : ١٠٨.
(٧) فصلت : ٣٣.
(٨) البقرة : ٤٥ - ٤٦.
(٩) الشعراء : ٣.
(١٠) القصص : ٥٦.
(١١) الانفال : ٦٣.
(١٢) هود : ١٢٠.
(١٣) الشعراء : ١١٧.

(١٤) المؤمنون : ٢١.

(١٥) القمر : ١٠.

(١٦) البقرة : ٢١٤.

(١٧) العنكبوت : ٢.

(١٨) البقره : ١٥٥ - ١٥٧.

(١٩) الانشراح : ٥ - ٦.

(٢٠) الاسراء : ٧٤.

(٢١) يوسف : ٣٣.

(٢٢) آل عمران : ١٩٦.

(٢٣) الفجر : ٦ - ١٤.

(٢٤) النساء : ١٠٠.

(٢٥) البقرة : ٢١٨.

(٢٦) النحل : ٤١.

(٢٧) يونس : ٥٧.

المدخل إلى شخصية رسول الله (ص) وسيرته في القرآن

مراحل الدعوة الثلاث

الشيخ جعفر سبحاني



نزل الأمين جبرئيل مبشراً النبي الأكرم بالنبوة والرسالة، وألقي على عاتقه مقاليد مهامها لهداية الأمة، التي يصورها قوله سبحانه: «إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلا» -المزمل: ٥.

وقوله سبحانه: «يا أيّها المدّثر قُم فأنذرو ربّك فكبر» المدثر:٣ وأى مسؤولية أثقل من مسؤولية هداية الأمّة الغارقة في ظلمات الجهل، و أوحال عبادة الاصنام و الأوثان، المنغمسة في الدنيا، المعرضة عن الآخرة، فقام الرسول مؤدياً رسالته، مستضيئاً بهدى الوحي، وقد قطعت رسالته مراحل ثلاثاً، حتى تكللت بالنجاح، وبلغت الغاية المنشودة، واليك تبيين هذه المراحل التي اشار اليها القرآن الكريم في مواضع متفرقة.

المرحلة الأولى ـ السرية في الدعوة:

اتخذ الرسول الدعوة السرية خطوة أولى خطاها، في سبيل تحقيق انجاح الدعوة الالهية، ولم يكن الغرض من التركيز على السّرية، في الدعوة الخوف على نفسه وصيانتها من كيد الاعداء، بل هذه هي الخطة الرائجة بين الدعاة المخلصين، فلايجهرون بالدعوة، ولايعلنونها بادي بدء، بل يبدءون بعرض الدعوة سراً على الأفراد الذين يطمئنون اليهم -ولاجل ذلك- بدأ الرسول(ص) بالدعوة السرية إلى الاسلام،

فدخل تحتها عدة من الشباب فتعلّموا الفرائض والسنن سراً وكانوا يذهبون الى شعاب مكة ليقيمون الفرائض فيها.

وهذه الثلّة القليلة التي تشرفت باعتناق الاسلام، هم الذين يعبر عنهم القرآن الكريم بقوله: «**السابقون السابقون أولئک المقربون**» الواقعة: ١١-١٢.

فكان النبي الأكرم يعرض دعوته على من يتفرس فيه علائم قبول الاسلام، ولذلک لما هبط من غار حراء عرضه على زوجته خديجة وابن عمه علي، وقد تمكّن الاسلام بذلک في قلوب عدّة سجلت اسماؤهم في التاريخ(١) مثل زيد بن حارثة، و عثمان بن مظعون، و قدامة بن مظعون... وغيرهم. يقول ابن هشام في تفسير قوله: «**وأمّا بنعمة ربّک فحدّث**» أي بما جاءک من اللّه من نعمته و كرامته، من النبوّة سراً الى من يطمئن اليه من أهله.(٢)

وليس في الذكر الحكيم آية تكشف عن أحداث هذه المرحلة غيرماذكرنا من الآيتين، فمن أراد التفصيل فيجب عليه أن يرجع الى كتب السيرة النبويّة، ولنكتف ببعض ماجاء في المقام.

١- روى ابن هشام عن إبن إسحاق أنه ذكر بعض أهل العلم أنّ رسول اللّه كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه، ومن جميع أعمامه، وسائر قومه فاذا أمسيا رجعا ومكثا كذلک ماشاءاللّه أن يمكثا... ثم أسلم زيد بن حارثة و كان أول ذَكَر أسلم و صلّى بعد علي بن أبي طالب.(٣)

٢- روى الطبري عن جابر قال: بعث النبي يوم الإثنين وصلّى علي يوم الثلاثاء و روي عن زيد بن أرقم قال: أول من أسلم مع رسول اللّه(ص) علي بن ابي طالب ويقول علي: أنا عبداللّه و أخو رسولهِ، أنا الصّديق الاكبر لايقولها بعدي إلاّ كاذب مفتر صلّيتُ مع رسولِ اللّه قبل الناس، بسبع سنين.(٤)

ولعلّ بعض هذه السنين يرجع إلى ماقبل البعثة، حيث ان الرسول كان يتعبد للّه سبحانه في غار حراء في كلّ سنة.

٣- يقول ابن اسحاق: وكان أصحاب رسول اللّه(ص) اذا صلوا ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم، من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحاب رسول اللّه، في شعب من شعاب مكة، اذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم و عابوا علَيهم مايصنعون حتى قاتلوهم. فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ

رجلاً من المشركين بلحى بعير فكان أول دم أهريق في الاسلام.(٥)

اتخاذ النبي دار الأرقم مركزاً لنشر الدعوة:

كان النبي يؤدي رسالته مستخفياً من قريش بمكة، ويعرض الاسلام لمن يطمئن اليه، وقد ألجاته الظروف الى اتخاذ بيت لتبليغ تعاليمه، واقامة المؤمنين فيه فرائضهم، وقد وقع الاختيار على دار الأرقم بمكّة على الصفا(٦) مركزاً لهذه المهمة فدخل(ص) وأصحابه مستخفين فيها، بعد وقوع الصدام بين سعد بن ابي وقاص وبعض المشركين، فكان(ص) وأصحابه يقيمون الصلاة بها، ويعبدون اللّه فيها الى أن امره اللّه تعالى بالاعلان عنها، فامتثل صادعاً بما أمر. وقد اختلفت كلمة أصحاب السيرة، في مدة هذه المرحلة بين ثلاث سنين الى خمس سنين، كمااختلفوا في مدة اقامتهم في دار زيد بن الأرقم بين كونه شهراً أو أزيد، كما اختلفت كلمتهم في عدد المؤمنين بالنبي، في تلك المرحلة، فقد أنهاه ابن هشام في سيرته معتمداً على سيرة ابن اسحاق الى ما يربو على خمسين بين رجل وامرأة، وان كان الاكثرهم الرجال، ولأجل أن يقف القارئ على هؤلاء الأشخاص و أسمائهم نستعرض ذكرهم إجمالاً بالنحو التالي:

١- خديجة بنت خويلد (زوجة النبي) ٢- علي بن ابي طالب ٣- زيد بن حارثة ٤- ابو بكر ٥- عثمان بن عفان ٦- عبدالرحمن بن عوف ٧- الزبير بن العوام ٨- سعدبن أبي وقاص ٩- طلحة بن عبيداللّه ١٠- أبو عبيدة ١١- ابو سلمة ١٢- الارقم ١٣- قدامة بن مظعون ١٤- عبداللّه بن مظعون ١٥- عبيدة بن الحارث ١٦- سعيد بن زيد ١٧- امرأته (فاطمة بنت الخطاب) ١٨- اسماء بنت ابي بكر ١٩- خباب بن الارت ٢٠- عميربن ابي وقاص ٢١- عبداللّه بن مسعود ٢٢- مسعود ابن القاري ٢٣- سليط بن عمرو ٢٤- حاطب بن عمرو ٢٥- عياش ابن ابي ربيعة ٢٦- اسماء بنت سلامة ٢٧- خنيس بن حذافة ٢٨- عامربن ربيعة ٢٩- عبداللّه بن جحش ٣٠- ابواحمد بن جحش ٣١- جعفر بن ابي طالب ٣٢- اسماء بنت عميس ٣٣- حاطب بن الحارث ٣٤- حطاب بن الحارث ٣٥- معمربن الحارث ٣٦- سائب بن عثمان بن مظعون ٣٧- مطلب بن ازهر ٣٨- زوجته (رملة بنت أبي عوف) ٣٩- نعيم بن عبداللّه

٤٠- عامربن فهيرة ٤١- خالد بن سعيد ٤٢- اميّة بن خلف ٤٣- حاطب بن عمرو ٤٤- ابوحذيفة ٤٥- واقد بن عبدالله ٤٦- خالد بن بكير ٤٧- عامربن بكير ٤٨- عاقل بن بكير ٤٩- اياس بن بكير ٥٠- عمار بن ياسر ٥١- صهيب بن سنان.(٧)

هذا ماذكره ابن هشام، وقد ذكر في ثنايا كلامه ممن آمن، في تلك الفترة، عائشة بنت أبي بكر وهو غير صحيح لانها ولدت في السنة الرابعة من البعثة، وقد عقد عليها النبي في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي بنت ست سنين، وبنى بها رسول اللّه وهي بنت تسع بالمدينة، في شوال في السنة الأولى من الهجرة، فكيف تكون من المؤمنات في المرحلة السرية؟(٨)

أضِف الى ذلك أن أباذر من السابقين الى الاسلام، وقد أخرج ابن سعد في الطبقات عن طريق أبي ذر، قال: كنت في الاسلام خامسا، وفي لفظ ابي عمرو وابن الآثير: «أسلم بعد أربعة» وفي لفظ آخر يقال: «أسلم بعد ثلاثة» ويقال: «بعد أربعة» وفي لفظ الحاكم: «كنت رابع الاسلام أسلم قبلي ثلاثة نفر و أنا الرابع» وفى لفظ ابي نعيم: «كنت رابع الاسلام». أسلم قبلي ثلاثة و أنا الرابع وفي لفظ المناوي: «أنا رابع الاسلام» وفي لفظ ابن سعد من طريق ابن ابي وضّاح البصري: كان اسلام أبي ذر رابعاً أو خامساً.(٩)

وقد ذكرالشيخان فى الصحيحين وابن سعد في طبقاته كيفية اسلامه ومن أراد فليرجع إليهما.

المرحلة الثانية: دعوة الأقربين

اجتازت الدعوة المحمدية المرحلة السرية الى مرحلة ثانية، بعد ما آمن به جماعة من قريش و غيرهم، ودخل الناس في الاسلام أحاداً من الرجال والنساء. حتى فشا ذكر الاسلام بمكة، فتحدث به القريب والنائي، فعندئذ أمر سبحانه بدعوة الأقربين، بقوله: «وانذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل إنّي بريء مماتعملون». الشعراء: ٢١٤-٢١٦.

إنّ المبادرة والمسارعة لدعوة العشيرة الأقربين، قبل البدء باعلان الدعوة العامة يمكن أن يكون فيها سر اجتماعي وتوضيحه بمايلي:

أولاً: ان النبي الأكرم كان مطّلعاً على أن قومه سوف يجابهونه بالعنف والشدة، ويتآمرون للقضاء عليه، قبل تمكنه من

تحقيق أمنيته، فصيانة الدعوة من مكائد الأعداء مرهونة بوجود قوّة داخلية تحصّنها من غوائلهم، ولايمكن تصورها إلاّ في قومه و عشيرته من بني هاشم.

وثانياً: ان انقياد قومه و عشيرته لدعوته لدليل واضح على قداسته ونزاهته، وصدق كلامه وانهم مارأوا منه إلاّ الصدق والصلاح، طيلة أربعين سنة، فاجابوا دعوته وصدّقوا كلامه. فان الانسان مهما كان فطناً مهتماً بِسَتر عيوبه و زلاّته لايتمكن من سترها عن بطانته وخاصته، فايمان البطانة وقبولهم دعوته دليل واضح على صفاء سريرته، فلأجل ذلك بدأ بدعوة العشيرة، قبل إعلان الدّعوة العامة، وهذا بطبيعة الحال يكون مؤثّراً في إعداد الأرضية الصّالحة، لقبول المرحلة الآخرى. وبعبارة أخرى إن ضمان نجاح المصلحين في الدعوة العامّة يكمن في نجاحهم في دعوة أسرتهم، فلو افترضنا أن الداعي لم ينجح في دعوة أسرته، يكون حظ نجاحه في الدعوة العامة طفيفاً، لأن رفض الأسرة لدعوة المصلح و عدم ايمانها به سوف يتخذ ذريعة الى تقوّل الآخرين وسخريتهم، بأنه لوكان هذا الصادع محقاً، في كلامه، فأسرته أولى بقبول دعوته.

وقد نقل المفسرون وأهل السير في تفسير قوله سبحانه: «وانذر عشيرتک الاقربين» كيفية دعوة الأسرة، واليک نص ماذكره الطبري في تاريخه عن علي(ع): لما نزلت هذه الآية على رسول اللّه فقال لي: يا علي! إنّ اللّه أمرني أن أنذرعشيرتي الاقربين، فضقت بذلک ذرعاً، و عرفت أنّي متى أبدأ بهذا الامر أرى منهم ما أكره فصممت عليه حتى جاءني جبرئيل فقال: يامحمد إنّک إن لاتفعل ماتؤمر به يعذبک ربّک. فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عِساًّ من لبن، ثم اجمع لي بني(١٠) عبدالمطلب. حتى أكلّمهم وأبلّغهم ماأمرت به، ففعلت ماآمرني به، ثم دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أوينقصونه، فيهم أعمامه أبوطالب، وحمزة، والعباس، وأبولهب، فلمّا اجتمعوا اليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حذية من اللحم، فشقها باسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ثم قال: خذوا باسم اللّه فأكل القوم، حتى مالهم بشيء حاجة وما منهم لياكل ماقدّمت لجميعهم، ثم قال: اسق القوم فجئتهم بذلک العس فشربوا منه، حتى رووا

منه جميعاً، وايم اللّه ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلّم أن يكلّمهم بدره أبولهب الى الكلام فقال لقد سحركم صاحبكم، فتفرّق القوم ولم يكلمهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلّم، فقال الغد: يا على ان هذا الرجل سبقني الى ماقد سمعت من القول فتفرق القوم، قبل أن اكلّمهم، فعدلنا بمثل ماصنعت ثم اجمعهم الى آن قال:

ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته لهم ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا حتى مالهم بشيء حاجة ثم قال اسقهم فجئتهم بذلك العس فشربوا، حتى رووا منه جميعا، ثم تكلم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - فقال يابني عبدالمطلب إني واللّه ماأعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، اني قد جئتكم بخيرالدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على هذا الامر، على أن يكون أخي و وصيي و خليفتي فيكم؟ قال: فاحجم القوم عنها جميعاً، وقلت واني لأحدثهم سناً، وأرمصهم عينا، وأعظمهم بطنا، وأحمشهم ساقا، انا يا نبي اللّه أكون وزيرك عليه؟ فاخذ برقبتي ثم قال: ان هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم فاسمعوا له و أطيعوا قال فقام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.(١١)

هذا هو النص الذي رواه الطبري حول حادثه بدء الدعوة، وقد ذكره غيره فمن أراد الوقوف على مصادرالحديث فليرجع الى كتاب الغدير.(١٢)

ان الحديث يستفاد منه أمور عن تاريخ بدء الدعوة نشير اليها بالنقاط التالية:

١- ان الخلافة تتمشّى[١] مع النبوة جنباً الى جنب، وانهما لايفترقان ابداً، لأن النبي يوم صدع بالرسالة أعلن خلافة علي(ع) وكأن الخلافة تعد اكمالاً لوظائف الرسالة، و إن الخليفة يقوم بتكميل وظائف النبي حيث يبين ماأجمله، ويفصّل ماأوجزه.

٢- ان علياً في ذاک اليوم وان كان صغيراً، لايتجاوز عمره الحلم، لكنه كان في القوة والمقدرة، الى الحد الذي قام بتضييف مجموعة كبيرة تربو على أربعين نفراً، فقد صنع لهم طعاماً ودعاهم الى الضيافة، وهذا العمل كمايكشف عن مرحلة من النضوج البدني، يكشف عن تفتح عقله وشعوره، حيث قام بأمر لايقوم بأعبائه الاّ الرجال الكبار.

٣- ان الطبري في تاريخه نقل القصة

كمامر، ولكنه جني على الحقيقة، في تفسيره، فذكر القصة ولكنه عند ماوصل الى قوله(ص): فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيي وخليفتي حرفه وجاء مكانه بقوله: «فأيّكم يوازرني على هذا الامر على أن يكون أخي وكذا وكذا».(١٣)

فمامعنى هذا التحريف، اهكذا تصان الأمانة التاريخية ويتحفظ في نقل الحديث؟

وان تعجب فعجب عمل ابن كثير، فانه وضع تاريخه على غرار تاريخ الطبري حذو النعل بالنعل ولكنه لما وصل الى هذا المقام من تاريخه، أعرض عن نقل نص الطبري في تاريخه ولعتمد على النص الذي ذكره الطبري في تفسيره وما هذا الاّ لانه رآه دليلاً قاطعاً، على خلافة علي ووصايته، وأعجب منه عمل محمد حسين هيكل في تاريخه فانه ارتكب جناية مفضوحة وأثبت الحديث في الطبعة الاولى من كتابه، واكتفى منه بسئوال النبي بقوله: «فأيّكم يوازرني على هذا الامر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم» وأغفل ذكر جواب النبي لعلي، عند ماقام، ولم يذكر منه شيئا، لكنه في الطبعة الثانية أسقط جميع مايرجع الى أميرالمؤمنين من كلام النبي.(١٤)

٤- ان ابن تيميه لما رأى دلالة الحديث على خلافة الامام علي عليه السلام عكف على المناقشة في سند الحديث وأنه يشتمل في رواية الطبري على ابي مريم الكوفي، وهو مجمع على تركه وقال أحمد: ليس بثقة واتهمه ابن المديني بوضع الحديث.(١٥)

ولكنه ترک توثيق الأخرين لأبي مريم، فقد قال ابن عدي: سمعت ابن عقده يثنى على ابي مريم ويطريه، وتجاوز الحد في مدحه، وأثنى عليه شعبة، وقال الذهبي: كان ذا اعتناء بالعلم وبالرجال.(١٦)

وأظن ان تضعيف الرجل لغاية تشيعه وحبّه للوصي فان التشيع بالمعنى العام احد المضعفات عند القوم، ومع ذلک فقد روى الشيخان في صحيحهما عن الشيعة كثيراً، وقد قام العلامة السيد عبدالحسين شرف الدين بوضع قائمة لأسماء، من روى عنهم الشيخان في صحيحهما من الشيعة.(١٧)

على ان احمد قد روى الحديث بسند آخر وجميع رجاله رجال صحاح بلا كلام، وهم عفان بن مسلم عن ابي عوانه عن عثمان بن المغيرة عن ابي صادق «مسلم الكوفي» عن ربيعة بن ناجذ(١٨) وبهذا السند والمتن أخرجه الطبري، في تاريخه و غيره.(١٩)

٥- وهناك مناقشات أو مشاغبات لابن تيمية، حول الحديث، نبعت من موقفه تجاه فضائل الامام أميرالمؤمنين، فانه يرد كثيراً من فضائل علي(ع) ويضعفه جزافاً، ومماقال في حق الحديث:

«ان مجرد الإجابة للمعاونة على هذا الأمر لايوجب أن يكون المجيب وصيا وخليفة بعده، فان جميع المؤمنين أجابوه الى الاسلام، وأعانوه على هذا الأمر، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيله، كما أنه لو أجابه الأربعون أو جماعة منهم، فهل يمكن أن يكون الكل خليفة له»؟(٢٠)

ان هذا الاشكال يرجع إلى أمرين:

الأول: ان مجرد الإجابة للمعاونة لايلازم أن يكون المجيب وصياً ولكنه غفل عن التدبر في الرواية، فانهُ لم يجعل مطلق الاجابة دليلاً على كون المجيب وصيا حتى يقال: ان جميع المؤمنين أجابوا الى الاسلام، بل جعل الإجابة من العشيرة فقط علّة للوصاية فلايشمل المؤمنين الخارجين عن دائرة إطارهم.

الثاني: لوافترضنا ان الكل أجابوه، فهل يكون الكل خليفة؟

والجواب: ان النبي الاكرم كان مطّلعاً على أنه لايجيبه غير علي، لانهم لم يكونوا مطلعين على مبادىء رسالته، وخصوصيات شريعته، فلايبادرون بالإجابة، بخلاف علي، فانه قد نشأ وتربّى في أحضان النبي، وتغذى بلبانه، وقد صلّى مع النبي، قبل الناس بسنين، فكان سبقه أمراً طبيعياً بالنسبة له.

ان كتب السيرة تذكر أنه(ص) خاطبهم في هذاالاجتماع بقوله: «ان الرائد لايكذب أهله، والله لوكذبت الناس جميعا ماكذبتكم. ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم، والله الذي لااله إلاّ هو، اني لرسول الله اليكم خاصة، والى الناس عامة، والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بماتعملون، ولتجزون بالاحسان احساناً، وبالسوء سوءاً، فانها لجنّة أبداً ولنار ابداً. يابني عبدالمطلب ماأعلم شاباً جاء قومه بأفضل مماجئتكم به اني قد جئتكم بخيرالدنيا والآخرة، فتكلم القوم كلاماً ليّناً غير أبي لهب، فانه قال: «يا بني عبدالمطلب هذه والله لسوأة خذوا على يديه، وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو غيره، قبل أن يأخذ على يده غيركم، فان التمسوه حينئذ ذللتم، وان منعتموه قتلتم»، فقالت أخته صفيه عمة رسول الله امّ الزبير: أي أخي! ايحسن بك

خذلان ابن اخيك؟ فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضيء (الأصل) عبدالمطلب نبي فهو هو «قال أبولهب»: هذا والله الباطل، والأماني، وكلام النساء في الحجال، فاذا قامت بطون قريش و قامت العرب معها بالكلاب فماقوتنا بهم؟ فوالله مانحن عندهم الاّ أكله رأس «فقال أبوطالب: والله لنمنعنه مابقينا».(٢١)

وهل النبي خطب بهذه الخطبة في الدعوة الأولى أو الثانيه؟ فلو صحت فهي بالدعوة الاولى ألصق لماتضافر أن أبالهب لم يكن مدعواً في الدعوة الثانية، ويظهر من سيرة زيني دحلان أنه خطب بها في الدعوة الأولى فلما أصبح رسول الله بعث الى بني عبدالمطلب فحضروا وكان فيهم أبولهب فلما أخبرهم بما أنزل الله عليه، أسمعه أبولهب مايكره وقال: تباً لك. ألهذا جمعتنا؟ وأخذ حجراً ليرمي به قال: مارأيت أحداً جاء بني أبيه وقومه باشرَّ ممّا جئتهم به، فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس.

الدعوة العامة:

كان للدعوة السرية أولاً، و دعوة الاسرة ثانياً دور خاص في استقطاب لفيف من الناس، واستمالة قلوب طائفة منهم الى الاسلام وقد أوجد هذا الإقبال أرضيةً صالحةً لمرحلة ثالثة من الدعوة، وهي التي يصح وصفها بالدعوة العامة، وكانت تهدف الى توسيع نطاقها، فقام النبي الأكرم بها امتثالاً لقوله تعالى: «**فاصدع بماتؤمر واعرض عن المشركين**». الحجر: ٩٤.

ان هذه الآية تناسب الدعوة العامة بقرينة قوله: «انا كفيناك المستهزئين». الحجر: ٩٥.

نقل الطبري، عن سعيد بن جبير، أسماء المستهزئين برسول الله وهم خمسة: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، و ابوزمعه، والحرث بن عيطلة والأسود بن قيس، وكلهم هلكوا قبل بدر.(٢٢)

وقد حكى أصحاب السير خطبة النبي في بدء تلك المرحلة قالوا:

١- دعا النبي جميع قريش، وهو قائم على الصفا، وقال: ان أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبونني؟ قالوا: والله ماجربنا عليك كذباً، فقال: «يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار، فاني لاأغني عنكم من الله شيئا، اني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد».

٢- و في رواية: «ان مثلي ومثلكم

كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله أن يسبقوه الى أهله فجعل يهتف: يا صباحاه! يا صباحاه! أتيتم أتيتم أنا النذير العريان(٢٣) الذي ظهر صدقه(٢٤).

٣- و في رواية: دعا قريشاً، فخصّ و عمّ، وقال يا بني كعب بن لوي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني زهرة أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، يا صفيّة عمّة محمّد أنقذي نفسك من النار، فإنّي لاأملك لكم من اللّه شيئا.(٢٥)

ولو كان المراد من فاطمة هي فاطمة بنت النبي فالرواية بأجمعها أو خصوص هذه الجملة موضوعة لأنها ولدت في السنة الخامسة من البعثة، وقد جاء في تاريخ الخميس توصيفها بـ«بنت محمّد» حيث قال: «ياصفيّة بنت عبدالمطلب، يافاطمة بنت محمد لاأغني عنكم من اللّه شيئا سلاني من مالي ماشئتم».

ولذلك احتملَ زيني دحلان أن ذكر فاطمة من خلط الرواة، وانما ذكرت في حديث أخروقع بالمدينة جاء فيه الزوجات والبنات وقال لهنّ: «لاأغني عنكن من اللّه شيئاً حتّاً لهنّ علي صالح الأعمال».

الإيجابيّات والسلبيّات تجاه الدعوة المحمديّة(ص):

لم تكن الدعوة المحمديّة بدعا من الرسالات السماوية، فقد واجهت ماواجهته سائر الرسالات فحظيت بالقبول من بعض، بينما حاربتها الأكثريّة الساحقة، شأنها شأن ماسلفها من الدعوات الاصلاحية حذو القذة بالقذّة ومن سَبَرَ تاريخ الأنبياء، وتاريخ الدعوات الاصلاحية بإمعان يقف على أن النجاح لم يكن حليفهم، خصوصاً في الوهلة الاولى، من دعوتهم، بل كان الناس على مفرق طريقين، فهم بين مؤمن بالدعوة و مصدّق لها ومستنفد طاقته في سبيلها، ومضحٍ بنفسه ونفيسه، ومكذب عنود يضع في طريق دعوة المصلحين الموانع والعراقيل الكفيلة بصدّهم عمايطمحون اليه من الغايات المنشودة.

وكانت هذه المجابهة والمحاربة المستميتة مع المصلحين وليدة حالة من الجهل والانحطاط الفكري والثقافي، وكلّما

كان القوم أبعد غوراً في تعصبهم لآبائهم و أجدادهم، وماكانوا يدينون به من العقائد الشنيئة والسخيفة كانت المكافحة أشدّ والمنابذة أقوى.

ولما كانت الدعوة الاصلاحية، سواء أكانت سماويّة أم أرضية وضعية تؤدّي الى تفويت مصالح بعض الطبقات الخاصة كالإقطاعيين و ذوي رؤوس الأموال الطائلة، لم تحظ الدعوة في أغلب صورها وحالاتها بقبول الرأي العام، وهذه هي الظاهرة المألوفة غالباً، فترى ان المسيطرين على المجتمع، في كافّة الاجيال، والاحقاب، كانوا على طرفي نقيض من الدعوة الاصلاحيّة، وكان التصويب بالاذعان والايمان مختصاً بالطبقة المحرومة المقهورة المستضعفة.

هذا هو جون. اف. كنيدي الذي تربع على منصه الحكم بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٠م، بعد أن أنتخب رئيساً بالغالبية العظمى، فلقد كان صاحب نظرة خاصة في الملوّنين الأمريكيين، وكان بصدد اصلاح حياتهم المليئة بالبؤس والشقاء، عن طريق منحهم بعض الحقوق والحريات، استلهاما من الفطرة الانسانية، ولكن ما ان طلع نجمه إلاّ وقد اغتيل من جانب المتعصبين العنصريين، بشكل لم يعهد التاريخ له مثيلاً إلاّ القليل النادر، فعلى الرغم من عظمة جهاز الاستخبارات الأمريكية وسطوته لم يعرف قاتله، ولم يعثر له على أثر أو خبر يذكر، وكان التخطيط قد دبّر ليلاً.

وتصوّر لنا هذه الظاهرة في محكية عن قوم نوح بقوله: **«فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك الاّ بشراً مثلنا ومانراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي، ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين»**. هود: ٢٧

هذه هي الظاهرة الملموسة، في حياة الأنبياء، وما لاقوه في سبيل إنجاح دعوتهم، و على ضوء ذلك فلاينتابك العجب عند ماتلقى بنظرة خاطفة على حياة الرسول(ص) في بدء دعوته، حيث كان الايمان والانطواء تحت راية الرسالة مختصاً برجال أحرار الفطرة، أصفياء الطوية، لم يعمِ بريق زخارف الدّنيا و زينتها بصائرهم فلبّوا دعوة الرسول بصدر رحب.

العراقيل والموانع تجاه دعوة الرسول(ص):

ظل النبي الأكرم في موطنه قرابة ثلاثة عشر عاماً ولم يكن النصر حليفه،

وماكان ذلك إلاّ نتيجة الموانع والعراقيل التي حيكت ضده، واليك لمحة خاطفة عنها:

١- ان الرسالة المحمدية، كسائر الرسالات الآلهية كانت تهدف الى انتشال المستضعفين من حضيض التخلف المادي والمعنوي والرّقي بهم الى حالة الازدهار الحضاري، ومن المعلوم أن تلك الخطة ماكانت تنسجم مع مطامع أصحاب السلطة والثروة الذين يسيطرون على المجتمع بسطوتهم وجبروتهم، ويمتصون دماء المحرومين، بلاهوادة - يقول سبحانه:

«ولاتطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شئ وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين». الانعام: ٥٢.

روى الثعلبي في تفسيره باسناده عن عبداللّه بن مسعود، قال مر الملأ من قريش على رسول اللّه و عنده صهيب، وخباب، وبلال، و عمار و غيرهم من ضعفاء المسلمين وقالوا: يامحمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أفنحن نكون تبعاً لهم، أهؤلاء الذين منّ اللّه عليهم؟ إطردهم عنك ولعلّك إن طردتهم اتبعناك.(٢٦)

٢- التعصب المقيت لسيرة الآباء و الأجداد أمر جبلي للبشر يتنامي في إطار حياتهم القبلية، وكانت دعوة النبي، على خلاف سيرتهم، ولذلك اهتموا بمكافحته ومنازعته قائلين بأنّ دعوتك تضاد سيرة آبائنا، ولم يكتفوا بذلك، حتى استدلوا على صحة سيرتهم بأنه لولا مشيئة اللّه سبحانه، لما عبد الآباء الأصنام والأوثان، يقول سبحانه حاكياً عنهم: **«وقال الذين أشركوا لوشاءاللّه ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولاآباؤنا ولاحرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين». النحل: ٣٥.**

وقال سبحانه: **«بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امّة و إنّا على آثارهم مهتدون».** الزخرف: ٢٢، ويظهر من غير واحد من الآيات ان تلك الظاهرة الروحية لم تزل تعرقل خطى الدعوة في أكثر الرسالات السماوية، قال سبحانه: **«وكذلك ماارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا اباءنا على أمة و إنّا على آثارهم مقتدون»** وقال: **«اولوجئتكم بأهدى ممّاوجدتم عليه اباءكم، قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون».** الزخرف: ٢٣-٢٤.

٣-لقد كانت الأميّة والانحطاط الثقافي

متفشية في شبه الجزيرة العربية أنذاك خصوصاً في أُم القرى وماحولها، فكانت العقلية الانسانية التي تميز الحق من الباطل، والصالح من الفاسد متدهورة جداً. وهذا هو البلاذري يعكس لنا صورة هذا التدهور الثقافي بقوله في كتابه:

«دخل الاسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلّهم يكتب: عمربن الخطاب وعلي بن ابي طالب...». (٢٧)

وقال ابن خلدون:

«ان عهد قريش بالكتابة والخط العربي لم يكن بعيداً بل كان حديثاً وقريباً بعهد الرسول، وقد تعرفوا عليها قبيل ظهور الاسلام». (٢٨)

فاذا كان هذا مبلغ تعرفهم على الكتابة والقراءة، فليكن هذا مقياساً لثقافتهم، ومدى ازدهار قواهم العقلية.

٤- ارتكزت الدعوة المحمديّة على دعامتين أصيلتين:

أ- اختصاص العبودية للّه سبحانه و رفض عبادة غيره.

ب- الاعتقاد بيوم الحساب و أن وراء الحياة الدنيوية، حياة أخرى تجزي فيها كل نفس بماعملت من خير و شر، و أنّ الناس، في ذلك اليوم، على فئتين: فئة بائسة مكفهّرة، وان الظالمين والمتجاوزين سوف يحاسبون فيها أشدّ الحساب و دقيقه.

يقول سبحانه: **«فاذا جاءت الصّاخة يوم يفر المرء من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته و بنيه لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة و وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة اولئك هم الكفرة الفجرة».** عبس:٣٢-٤٢.

ويقول عزّ اسمه في سورة اخرى: **«يا ايها النّاس اتقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت و تضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب اللّه شديد».** الحج: ١-٢.

كانت هذه النداءات الربانية تبعث الرعب والهلع، في قلوب المشركين، لأنهم يجدون أنفسهم أمام عذاب أليم لامناص منه ولامفرعنه، وبما أنهم كانوا يعانون من تبنى هذه الفكرة بل من سماعها واحتمال صدقها، فجنحوا الى إراحة أنفسهم من هذا العذاب الأجل، بانكار الدعوة وتكذيبها من الأساس.

ان هؤلاء الجناة كانوا معتادين أن

ينحروا للأصنام طلبا لمحو سيئاتهم، ثم تتركهم في القتل والنهب، و ارتكاب الفحشاء و غيرها في مستقبل حياتهم، وأما الدعوة التي لاتقبل الرشوة والمهادنة، وترفض القرابين و النحور لاتحقق أملهم، ولاتلقى اليهم بالضوء الأخضر، حتى يقترفوا مايشاؤون.

٥- ان المترفين والملأ كانوا يكافحون دعوة الانبياء، وينابذونها وقد سجّل القرآن أعمالهم الاجرامية في غير واحدة من الآيات قال سبحانه: «**قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملّتنا قال أولو كنا كارهين**». الأعراف: ٨٨

ويقول في حق المترفين: «**وما أرسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون**». سبأ: ٣٤

ان طبيعة الترف، وانبساط النعمة، والعيش الرغيد تؤدي الى الجموح والطغيان، والتغافل عن كل ما من شأنه أن يحول بينه و بين شهواته وميوله و غرائزه، يقول سبحانه: «**ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى**». العلق: ٦-٧

اين هذه الفكرة من طبيعة الشريعة السماوية التي تفرض على الانسان الاعتدال في الشهوات، وسلوك الجادة القويمة، فلاينسفها من رأس، ولايرخى لها العنان.

فلأجل ذلك نرى ان الملأ في عصر النبي(ص) وأصحاب المجون والترف عارضوا النبي(ص) وخالفوا لما رأوا أنه يريد أن يضع حدوداً، في طريق ميولهم والحيلولة دون اشباع نهم غرائزهم المستعرة، فلذلك قاموا بتكثيف الجهود، في وجه الدعوة المحمدية.

٦- ان الحسد والتنافس والتنازع من العوامل التي تصطنع حجباً أمام البصائر، فلاتتمكن من رؤية الحقائق، على ما هى عليه، ومثله الكبر والغرور فيصدان الانسان عن رؤية الحقيقة، بل يبعثان على اختلاق أعذار واهية، للتنكب عن قبول الحق والاذعان له، فنحن نرى ذلك العامل، في وجه الدعوة النبوية، حيث أن قريشاً كانت تشعر بأن النبوة مقام شامخ الهي، يستعقب عزّة الصادع بها وقومه على القبائل الأُخر فكان ذلك رادعاً عن قبول عدّة من أكابر قريش الدعوة الالهية قائلين لماذا لم ينزل هذا القرآن على الوليد بن المغيرة وهو أحق به من النبي بزعمهم.

يقول سبحانه: «**وقالوالولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**،

أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.... ورحمة ربك خير ممايجمعون». الزخرف:٣١ - ٣٢.

هذه هي الموانع التي اصطنعتها قريش في وجه الرسول(ص) للحيلولة دون بلوغ أهدافه التي كان يطمح لإقرارها، وتثبيت أسسها، في برهة زمنية قياسية، فكانت لهم ردود فعل مثبّطة نشير اليها في العدد الآتي.

الهوامش

---

(١) السيرة النبوية ١: ٢٤٧ - ٢٦٢ .

(٢) السيرة النبوية ١: ٢٤٣ .

(٣) السيرة النبوية ١: ٢٤٦ .

(٤) تاريخ الطبري ٢: ٥٦، وفيه نصوص أُخرى على انه(ع) أول من آمن برسول الله.

(٥) السيرة النبوية ١: ٢٦٢ .

(٦) هي المعروفة الآن بدار الخيزران عند الصفا اشتراها الخليفة المنصور و أعطاها ولده المهدي، ثم أعطاها المهدي للخيزران أم ولديه: موسى الهادي وهارون الرشيد. «لاحظ: السيرة الحلبيّة ١: ٢٨٣».

(٧) السيرة النبوية ١: ٢٦٢ .

(٨) لاحظ: أعلام النساء ٣: ١١، نقلاً عن طبقات ابن سعد - وسنن النسائي وصحيح البخاري و شرح الزرقاني على المواهب والسمط الثمين.

(٩) الغدير ٨: ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(١٠) وفي البداية والنهاية ٣: ٤٠ «بني هاشم» هذا هو الاصح.

(١١) تاريخ الطبري ١: ٦٣ .

(١٢) الغدير ٢: ٢٧٨ - ٢٨٤ .

(١٣) تفسير الطبري ١٩: ٧٤، وقد رواه العلاّمة الاميني في غديره ٢: ٢٧٩ - ٢٨٤ والعلاّمة السيد جعفر مرتضى في كتابه: الصحيح من سيرة النبي ٢: ١٢، عن مصادر كثيرة تعرب عن تضافر الرواية وتواترها.

(١٤) لاحظ حياة محمّد، الطبعه الاولى: ١٠٤، والطبعات الأخر: ١٤٢ .

(١٥) منهاج السنة ٤: ٨١ .

(١٦) الصحيح من سيرة النبي الاعظم ٢: ١٤ .

(١٧) المراجعات: ٤٢ - ١٠٥، وماجاء فيها يشكّل رسالة اسماها شيخ الازهر سليم البشري، واستاد الشيعة في اسناد السنة.

(١٨) مسند احمد ١: ١٥٩ .

(١٩) تاريخ الطبري ٢: ٦٢ .

(٢٠) منهاج السنة: ٨٣ .

(٢١) سيرة زيني دَحلان بهامش السيرة الحلبيّة ١: ١٩٤ .

(٢٢) تفسير الطبري ١٤: ٤٩ .

(٢٣) العريان: الذي اقبل عرياناً ينذر بالعدو. انه لايتهم بخلاف الّذي لم يجرد فانه قد يتهم والمعنى انا النذير الّذي لا أتّهم.

(٢٤) سيرة زيني دَحلان، على هامش السيرة الحلبيّة: ١٩٤ - ١٩٥، والبداية والنهاية ٣: ٣٨، وتاريخ الخميس ١: ٢٨٨ .

(٢٥) تاريخ الخميس ١: ٢٨٨، وسيرة زيني دَحلان على هامش السيرة النبوية ١: ١٩٣

(٢٦) مجمع البيان ٢: ٣٠٥، طبع صيدا.

(٢٧) فتوح البلدان: ٤٥٧ .

(٢٨) مقدمة ابن خلدون: ٣٤٨ .



ميراثان في كتاب الله

القسم الاول

الشيخ محمدمهدي الاصفي



في كتاب الله نجد ثلاثة انواع من المواريث لعباد الله الصالحين: ميراثين في الدنيا وميراثاً في الآخرة.

اما الميراث في الآخرة فهو الجنة يورثها عباده الصالحين والمتقين من عباده بما عملوا.

وإنما يسميه القرآن «إرثاً» لان الله تعالى خلق الجنة لعباده جميعاً اذا آمنوا وعملوا صالحاً.

ولما حرم الكفار والمشركون من الجنة بكفرهم وإفسادهم في الارض فإن الله تعالى خص المؤمنين فقط بالجنة، دون الكفار المشركين، وأورثهم الجنة التي كان يستحقها اولئك لو كانوا يؤمنون ويعملون صالحاً.

وقد روي عن رسول الله(ص): «ما منكم من احد إلاّ وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فان مات، ودخل النار، ورث اهل الجنة منزله»

والارث هو الجنة والوارثون هم المؤمنون الذين يرثون الفردوس

والايات المباركة في بداية سورة«المؤمنون» تعطي صورة واضحة للوارثين الذين يرثون الجنة.

ويقول تعالى:

«قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون* والذين هم عن اللغو

معرضون* والذين هم للزكاة فاعلون* والذين هم لفروجهم حافظون... والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون... والذين هم على صلواتهم يحافظون* اولئك هم الوارثون* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون».(المؤمنون:١-١١)

إذن وراثة الجنة لا تتم الا بالخشوع في الصلاة، والاعراض عن اللغو، والزكاة، والصلاة، وحفظ الفروج عن الحرام، واداء الامانات والعهود.

وفي سورة (مريم:٦٣) ورد ذكر التقوى في الاسباب التي تورث الجنة «**تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً**»

وفي مواضع اخرى يقرر القرآن الكريم أن الجنة يرثها المؤمنون باعمالهم«**ونودوا إن تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون**».(الاعراف:٤٣)

«**وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**».(الزخرف:٧٢)

فلا ينال المؤمنون الجنة إلا بما قدموا من عمل صالح في الدنيا، والعمل الصالح هو الذي يورث المؤمنين الجنة.

وهذا هو ميراث الصالحين في الاخرة اما في الدنيا فقد جعل الله تعالى للصالحين ميراثين، ميراثاً من الظالمين والجبابرة الطغاة وميراثاً من الأنبياء المرسلين والصالحين من عباد الله.

وفي كتاب الله تعالى إيضاح وتفصيل لهذين الميراثين اللذين يرثهما الصالحون من عباد الله في الدنيا.

وفي هذه الرسالة نتحدث عن هذين الميراثين في كتاب الله.

الميراث الاول

الميراث الاول هو ميراث الصالحين من المستكبرين. وهذا الميراث هو السلطان والمال والارض: يقول تعالى:

«**ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين، ونمكّن لهم في الارض**».(القصص:٥)

«**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون**».(الأنبياء:١٠٥)

«**واورثكم أرضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطؤوها**».(الاحزاب:٢٧)

«**قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين**».(الاعراف:١٢٨)

«**واورثنا القوم الذين كانوا**

يُستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون».(الاعراف/١٣٧)

دورة التاريخ في القرآن

وهذه الجملة من الايات الكريمة لها دلالات عجيبة في ترسيم سنة اللّه تعالى في تداول الايام والقوة والسلطان والسيادة بين الناس، وهي ترسم لنا دورة كاملة للتاريخ في حركته المستمرة الدائبة.

ونلاحظ نحن في هذه الحركة الاصول التالية التي ترسم لنا سنن اللّه في التاريخ:

١- إن القوة والمال تتبعان دائماً الصلاح والتقوى، وكلما حل بقوم الصلاح حلت معه القوة والسلطان والمال... بعكس ما يتصور الناس عادة من ان الانسان يكسب القوة والمال بالعدوان والغش والظلم والفساد، والقرآن يؤكد كثيراً وفي تعبيرات مختلفة هذا المعنى«**والعاقبة للمتّقين**».(الاعراف:١٢٨)

«**وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا**».(الاعراف:١٣٧)

«**ليجزي اللّه الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء، أو يتوب عليهم، إن اللّه كان غفوراً رحيماً* وردّ اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قوياً عزيزاً* وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً* وأورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضاً لم تطؤوها وكان اللّه على كل شئ قديراً**».(الاحزاب:٢٤-٢٧)

٢- المال والسلطان يعرّضان الانسان للفساد والطغيان والعجب«**كلاّ انّ الانسان ليطغى، أن رآه استغنى**».(العلق:٦)

وذلك ان المال والسلطان يصيبان الانسان بالعجب والغرور، ويحجبانه عن اللّه تعالى.

وأن ما يرزق اللّه تعالى عباده من مال وسلطان لحري ان يدعو الانسان الى الشكر والارتباط بالله سبحانه، الا ان الانسان قد يحوّل المال والسلطان في حياته الى أداة للقطيعة مع اللّه والسكر ومن ذلك يكون المال والسلطان أداة للفساد والطغيان والعجب والغرور في حياة الانسان.

يقول امير المؤمنين-عليه السلام-في اولئك الذين افسدتهم النعمة والمال والسلطان:«ذلك حيث تسكرون من غير شراب بل من النعمة والنعيم».(١)

ومن عجب ان يسكر الانسان، ولكن من دون شراب، بل من النعمة والنعيم، وأنها لحري ان تكون سبباً للوعي واليقظة في حياة الانسان.

٣- واذا فسد الانسان انتزع اللّه تعالى منه المال والسلطان- بعد أن يمهله ويمده في الطغيان...

«واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً* وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً».(الاسراء:١٦-١٧)

وهذه هي نهاية الحضارة وسقوطها. وهي نهاية دورة التاريخ وعندها يأذن اللّه تعالى بدورة جديدة للتاريخ، فإن الامم اذا افسدها المال والسلطان، مدّ اللّه تعالى لها في المال والسلطان، استدراجاً لها، وامعاناً في الاستدراج، فتزداد فساداً، وطغياناً، وعند ذلك يسلبها اللّه تعالى ما أتاها من مال وسلطان، مرة واحدة، وينتزع منها ما رزقها من النعمة.

ذلك أنها توغل في الفساد-حالة الاستدراج- وينخر فيها الفساد من الداخل، دون ان يظهر ذلك على السطح المرئي من حياتها، فتفقد الضمير والعاطفة والقيم والاخلاق وتستولي عليها الاهواء والشهوات والنزوات، حتى اذا نخرت من الداخل، بشكل كامل، إنهارت مرة واحدة.

لهذا السبب فان نهاية الدورة الحضارية السقوط والإنهيار دائماً هو، الموت الدفعي المفاجئ، وليس الموت التدريجي، بعكس الحال في ولادة الحضارات ونموها فإنها تتولد وتتنمو بصورة تدريجية.

والتعبير القرآني دقيق في هذا الامر:

«ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون».(الاعراف:١٣٧)

هكذا: دمرناها مرة واحدة.

«أو أمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون».(الاعراف:٩٨)

ضحى، وبصورة مفاجئة، حيث يعيش الناس في أمان، لا يتصورون أن يصيبهم من هذا الوباء شر أو سوء، وهم في غيهم وفي غفلتهم سادرون، يلعبون... وفجأة يأتيهم بأس اللّه العزيز القهار فلا ينجو منهم من أحد، ولا يمهل أحداً ابداً.

دورة التاريخ في سورة الاعراف

والآيات التالية من سورة الاعراف توضح لنا دورة التاريخ هذه وسنن اللّه تعالى في حركة التاريخ وميلاد وموت الحضارات.

«وما ارسلنا في قرية من نبي إلا اخذنا اهلها بالبأساء والضرّاء لعلهم يضّرّعون* ثم بدّلنا مكان السيّئة الحسنة حتى عفوا، وقالوا قد مسّ آباءنا الضرّاء والسرّاء، فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون* ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض، ولكن كذّبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون* افامن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون* او امن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون* افامنوا مكر اللّه فلا يأمن مكر اللّه الا القوم الخاسرون».
(الاعراف:٩٤-٩٩)

في بداية الامر يبتليهم اللّه، ليتضرعوا اليه تعالى، وليهتدوا، وليأخذوا باسباب الهداية والنجاة.

وهذه هي مرحلة «الابتلاء» و «التمحيص»

«وما أرسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون»

فاذا اهتدوا، واستقاموا على الطريق فتح اللّه عليهم بركات من السماء والارض.

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض»

وهذه هي مرحلة الهداية والنعمة. وإن رفضوا الهداية، وتمردوا فان اللّه تعالى يبدلهم مكان الشدة، الرخاء ومكان البأساء والضراء... النعماء حتى يكثروا وحتى ينسوا اللّه تعالى:

«ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة، حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والبأساء»

ويطبع على قلوبهم، ويسلبهم العقل والبصيرة والوعي:

«ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع اللّه على قلوب الكافرين».(الاعراف/١٠١)

«أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها أن لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون».(الاعراف:١٠٠)

وهذه مرحلة المكر والطبع على القلوب والاستدراج.

ثم بعد مرحلة المكر والاستدراج تأتي مرحلة الهلاك والدمار وسقوط الحضارة الكامل والمفاجئ:

«فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون»

لاحظوا:«بغتة»، مرة واحدة وبصورة

مفاجئة وهم لا يشعرون:

«افأمن اهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون* أو أمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون* أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون»

وهذه مرحلة «الهلاك» و«المحق».

دورة التاريخ في نهج البلاغة

دورة التاريخ في كلمات الامام(ع):

وفي خطبة«القاصعة» من كلام الامام امير المؤمنين عليه السلام نجد تصويراً دقيقاً لهذه المراحل الثلاثة التي يحددها القرآن الكريم لحركة التاريخ:

١- مرحلة ميلاد الحضارات.

٢- مرحلة الفساد والاختلال.

٣- مرحلة سقوط الحضارة.

فيضرب لنا الامام-عليه السلام-مثلاً بحضارة بني اسرائيل في عصر فرعون وعند قيام رسول الله وكليمه موسى من عمران-عليه السلام.

يقول-عليه السلام:

«وتدبروا احوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء»

ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً، وأضيق أهل الدنيا حالاً.

إتخذتهم الفراعنة عبيداً، فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم من ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً الى دفاع».(٢)

وهذه هي مرحلة الابتلاء والتمحيص التي تهيئ الامة للصلاح والاستقامة، ولابد لكل استقامة وصلاح في حياة الامم من المرور بمرحلة من الابتلاء والتمحيص، الذي يعد الامة للاستقامة والعودة الى الله تعالى.

ولم نتحدث نحن عن هذه المرحلة من رسم دورة التاريخ في هذا الحديث، كما لم نتحدث نحن عن مرحلة الاستدراج بصورة مستقلة.

ثم يقول عليه السلام:

«حتى اذا رأى الله جدَّ الصبر منهم على الاذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضائق البلاء فرجاً، فابدلهم العز مكان الذل، والامن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، أئمة أعلاماً، قد بلغت الكرامة من الله لهم ما لم تبلغ الامال بهم.

فأنظروا كيف كانوا حيث كانت الاملاء مجتمعة، والاهواء متفقة، والقلوب معتدلة، والايدي مترادفة، والسيوف متناصرة،

والبصائر نافذة، والعزائم واجدة ألم يكونوا أرباباً في أقطار الارضين وملوكاً على رقاب العالمين؟».(٣)

وهذه هي المرحلة الاولى من الدورة الحضارية للتاريخ مرحلة ولادة الحضارة الالهية ونشوئها.

ثم يحدثنا الامام عن المرحلة الثانية حيث يبدأ الفساد يدّب في جسم هذه الحضارة وتنخر هذه الحضارة من الداخل، وتتحول نعم اللّه تعالى من جسور للارتباط باللّه تعالى الى حجب وحواجز تحجب الانسان وتحجزه عن اللّه فيلهو باللعب واللهو والسكر وينسى نفسه، وتتحكم فيهم الاهواء، ويكثر فيهم الخلاف، وتختلف لديهم الاراء والاهواء.

يقول-عليه السلام:

«فانظروا الى ما صاروا اليه في آخر أمورهم حين وقعت الفتنة، وتشتتت الالفة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين».(٣)

ثم يتحدث الامام بعد ذلك عن المرحلة الثالثة: مرحلة السقوط والانهيار، حيث يسلبهم اللّه تعالى نعمه كلها ويفاجؤهم بغضبه وبأسه ضحى وهم يلعبون.

«قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبرة للمعتبرين».(٥)

وهذه المحنة الاخيرة، ليست من نوع«ابتلاء التمحيص» الذي كان يحض المؤمنين من عباد اللّه، والذي كان يعد الامة لميلاد حضاري جديد.

... وإنما هو نوع آخر من المحنة يعبر عنها القرآن الكريم بـ«المحق» في مقابل التمحيص، وهو يخص الحضارات «وليمحّصَ اللّه الذين آمنوا ويمحق الكافرين».(آل عمران:١٤١)

وكلاهما من المحنة الا أن احدهما محنة للتمحيص والتزكية والتطهير والاخر محنة للمحق والهلاك والتدمير.

حرية القرار:

ولابد أن نشير في هذه النقطة من الحديث الى مسألتين هامتين، لهما علاقة مباشرة بهذه الدورة الحضارية في التاريخ.

الاولى أن استتباع المال والقوة للصلاح والتقوى قضية حتمية في مسير التاريخ.

كما أن سقوط الحضارات وموتها وإنهيارها بإنتشار الفساد والاخلاق في الامم قضية حتمية، في هذا المسير، ومن سنن اللّه الثابتة التي لا تتبدل وليس للانسان أن يغير هذه الحتميات التاريخية والسنن الالهية في حركة الحضارة ودورة التاريخ.

انها تشكل الشطر الحتمي من دورة التاريخ. وتفعل وتؤثر بصورة حتمية ثابتة من حياة الانسان دون أن تتبدل أو تتغير أو تتحول.

فاستمع اليه تعالى في آياته البينات حيث يقول:«سنة اللّه في الذين خلوا من قبل، وكان امر اللّه قدراً مقدوراً».(الاحزاب:٣٨)

«ولن تجد لسنة اللّه تبديلا».(الاحزاب:٦٢)

«ولن تجد لسنة اللّه تحويلا».(فاطر:٤٣)

«سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا».(الاسراء:٧٧)

إلا أن حتمية هذه العوامل في حركة التاريخ لا تعني حتمية حركة التاريخ... فان حركة التاريخ في النظرية الاسلامية ليست حركة حتمية، وإنما هي تابعة لتحرك الانسان وتوجهه.

وذلك أن شطرين آخرين من الاجزاء المؤثرة في تحريك التاريخ والحضارة هما من صنع الانسان وارادته، وهما حركة الانسان نحو الصلاح أو حركته نحو الفساد.

إن تحرك الانسان بهذين الاتجاهين خاضع لاختيار الانسان بشكل كامل، وان كان للابتلاء والتمحيص دور مساعد معروف في توجيه الانسان الى الصلاح، وللمال والسلطان دور مساعد معروف في اغراء الانسان بالفساد.

لكن الانسان يبقى مع ذلك كله، صاحب القرار في الصلاح والفساد والاستقامة والضلال، وتبقى له حرية اتخاذ القرار والتوجه في هذا الامر بشكل كامل.

وحركة الانسان نحو الصلاح أو الفساد مفتاح لكل الدورة التاريخية والحضارية في حياة الانسان وتفسير كل التحولات الحضارية التي تحدث للانسان.

وقد اعطى اللّه تعالى هذا المفتاح بيد الانسان يتصرف به باتجاه الهدى أو الضلال

«الم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين».(البلد:١٠)

«إنا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً».(الانسان:٣)

وهذه الحرية في اتخاذ القرار والتحرك باتجاه الصلاح أو الفساد تعطي الانسان دوراً فاعلاً في صنع التاريخ.

وبهذا التوضيح نجد أن النظرية الاسلامية تختلف اختلافاً جوهرياً عن نظرية «الحتمية التاريخية» التي تتبناها المادية التاريخية... إن دورة الحضارة

وحركة التاريخ تجري فى نظرية المادية التاريخية بصورة حتمية، لا يستطيع الانسان ان يغيرها.

اما في النظرية الاسلامية في حركة التاريخ، فإن الانسان هو العنصر الفاعل المحرك للتاريخ، وبيده مفتاح حركة دورة التاريخ، ويتمتع في هذه الحركة الفاعلة بكامل حريته في اتخاذ القرار وفي التوجه والتحرك.

الدور الفاعل والمسؤول للانسان في حركة التاريخ:

ليس الانسان اذن خشبة عائمة في مجرى التاريخ مسلوب الارادة والاختيار... وإنما يشكل الانسان في هذه المسيرة الحضارية عنصراً فاعلاً ومسؤولاً.

ومركزه في التاريخ مركز التغيير والقيادة، والى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم.

«إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».(الرعد:١١)

«ذلك بأن اللّه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».(الأنفال:٥٣)

إن هاتين الايتين تشيران الى المركز والدور التغييري الفاعل للانسان في حركة التاريخ، وأن حركة التاريخ تابعة لارادة الانسان واختياره وليس العكس.

ولا يمنع من هذه الحقيقة اطلاقاً الشطر الحتمي من قوانين التاريخ وسننه، اذا كان هذا الشطر هو المنفعل اتجاه ارادة الانسان.

والآية الكريمة تتألف من حقيقتين:

حقيقة حتمية لا سبيل للانسان الى تغييرها وتبديلها وهي الجزء المتعلق بارادة اللّه تعالى بتغيير الاوضاع المادية والمعيشية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للامة.

وحقيقة إرادية تابعة لاختيار الانسان وهي الجزء المتعلق بارادة الانسان لتغيير نفسه، والذي يستتبع بشكل ضروري التغييرات الحتمية من القسم الاول.

العلاقة بين الجانب المادي والمعنوي من حياة الانسان:

والمسألة الثانية التي لابد ان نشير اليها بهذا الصدد العلاقة الوثيقة بين الشطرين المعنوي والمادي من حياة الانسان، فليس هذان الشطران من الحياة أجنبيين عن بعض، كما يتصور بعض الناس، بل هما مرتبطان ببعض إرتباطاً وثيقاً والجانب المعنوي من شخصية الانسان والامة يؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً في الجانب المادي، ولا

يصح فصل هذين الجانبين عن بعض ولا يصح تجزئة شخصية الانسان والامة الى جزئين منفصلين، لا علاقة بينهما.

يقول تعالى:

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض، ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون».(الاعراف:٩٦)

ولكل منهما تأثير على الطرف الاخر، إلا أن الجانب المعنوي يبقى هو الاساس لشخصية الانسان بعكس النظرية المادية التي تنفي وجود أي تأثير للجانب المعنوي من شخصية الفرد أو الامة على الجانب المادي، إن لم يكن الامر بالعكس: أي أن يكون الجانب المادي هو الذي يؤثر على الجانب المعنوي ويكونه.

الولادة الجديدة

تنتهي عند هذا الحد دورة التاريخ عبر مراحل الولادة والمعاناة والابتلاء والاستقامة والنعمة والاندراج والمحق والهلاك.

إلا أن اللّه تعالى لا يبقي حركة التاريخ عاطلة، فيبعث سبحانه وتعالى هذه الحركة في حياة الانسان على وجه الارض من جديد بولادة جديدة لأمة من الامم يختارها اللّه تعالى لاحتضان رسالته وحملها الى البشرية بين سائر الامم.

إذن الولادة الجديدة ليست بمعنى ظهور أمة على وجه الارض. وإنما هي بمعنى ظهور الرسالة الالهية والحركة على خط هذه الرسالة في إحدى الامم، يختارها اللّه تعالى لهذه المهمة فتنهض بها هذه الامة دون سائر الامم.

وهذه سنة من سنن اللّه تعالى لئلا تتعطل حركة التوحيد على وجه الارض، ولا تنتهي هذه الحركة بمحق الامم وهلاكها.

والامة الجديدة التي إختارها اللّه تعالى لإحتضان رسالته وتبنّيها وحملها الى البشرية تتحرك على نفس النهج السابق من السنن الالهية.

وهذا النهج يتلخص في حركتين حركة صاعدة وحركة دائرية.

والحركة الصاعدة هي الحركة التي ترتفع بالامة الى اللّه تعالى في مسيرة تصاعدية إبتداءً بولادة الامة وإستخلافها ثم التعرض للابتلاء والمعاناة «لعلهم يضرعون» ثم الاستقامة والتقوى، والاستقامة والتقوى يستتبعان المال والسلطان، وللمال والسلطان دور مباشر في إثارة الذكر والشكر والعرفان بالحمل في القلوب والنفوس السليمة وكل ذلك من عوامل التقوى وأسباب الصعود والقرب الى اللّه تعالى.

ومن خصائص الشكر أنه يزيد من نعمة اللّه تعالى «المال والسلطان والعافية» «لئن شكرتم لأزيدنكم». وزيادة المال والسلطان والعافية تصعد درجة الشكر والذكر في النفوس والقلوب السليمة، وهكذا يتسلسل الانسان في حركة تصاعدية الى اللّه.

وهذه هي حركة الانسان التصاعدية الى اللّه تعالى. والى جنب هذه الحركة يوجد نوع آخر من الحركة وهي الحركة الدائرية.

وقد شرحنا مراحل هذه الحركة من قبل.

ولادة ثم إبتلاء، ثم إستقامة وتقوى ثم ينعم اللّه على هذه الامة بالمال والسلطان فيشيع المال والسلطان الغرور والطغيان «في النفوس والقلوب المريضة».

ثم إستدراج ثم هلاك ومحق. ثم يبدأ التاريخ دورته من جديد.

وهاتان حركتان للامم وللجماعات. أما حركة الافراد الى اللّه فلها شأن آخر وحديث آخر لا يدخل في صلب بحثنا الآن.

ونستطيع أن نلخص هذه الحركة بكلمتين «الصعود الى اللّه والسقوط».

وكل من الصعود والسقوط يجري بموجب سنن الهية حتمية لا تتخلف، وللانسان الخيار في إختيار هذه الحركة أو تلك، وليس من عامل جبري يحتم على الانسان إختيار إحدى هاتين الحركتين بالخصوص. وهذا الاختيار هو أساس «المسؤولية» في حياة الانسان. ولولا هذا «الاختيار» لم يتحمل الانسان أية مسؤولية عن سلوكه ومواقفه.

إلا أن النتائج المترتبة على هذه الحركة أو تلك التي يختارها الانسان نتائج حتمية لا تتغير ولا تتبدل «**ولن تجد لسنة اللّه تحويلاً**».

ونعود الآن الى حديث الولادة الجديدة للتاريخ.

بعد كل محق وهلاك ولادة جديدة في التاريخ، وهذه الولادة الجديدة تتلخص في إستخلاف اللّه تعالى لإحدى الامم محل الامة الهالكة وإيراثها المال والسلطان الذي خلفته الامة الهالكة بعد هلاكها وسقوطها فلا تتعطل سنن اللّه تعالى ولا تتعطل حركة الانسان إلى اللّه تعالى. وهكذا تستمر هذه الحركة وتتصل حلقاتها عبر العروج والسقوط والتعثر، الى أن تلتقي اللّه تعالى.

«**يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه**».(٢)

وعن هذه الولادة الجديدة يعبر القرآن الكريم بثلاث تعبيرات وهي تعبيرات دقيقة وبليغة في تفهم سنن اللّه تعالى.

وهذه التعابير هي:

«الاستبدال» و «الاستخلاف» و «الارث».

يقول تعالى: «واذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً».(الانسان:٢٨)

«إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم».(التوبة:٣٩)

«إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء».(الانعام:١٣٣)

«ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً».(هود:٥٧)

«وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما إستخلف الذين من قبلهم».(النور:٥٥)

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون».(الانبياء:١٠٥)

«وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها».(الاحزاب:٢٧)

«وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها».(الاعراف:١٣٧)

«وقالو الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض».(الزمر:٧٤)

«كذلك وأورثناها بني إسرائيل».(الشعراء:٥٩)

«كذلك وأورثناها قوماً آخرين».(الدخان:٢٨)

وهذا هو الميراث الذي ذكرناه في هذا العنوان، ميراث المؤمنين من الطاغين والمستكبرين، وهو المال والقوة والسلطان والارض.

والله تعالى يختار بعد هلاك الظالمين أمة من بين سائر الامم ليحملها مسؤولية النهوض برسالة التوحيد وتبنيها وإحتضانها وحملها الى سائر الامم، ويورثها ما خلفه الظالمون والمستكبرون من بعدهم من مال وسلطان وأرض.

أما لماذا يختار اللّه تعالى لرسالته أمة دون أخرى من سائر الامم وتتحمل هذه الامة دون سائر الامم مسؤولية النهوض وإحتضان الرسالة وتبنيها والدفاع عنها وحملها الى سائر الامم... فهو شأن من شأن اللّه عزوجل، وبالتأكيد له سبب وحكمة. نسأل اللّه تعالى أن يشرح صدورنا له ولعلنا نجد في هذه الآية الباركة مفتاحاً لفهم هذه الحقيقة.

«هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة».(الجمعة:٢)

والآية الكريمة هذه تشير الى ولادة هذه الامة، وقد إختار اللّه تعالى عرب

الجزيرة دون سائر الشعوب لحمل هذه الرسالة.

ويعبر عنهم القرآن الكريم بـ«الاميين».

وقد كان يحكم في الارض في تلك الفترة «فترة من الرسل» حضارتان جاهليتان عريقتان قد ورثتا المواريث الحضارية للحضارات الجاهلية السابقة عليها كالهندية والاغريقية والبابلية والاكدية والسومرية وغيرها.

وهاتان الامتان الجاهليتان «الفارسية والرومانية» كانتا بحكم هذا العمق الحضاري قد تشبعتا بالافكار والمفاهيم والقيم والاعراف الجاهلية وتلوثت أفكارهم وقلوبهم بها، ولم يكن من السهل تجريدهم وتخليصهم عنها ليحملوا رسالة الله تعالى نخبة صافية الى البشرية.

والعرب في قلب الصحراء لطبيعة موقعهم الجغرافي كانوا معزولين عن هذه المؤثرات الحضارية.

والتعبير القرآني دقيق وبليغ «في الاميين» والامي مسند الى الام، وكأنهم قد ولدوا لتوهم من بطون أمهاتهم لا يعرفون شيئاً «**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً**».(النمل:٨٨)

وليس معنى ذلك أن العرب كانوا في الجاهلية على الفطرة، ولم تتلوث فطرتهم. وإنما يقصد أن الجاهلية العربية لم تكن ذات عروق ضاربة في عمق الحضارات الجاهلية، وبتعبير آخر كانت الجاهلية العربية جاهلية غير متحضرة ولا تحمل عمقاً حضارياً كما كانت الجاهلية الرومانية والفارسية.

ولهذا السبب كانت البيئة العربية في الصحراء أكثر تهيؤاً لقبول هذه الرسالة وإحتضانها وتبنيها وحملها الى البشرية.

قد يكون هذا هو السبب في إختيار الله تعالى الجزيرة العربية منزلاً أولاً للوحي دون سائر الاوساط والبيئات.

ومهما يكن من أمر فإن حركة التاريخ والتوحيد لا تتعطل، وإنما يختار الله لها من بين الامم أمة يورثها ميراث الظالمين ويبعث فيهم رسولاً ويستخلفهم محل الذين ظلموا وأهلكهم الله بظلمهم.

وهذه الامة الفتية التي يبعثها الله تعالى من بين سائر الامم هي التي ترث مواريث الظالمين من مال وسلطان وقوة وأرض وتحل محلهم وتتولى السيادة على وجه الارض.

«**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون**».

وهذا هو الميراث الاول من ميراث المؤمنين. وهو ميراث المؤمنين من الظالمين.

الهوامش

(١) نهج البلاغة شرح وفهرسة د. صبحي صالح١:٢٧٧ خطبة ١٨٧.

(٢) المصدر السابق١:١٧٧.

(٣) المصدر السابق١:١٧٧.

(٤) المصدر السابق١:١٧٧.

(٥) الموافقات للشاطبي٢:١٢١.

(٦) هذه الآية الكريمة تشير الى معنى لطيف ودقيق. فليس المقصود بالانسان في هذه الآية «الفرد»، فليس كل فرد يلقى اللّه تعالى، وليس كل فرد يكدح الى اللّه. والآية الكريمة صريحة في المعنيين معاً، الكدح ولقاء اللّه.

«إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه» وتفسير لقاء اللّه الموت تفسير غير دقيق. فليس كل من يموت يلقى اللّه تعالى، ففي «لقاء اللّه» من السمو والعلو ما ليس في الموت. وهل يصح أن يكون في موت المجرمين والساقطين «لقاء اللّه» تعالى بما تحمل هذه الكلمة من رقة وسمو. وليس كل من يموت يكدح الى اللّه كدحاً. وما أكثر ما يموت الناس وهم لم يعرفوا اللّه تعالى ولم يكدحوا اليه عز شأنه طرفة عين.

فلا يجوز إذن أن يكون المقصود من الانسان «الفرد».

ولا يصح أن يكون المقصود من الانسان الامم والجماعات، فما أكثر الامم والجماعات التي تعثرت وسقطت وهلكت دون أن تلتقي اللّه تعالى.

إذن التفسير الوحيد لهذه الآية الكريمة، واللّه عز شأنه أعلم بمراده، إن مسيرة الانسان تنتهي الى اللّه تعالى بعد كدح طويل وبعد سقوط الكثيرين، وإن هذه القافلة بمجموعها ومجملها ومن خلال تاريخها الطويل عبر الاجيال والامم تنتهي في حركة صاعدة الى اللّه تعالى.

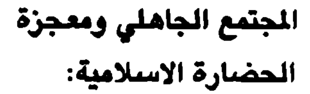
ولن يضر بهذا المعنى سقوط الافراد والجماعات والامم خلال المسيرة.

وهو تماماً كما لو كان المعلم يخاطب تلاميذه في بدء رحلة التعليم إنكم تنتهون في دراستكم الى الدراسات الجامعية العليا. اذا كانت غاية الطلبة هي الوصول الى التخصص في الدراسات العالية. ولن يضر ذلك تعثر مجموعة من الطلاب وسقوطهم وتركهم لدراسة. وكذلك مسيرة البشرية وإن كانت تتعثر في حركتها بين العروج والسقوط ومهما كثر السقوط في حياة الانسان وتاريخه الطويل فإن عاقبة هذه المسيرة هي لقاء اللّه.

إن الفلاح يزرع أشجار البرتقال لتثمر البرتقال ويعلم أنها سوف تثمر وإن كان بعض هذه الاشجار يذبل أو يموت أو تثمر أو لا تثمر.

القرآن والحضارة

الشيخ جعفر الهادي



المجتمع الجاهلي ومعجزة الحضارة الاسلامية:

إنطلقت قبل ١٤١١عاماً في منطقة الجزيرة العربية، ومن أرض يثرب بالذات، أكبر عملية حضارية على يد خاتم الانبياء وسيد المرسلين محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وآله، بدأت بقيام دولة صغيرة مباركة متكاملة في أسسها ومكوناتها الجوهرية، ونمت، وتعالى صرحها مع مرور الزمن حتى شملت مساحةً كبيرةً من المعمورة، وألقت بظلالها الوارفة على شعوب عديدة مختلفة الاعراق واللُغات، ونَعمَ البشرُ في كنفها وتحت مظلتها الآمنة المباركة ردحاً طويلاً من الزمن، إمتد الى أكثر من عشرة قرون.

ومنَ العجيب أن هذه العملية الحضارية الالهية العملاقة إنطلقت في أولى بداياتها، ونبتت، في أرض قاحلة هامدة، وفي بيئة جماعةٍ متشرذمةٍ أميةٍ متخلفةٍ في غاية التخلف، فكان الامر كما قال القرآن:

«وَتَرى الأرْضَ هامِدَةً فَإذا أنْزَلْنا عليها الماءَ اهتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيج».(١)

وهذا هو ما حيّر الدارسين لظاهرة هذه الحضارة ودوخ المهتمين بشؤونها، فنجدهم يتساءلون: مندهشين منبهرين: كيف إستطاع الرسولُ محمد -صلى الله عليه وآله- أن يبني من العرب الذين كانوا

يفتقرون الى أبسط مفردات الحضارة، أمةً متحضرةً رائدةً، وقائدةً.

كيف وبماذا إستطاع أن يصوغ تلك الامة الناهضة من جماعة تفقدُ، وببساطة، كل مقومات المجتمع المؤهل للقيادة الحضارية إذ لا شخصية ولا حقوق ولا إهتمامات علمية، ولا توجهات حضارية ولا إحساس بالمسؤولية، ولا طموح الى التنافس.(٢)

وبالتالي كيف تمكن القرآن الذي واجه في بدء نزوله موقفاً سلبياً حاداً ومتشدداً من المجتمع العربي الغارق في الجاهلية، والوثنية من تحقيق تلك الانطلاقة الحضارية العملاقة في أحضان ذلك المجتمع بالذات.

إن الحالة العربية المتردية حقيقة إعترف بها حتى أولئك الذين يحاولون التنكر للاسلام، وإلغاء دوره كدينٍ سماوي في لم شعث العرب، ومفجرٍ للطاقات الكامنة فيهم، وإعادة الشخصية الانسانية اليهم.(٣)

إن تغيير هذه الحالة المتردية لم يكن ولم يتحقق إلا بفعل الدين الاسلامي، وهداية القرآن الكريم، وجهود الرسول العظيم، بكل تأكيد.

فما هو -ياترى- النهج الذي سلكه القرآن الكريم لاحداث هذا التغيير العميق العظيم؟ وما هي العناصر والعوامل التي تضمنها القرآن الكريم وكانت وراء قيام هذه الحضارة العظمى في تلك التربة القاحلة، وتلك البيئة العارية من مقومات الحضارة، بل والمعادية للحضارة.

وكيف يمكن إعطاء دفعة جديدة وقوية لهذه العملية التي توقفت عن الحركة والتقدم منذ قرنين أو ثلاثة نتيجة العراقيل والمعوقات، والموانع والمثبطات؟؟.

وكيف يمكن الاستفادة من كتاب هذه الحضارة «القرآن الكريم» لإعادة النهضة الحضارية الى الامة الاسلامية، وما هي -على وجه التحديد- المفاتيح التي إستعملها القرآن الكريم لفتح أغلاق الفكر والنفس عند هذه الامة في الظروف الحاضرة التي تكالبت فيها قوى الكفر والشرك ودوائر الاستعمار والاستغلال عليها وتداعت اليها تداعي الاكلة على القصعة(٤)؟ وتعاضدت على إبقاء الامة الاسلامية في حالة التخلف والتأخر.

القرآن وعواملُ الإنطلاقِ الحضاري:

تتلخصُ عواملُ الانطلاق الحضاري في القران والتي كانت وراء نشوء هذه الظاهرة

في البيئة العربية الجاهلية ثم البيئة العالمية، وإستمرار تدفقها وإندفاعها بكل قوة طوال أربعة عشر قرناً، رغم التحولات والتغيرات.

أقول تتلخص هذه العوامل في النقاط التالية:

١- فَك العقل مِن أسارهِ:

فقد أخرج القرآن العقل العربي، فالعالمي من سجنهما بالدعوة القوية الى التفكير الذاتي المبرمج، المنتج، ونبذ التقليد الاعمى لعادات وتقاليد الآباء والاسلاف الجاهليين، وطريقة تفكيرهم، وحياتهم، وأخيراً التأكيد وراء التأكيد على التأمل والتدبر والنظر في الكون والحياة والتأريخ وكلِّ شئ.

ويدل على هذا كل الآيات الداعية الى النظر والتفكير المصدَّرة أو المذيَّلة بقوله: «أفلا تتفكَّرون. لعلكم تتفكرونَ. ثم تتفكَّروا، أوَلَم يتفكروا، لعلهم يتفكرونَ لِقوم يتفكَّرونَ»(٥) و«أفلا تَعقلون. ولِقَومٍ يعقلونَ وما شابه ذلك»(٦) و«لأولي الالباب»(٧) و«نظر، وأنظر وتنظر وتنظرون وينظر وأفلم ينظروا وينظرون وانظروا»(٨) ويرون ونظائرها.(٩)

هذا مضافاً الى آيات الدعوة الى تحصيل العلم وأشكالٍ مختلفةٍ من حثٍ مباشرٍ على هذا الامر أو إمتداح العلماء، والعلم وما شابه ذلك وشاكلَ.(١٠)

وبالجملة فقد وَرَدَتِ الالفاظ الدالة على أهمية العقل والتعقل، والداعية الي الفكر والتفكر أكثر من ٥٠٠مرة.

هذا مضافاً الى الآيات التي دعت الى نبذ التقليد الاعمى والسير من دون وعي وراء الآباء والاسلاف بدافع التعصب والانشداد القبلي، والارتباط العشائري.(١١)

وقد فعلت هذه الآياتُ القوية في إيقاعها، الصاعقة في ندائها، فعلتها، فأطلقت عقول ذلك المجتمع الراكد العقل والجامد التفكير، من عقالها وحررتها من قيودها وحركتها بقوةٍ في الاتجاه الصحيح، ونفض ذلك المجتمع غبارَ التقليد الاعمى عن نفسه وروحه وعقله، وكسر قيود التبعية الفكرية العمياء للاسلاف فكان كما قال القرآنُ الكريم:

«وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأَغْلالَ التي كانَتْ عَلَيْهِمْ».(١٢)

لقد أحيا الكتابُ العزيز من خلال حثه الأكيد على التفكير والتعقل، وتشغيل ماكنة العقل، روح التحقيق، والدراسة في النفوس. ودفعها الى ميادين البحث العلمي في مختلف المجالات.

إن للقوة العاقلة ونمط وكيفية ومدى إستخدامها، وتشغيلها أثراً كبيراً ودوراً جوهرياً في نهضة الشعوب والامم. فكان لابد أن يسبق تحريرها من عقالها أية خطوة أخرى. وقد فعل القرآن هذا، فاحدث تغييراً عميقاً وجوهرياً في العقلية العربية، والعالمية ووقع على أثره كل ما وقع من التغيير في شتى مناحي الحياة.

ولابد أن يحدث مثل هذا في عقلية من ينتمون الى الاسلام اليوم، ليتحقق ما يصبو اليه المصلحون المخلصون من تغييرات في حقول الحياة الاسلامية، الراهنة، الحاضرة، فهمُ الحياة يجب أن يسبق بالضرورة ممارسة الحياة.

وهذا يستدعي إيقاظ وتشغيل وتحريك القوة العاقلة، لتدرك الامور إدراكاً صحيحاً وتزنها بالميزان الصحيح.(١٣)

على أن هذا البحث بالذات بحاجة الى مجال أوسع تسلط فيه الاضواء على جوانب المسألة برمتها، وتناقش بعناية لائقة بها.

٢- جعل الكون برمته، والطبيعة كلها مسرحاً للنظر والتأمل، والدراسة والتحقيق، بل ومجالاً للاستفادة والانتفاع، وأشار في هذا السياق الي نواميس كثيرة، ودقائق عديدة في هذا العالم وبذلك فتح أمام عيون البشرية وذهنها أفقاً واسعاً بل وآفاقاً واسعة، أوجدت فيهم همةً عاليةً، ورؤية كونية عميقة وواسعة.

فبعد أن كان العربي قد حصر نفسه بين جدران الخمرة والشهوة، والخيل والابل، ولم تتجاوز همته هذا النطاق الضيق كما توحي بذلك أدبياته، المدونة المحفوظة.(١٤)

وبعد أن كانت نشاطات العرب تنحصر في الفروسية والاغارة والتبجح بها، وكانت إهتماماته الفكرية تدور في فلك الخرافات والاساطير. وكان هذا بنفسه شأن ووضع غير العرب، بدرجات متفاوتة طبعاً

واذا بالمجتمع العربي بعد تلك الهداية القرآنية إلتفت الى ما حوله من العوالم، وحقق فيها، وسجل ملاحظاته عنها ورتبها وصنفها، وألف فيها، وإستفاد من نواميسها في تحسين حياته المادية، وبذلك إنطلقت حركة العلوم الطبيعية التي أبدع فيها المسلمون وبرعوا، وخرجوا على البشرية بخير المؤلفات والدراسات فيها.(١٥)

والآيات التي تضمنت هذه الرسالة وحثت على النظر في الكون كله هي كل الآيات التي تتصدر بقوله: «وانظر»، أو «وسخّر لكم ما في السموات والارض»،

وتدعو الى النظر الى كل شئ في الكون، حتى البعوضة، والذرة فضلاً عن عالم الحيوان والنبات والجبال والبحار، وآفاق السماء وعوالم النجوم، وتصرح بالتالي بأن كل ذلك قد هُيِّئ لخدمة البشر، ومصلحته.(١٦)

٣- دعى القرآن الناس الى الانفتاح العلمي الحذر على جميع الحضارات السابقة والمعاصرة مع التحفُّظ «كما أسلفنا قريباً» على الاصول الاخلاقية الثابتة، والمبادئ المعنوية والاعتقادية الاسلامية المبرهنة، وذلك من خلال ذكر نماذج عديدة من تجارب الامم السابقة مثل ما صنعه الانبياء السابقون مثل ذي القرنين ويوسف وداود، وسليمان ولقمان والاقوام الماضين في مجال العسكرية والعمران والزراعة والاقتصاد والصناعة وقضايا التربية والادارة، مكتفياً في كل ذلك بذكر الاصول، أو إعطاء النماذج البارزة تاركاً مسألة التطوير، في الاشكال والهيئات الى الحاجات المتجددة، والى متطلباتِ الزمن، ومقتضيات العصر المتغيرة.

قال تعالى: «وَعلَّمناه صَنْعَةَ لَبوس لكم لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بأسِكم فَهَلْ أنتم شاكِرُونَ».(١٧)

وقال: «ولَقد آتينا داودَ منّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوّبي مَعَه والطَيرَ وألَنّا له الحَديدَ*أن اعمل سابِغاتٍ وقدّر في السَرْد...».(١٨)

وقال عن سليمان: «وَأَسَلْنا لَهُ عَينَ القِطْرِ ومِنَ الجنّ مَن يَعمَلُ بينَ يَدَيه بإذنِ ربه ومَن يزِغ مِنهم عَن أمرِنا نُذِقْهُ مِن عذابِ السَعير*يَعمَلون له ما يَشاءُ مِن مَحارِيبَ وتَماثِيلَ وَجِفانٍ كالجَواب وَقُدُورٍ راسِيات إعمَلوا آلَ داودَ شُكراً».(١٩)

وقال سبحانه عن ذي القرنين: «قالَ ما مَكّني فيهِ رَبّي خَيرٌ فأعِينُوني بِقوةٍ أجعَل بَينَكم وبَينهم رَدْماً*آتوني زُبرَ الحديد حتى اذا ساوى بَينَ الصدَفَين قالَ انفُخُوا حَتى اذا جَعَلَه ناراً قالَ آتُوني أفرِغْ عَليه قِطراً*فما اسْطاعُوا أن يظهرُوه وما استطاعوا لَهُ نَقْباً».(٢٠)

وقال عن قوم عاد في سياق ذكر مآل أمرهم: «ألَم تَرَ كَيفَ فَعلَ رَبُّكَ بِعادٍ*إرَمَ ذاتِ العِمادِ*التي لَم يُخْلَق مِثلُها في البِلادِ*وثَمودَ الذِي جابُوا الصخرَ بالواد...».(٢١)

وقال عن أصحاب الحجر: «وكانوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجبالِ بُيُوتاً آمنين».(٢٢)

وقال عن يوسف -عليه السلام: «قال

إجعلْني علَى خَزائنِ الأرْضِ إنـي حَفِيظٌ عَليمٌ».(٢٣)

وقال عنه أيضاً في سياق كيفية المحافظة على القمح لمدة طويلة وكيفية إدارة الاقتصاد في أعوام القحط والمجاعة: «قال تَزرَعُونَ سَبعَ سنينَ دَأَباً فما حَصَدتُم فَذَرُوهُ في سُنْبُلِه إلا قَليلاً مما تَأكُلُون* ثم يأتي مِن بَعدِ ذلكَ سَبعٌ شدادٌ يَأكُلن ما قَدَمتُم لَهنّ إلاّ قَليلاً مما تُحصِنُونَ* ثم يأتي مِن بَعدِ ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناسُ وفيه يَعْصرونَ».(٢٤)

والى هذه الخصوصية فطن الفيلسوف الانكليزي المعروف برناردشو وأشار بقوله: لقد كان دينُ محمد موضع تقدير سام لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة، وأنه الدين الوحيدُ الذي له ملكة الهضم لاطوار الحياة المختلفة.(٢٥)

٣- أفاضَ القرآن الكريم قدسية خاصة على أية حركة علمية، وأي جُهد يصب في نهر الحضارة الاسلامية ويغنيها ويثريها، وإن كان جهداً مادياً... واعتبره أمراً مقرباً الى الله، بل واعتبر الدنيا سبيلاً لنيل الآخرة واكتسابها إذ قال:

«وَابْتَغِ فيما آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُنيا».(٢٦)

وبهذا أعطى دفعةً ذاتية للهمم جعلت العلماء يصرفون كل ساعات حياتهم في البحث والتنقيب والتحقيق والتدقيق وحتى أنه نُقل عن أبي ريحان البيروني أنه لما كان مشرفاً على الموت ويمرّ بحالة مرضية صعبة، دخل عليه أحد العلماء فقال له أبو ريحان وهو في تلك الحالة الصعبة: أتذكرُ يا صاحبي أنك وعدتني أن تعلمني مسألةً علميةً، فأرجو أن تعلمنيها.

ولما قال له العالم: وأنت على هذه الحال؟

أجاب أبو ريحان قائلاً: إني لاستحيي أن ألقى ربي وقد كنتُ أستطيع أن أتعلم مسألةً ولم أتعلمها.

يقول ذلك العالم: فعلمتُهُ المسألة، وخرجتُ فَسَمعتُ الصراخَ عليه «أي قد مات» وأنا في الطريق.(٢٧)

إن هذه الديناميكية التي تحلت بها نفوس المسلمين الاوائل في تحصيل العلم لم تكن إلا نتيجة تلك القدسية التي اكتسبها الجهدُ العلمي في منظور القرآن ومنطقه. وفي ظل هذه القدسية بالذات تكاملت العلوم في التاريخ الاسلامي، وبلغت مرحلة أثارت إعجاب ودهشة علماء عصرنا الحاضر.

يقول «شريستي» في حديثه عن الفن

الاسلامي: «ظلت أوربا نحو ألف سنة تنظر الى الفن الاسلامي كأنه أعجوبةٌ من الاعاجيب».

ويقول «دوزي» المستشرق الهولندي: «إن في كل الاندلس لم يكن يوجد رجلٌ أمي بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفةً أوليةً إلا الطبقة العليا من القسس.

ويقول «لين بول» في كتابه «الاندلس وأسبانيا»: «فكانت الامية تزخر بالجهل والحرمان بينما كانت الاندلس تحمل إمامة العلم وراية الثقافة».

ويقول «بريفولت» في كتابه «تكوين الانسانية»: «العلم هو أعظم ما قدمت الحضارة العربية الى العالم الحديث، ومع أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحي النمو الاوربي إلا ويلحظ فيها أثر الثقافة الاسلامية النافذ، إلا أن أعظم أثره وأخطره هو ذلك الذي أوجد القوة التي تؤلف العامل البارز الدائم في العالم الحديث والمصدر الاعلى لانتصاره أعني العلم الطبيعي والروح العلمية وهذه الحقائق مؤداها أن الاسلام دين بناء حضاري.

ويقول «هـ ر. جب» في كتابه الاتجاهات الحديثة في الاسلام: أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة وأنه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي الى أوربا في العصور الوسطى.

ويقول فيكتور روبنصن: «...وكان أشراف أوربا لا يستطيعون توقيع أسمائهم بينما كان أطفال المسلمين في قرطبة يذهبون الى المدارس، وكان رهبان أوربا يلحنون في تلاوة سفر الكنية بينما كان معلمو قرطبة قد أسسوا مكتبة تضارع في ضخامتها مكتبة الاسكندرية العظيمة...».(٢٨)

٥- أعطى القرآن الحريات المعقولة والاختيارات الواسعة للمسلمين ليعطوا وينتجوا ويؤسسوا ويبنوا ويقدموا المزيد والمزيد، ويتحركوا في كل إتجاه من دون عراقيل وعقبات، ومن دون سدود وقيود، ويذهبوا الى حيث يشاؤون، ويفعلوا كل ما يريدون، شريطة رعاية الاخلاق والمبادئ الالهية. فلا إيذاء ولا إضرار ولا إجحاف ولا قهر.

قال الله تعالى: «هو الذي جعل لكم الارض ذلولاً فامشوا في مَناكِبِها وكُلوا

من رزقه».(٢٩)

وقال: «فسيحوا في الأرض».(٣٠)

الى غير ذلك من مطلقات الآيات والنصوص القرآنية تدعو الى الاستفادة من الطبيعة إلا ما حرم الله.

وقد فجرت هذه الحريات مواهب الافراد التي كانت قبل ذلك مكبلة وممنوعة ومحبوسة، وأوجدت فيهم إنطلاقة كبرى أغنت الحضارة الاسلامية كثيراً.

بينما لا يُثمر الكبت والخنق، وإيجاد السدود والقيود، وتضييق الخناق، وفرض الحصار على الافراد إلا ضمور القابليات، وإنحباس الطاقات، وموت المواهب، وضياع الاستعدادات. وإختفاء الابتكارات.

قال تعالى: «فَاستَجابَ لَهُمْ رَبُّهمْ أَنّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنثى».(٣١)

بهذا التكريم والتقييم لكل عمل، والحرية الممنوحة لكل فرد يمكن إيجاد نهضة علمية شاملة، يدأب فيها الصغير والكبير والشريف والوضيع، والرجل والمرأة، وبغيره لا يكون إلا الركود والجمود.

٦- لقد جعل القرآن الكريم الهدف من أي عمل هو التقرب الى الله... وحيث أن لهذا القرب مراتب أعلى فأعلى، لذلك فإن من شأنه أن يجذب الانسان ويدفعه لتقديم المزيد من الانتاج، وأن لا يتوقف، ما دام الوصول الى ذلك الهدف الاسمى ذا درجات متفاضلة بعضها أعلى من بعض الى ما لا نهاية.

ومثل هذا يختلف عما اذا كان الهدف أمراً مادياً قريباً، سهل المنال، يمكن الوصول اليه بسرعة، وبأقل جهد مثل أن يكون الهدف هو إعادة بناء مدينة، أو ما شاكل ذلك وشابه من الاهداف الدانية القريبة.

والى هذا أشارَ قوله تعالى: «وأنَّ الى رَبّكَ المُنتهى».(٣٢)

وقوله: «ألا إلى اللّهِ تَصِيرُ الأمورُ».(٣٣)

لقد جعل القرآن الكريم «رضوان الله» والمزيد منه هو العوض الحقيقي لأي عمل، فأوجد بذلك حماساً باطنياً مستمراً متقداً في النفوس التي تشرئبُّ الى ذلك الرضوان، وتتطلع الى إكتسابه، وإبتغائه مما أعطى دفعةً قويةً للحركة الحضارية والعلمية، وجعل العلماء وغير العلماء يعملون ليل نهار ومن دون إحساس بالتعب أو شعور بالملل والكلل، ولنيل رضوان الله، والمزيد منه، ولهذا لم تعرف الحركة الحضارية الاسلامية الصاعدة التوقف

والركود إلا عندما إنفصلت عن هذه الخصيصة.

٧- لقد عرف القرآن الكريم الانسان بنفسه، وأوقفه على المواهب الالهية فيه، ونبهه الى أنه كنزٌ عظيم متفجر من القوى، والقابليات، وأنه يمكن لو عرفها واكتشفها، أن ينهض بنفسه ويصل الى أعلى القمم.

قال تعالى: «وفي أنفسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ».(٣٤)

وقال: «لَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ في أحْسَنِ تَقْوِيمٍ».(٣٥)

وقال: «وأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ».(٣٦)

ودعم الحديث هذه الرؤية القرآنية وفصلها إذ قال رسول الله -صلى الله عليه وآله: «النَّاسُ مَعادِنٌ كمعادِنِ الذَّهبِ والفِضَّة».

وقال الامام علي -عليه السلام:

أتَزْعَمُ أنَّكَ جُرمٌ صَغيرٌ
وَفيكَ انطَوى العالَمُ الاكبَرُ

وبهذا زرع القرآن روح الثقة في نفوس المسلمين بعد أن أطلعهم على ما يمتلكونه من أرصدة كبيرة في نفوسهم وذواتهم.

٨- ألقى القرآن الكريم على عاتق الانسان مسؤولية تعمير الارض بالمعنى الصحيح، واعتبره خليفة الله في تجسيد علمه وقدرته، وحكمته وتدبيره على الارض:

إذ قال: «إنّا جَعَلْناكَ خَلِيْفَةً».(٣٧)

وقال: «إنّي جاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيْفَةً».(٣٨)

وقال: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُم خَلائِفَ الأَرضِ».(٣٩)

وجاء في الحديث ليفصل هذه المسؤولية ويبين حدودها الواسعة، إذ قال الامام علي -عليه السلام- «إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم».(٤٠)

ولم ينسَ القرآن أن ينبه على قيمة الزمن وأهمية الوقت حيث أشار الى مختلف مقاطع الوقت من الليل والنهار: من الصبح، والضحى والعصر، بل والساعة.

وبهذا أحس المسلم أنه مسؤول بجد تجاه الكون والزمن، وأنه محاسب عليه أمام الله سبحانه.

«إنَّ إلينا إيابَهُمْ ثُمَّ إنَّ عَلَينا حِسابَهُمْ».(٤١)

٩- لقد أسهم القرآن الكريم جميع الاجناس والاعراق البشرية وجميع القوميات في صنع العملية الحضارية الكبرى، من دون المساس بما يكون معقولاً وغير مضر أو محرم من تقاليدهم وعاداتهم في الملبس

والسكن والمأكل والمشرب وفي الآداب الاجتماعية.

فالاسلام بفضل التعاليم القرآنية بوتقةً إنصهرت فيه جميع الشعوب والقوميات والحضارات وأسهمت في بناء حضارته الخالدة العملاقة كل الجهود والعقليات، فجاءت غنيةً قوية عظيمة كشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وفي هذا السياق نذكر نموذجاً من الآيات التي تفتح الباب في وجه جميع الشعوب والاجناس على إختلاف ألوانها ولغاتها وأنماط حياتها، وتنوع آدابها وتقاليدها.

«وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا» أي لتتعاونوا.

١٠- ولكي تكون حلقات هذه الحضارة -على مر الزمن- متصلة في سلسلة واحدة من دون إنفصام وإنفصال أعطى القرآن تعاليم خاصة تضمن سيادة الروح الواحدة على حركة المسلمين، بحيث كان المسلم -عالماً كان أو حاكماً مخترعاً أو محترفاً، صانعاً أو مزارعاً- يحس في قرارة نفسه، وفي صقع وجدانه بأنه مرتبط بالماضي والمستقبل معاً، فهو مكملٌ لجهود الماضيين، ومهيئٌ الارضية للاحقين، أي هو حلقة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

ولهذا إنصبت جميع الجهود في مصب واحد، فأغنت الحضارة الاسلامية أيما إغناء، وأثرتها أيما إثراء.

وتتجلى هذه التعاليم في آيات عديدة منها قوله سبحانه:

«رَبَّنا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإيمانِ».(٣٣)

كما تتجلى من الآيات التي تُلفت نظر المسلم الى الأبناء والاحفاد وتوجد لديه مسؤولية تجاه الاجيال اللاحقة إذ يقول تعالى:

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ».(٣٤)

ولهذا كان العالم المسلم لا يستنكف عن إكمال أعمال من سبقوه بشرحها والتعليق عليها وإتمام ما بقي منها إغناء للتجربة العلمية.

كما كان يرجو ممن يلحقه في المستقبل أن ينتفع بما كتبه وأن يرفع ما فيه من نواقص، ويزيده نضجاً وكمالاً.

بهذه التعاليم الحيوية فجر القرآن الكريم حضارة عملاقة دوخت العالم في

حينها، وأشغلت الشرق والغرب ودان لها الجميع بالفضل، واعترفوا لها بالريادة والسيادة.

وبهذه التعاليم ذاتها لابد أن نعيد الى الحضارة الاسلامية الراكدة الآن، تدفقها وتحركها، ونحقق النهضة الاسلامية المنشودة.

أدوات صيانة هذه الحضارة من الآفات:

ثم إن الحضارة شأنها شأن أية ظاهرة من الظواهر الحياتية حيث تكون عرضة للآفات، مثل الانحراف والجمود والعقم «أي توقف عملية الابتكار والابداع المستمر» والموت، كان لابد للقرآن الكريم الذي أسس حضارةً أن يتضمن تعليمات خاصة لصيانتها من الوقوع في ورطة الانحراف، مثل وقوع هذه الحضارة في خدمة زمرة معينة، أو إنحرافها عن المقصد الالهي، والصبغة المعنوية الي المقصد المادي الدنيوي المحض، أو خضوعها للمشيئة الفردية.

وقد فعل القرآن الكريم ذلك إذ أرسى في آيات عديدةٍ وتعاليم مؤكدة دعائمَ:

١- الايمان والتقوى والخوف من الله ومن سخطه.

٢- القيادة الالهية الرشيدة المتمثلة في القيادة النبوية، وقيادة المنصوص عليهم من الائمة الهداة.

٣- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين يجسدان مبدأ النظارة العامة.

٤- مكافحة الظالمين والجائرين والمستغلين لجهود الشعوب والعلماء.

٥- مكافحة الاستبداد، والنزعة الفردية، والمادية.

٦- المحافظة على المعطيات الحضارية بثبتها وصيانتها من الاندثار، وتسجيلها لأصحابها من دون بخس.

قال تعالى: «ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْياءَهُمْ».(٣٥)

وكل هذه الامور صرحت بها آيات من القرآن الكريم عديدة تارةً على نحو الاختصار وتارةً على نحو التفصيل، وقد أعرضنا عن إيرادها وإدراجها هنا، لكونها معروفة ولو على نحو الاجمال.

وما ذكرناه هنا في هذا المجال ربما يكون بعض الادوات التي إبتكرها القرآن الكريم لصيانة العملية الحضارية من التردي والانحراف، وتكون أموراً ووسائل فاعلة ومؤثرة أُخرى في هذا الصعيد لم نقف عليها.(٣٦)

مميزاتُ الحَضارةِ القرآنية:

يبقى أن نعرف أنّ الحضارة التي أوجدها ويوجدها القرآن الكريم تتميز عن الحضارات البشرية وبخاصة الحضارة الحديثة بخصوصيات أبرزها:

١- أنها حضارة الحياة الواقعية، فهي تتعامل مع الحقائق وبشمولية أي من دون أي توجه لبعضها، وتتجاهل للبعض الآخر بينما تقوم الحضارات البشرية وبالذات الحضارة الغربية على أساس من السراب والخيال، ولو في جانب من الحياة على الاقل.

وقد صرح القرآن بهذه الخصوصية فيما يتوخى إقامته إذ قال:

«يا أيُّها الَذينَ آمَنُوا أستَجِيبُوا للّه وللِرّسُولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ».(٤٧)

بينما وصف حياة الآخرين بأنها سرابٌ: «كَسَرابٍ بِقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن ماءً».(٤٨)

٢- أن الحضارة القرآنية تتسم بالنورانية والوضوح فكل شئ في هذه الحضارة واضح لا إبهام فيه، ومضيئ لا ظلمة فيه قال تعالى: «يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ الى النُّورِ».(٤٩)

وقال واصفاً حياة الآخرين بأنها ظلمات تعاني من الغموض في الحال والمستقبل: «أَوْ كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجي يَغْشيه مَوْجٌ مِنْ فَوقِه مَوْجٌ».(٥٠)

٣- إن الحضارة القرآنية حياةٌ طيبةٌ لا خبث فيها ولا قذارة، ولا شقاء، ولا عناء. قال تعالى عن ذلك: «مَنْ عَمِلَ صالحاً مِن ذَكَرٍ او أنثى فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً»(٥١) بينما يصف الحياة الخارجة عن إطار القرآن قائلاً: «بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الّذينَ كَذَّبُوا بآيات اللّه»(٥٢) وقال: «وَالّذِيْنَ كَفَرُوا فَتَعساً لَهُمْ».(٥٣)

٤- إن الحياة في ظل الحضارة القرآنية تتسم بالسعة والرخاء، وكمال النعمة: «وأَتْمَمتُ عَلَيْكُمْ نِعمتي وَرَضِيتُ لَكُم الإسلامَ ديناً»(٥٤) وقال: «فَأَمّا مَنْ أعْطى وَاتقى»«فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرى».(٥٥)

بينما وصف الحياة في ظل الحضارة غير القرآنية قائلاً: «وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيْشَةً ضَنْكاً».(٥٦)

٥- إن حياة البشر في ظل الحضارة القرآنية حياة البصيرة المفتوحة والوعي الكامل للامور، قال سبحانه: «قُلْ هذه سَبيلي أدْعُوا الى اللّه عَلى بَصِيرَةٍ أنا وَمَنْ اتَّبَعَني»(٥٧) وقال: «قُل هَل يَستَوِي الأَعْمى وَالبَصيرُ».(٥٨)

بينما وصف حياة البشر في ظل الحضارات البشرية المادية بقوله: «وَمَنْ كانَ في هذهِ أعمى فَهُوَ في الآخِرَةِ أعمى وَأضَلُّ سَبيلاً».(٥٩)

٦- الحياة في ظل الحضارة القرآنية حياة لائقة بالانسان ومناسبة لكرامته. قال سبحانه: «وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ...».(٦٠)

بينما يصف الحياة في ظل الحضارات البشرية المادية بأنها حياة حيوانية بهيمية لائقة بالانعام قال سبحانه: «إنْ هُمْ إلاّ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً».(٦١)

وقال: «والَّذِيْنَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأكُلُونَ كَما تَأكُلُ الأَنْعامُ».(٦٢)

٧- إن الحياة في ظل الحضارة القرآنية حياة الرشد والنمو السليم... قال سبحانه: «قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ...»(٦٣) وقال: «فَمَنْ أسلَمَ فَأولئكَ تَحرَّوا رَشَداً».(٦٤)

أما الحياة في ظل الحضارات المادية والبشرية فهي تعاني من الضياع والخيبة والاحباط والاخفاق: «والَّذِيْنَ كَفَرُوا... وَأَضَلَّ أَعمالَهُمْ».(٦٥)

٨- إن الحياة في ظل الحضارة القرآنية تسير في الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمت قال سبحانه: «وَأَنَّ هذا صراطي مُستَقيماً فَاتَّبِعوهُ».(٦٦)

بينما يصف الحياة في الحضارات المادية البشرية بانها حياة عوجاء قال سبحانه: «الَّذِيْنَ يَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً».(٦٧)

٩- إن الحياة القائمة في ظلال الحضارة القرآنية حياة السكينة والطمأنينة: «هُوَ الَّذي أنْزَلَ السَكينَةَ في قُلُوبِ المؤمنين»(٦٨) وقال: «ألا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوب».(٦٩)

فيما وصف الحياة من النمط غير القرآني بانها حياة القلق والاضطراب: «وَمَن يُشرِكْ باللّه فَكَأنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخطَفُهُ الطَيْرُ...».(٧٠)

١٠- إن الحضارة القرآنية تتمتع بالعاقبة الحسنة، والمآل الطيب: «والعاقِبَةُ لِلمُتَّقِين».(٧١)

بينما لا تتسم الحضارات المادية والبشرية إلا العاقبة السيئة والمآل الوبيء قال سبحانه: «أَفَلَم يَسيرُوا في الأرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلكافِرِينَ أمثالُها».(٧٢)

وبالتالي فان حضارة القرآن حضارةٌ شاملة جامعة لا نواقص فيها، ولا عيوب قال سبحانه: «وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبياناً لِكلِّ شَيء».(٧٣)

بينما لا تكون الحضارة البشرية المادية إلا حضارة سطحية ناقصة: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنيا».(٧٤)

هذه إلماعات الى أبرز ما تتميز به الحضارة القرآنية على الحضارات المادية البشرية قادني اليها النظر العاجل ولكن الفاحص، أجل إلماعات الى كليات نجد مصاديقها في تشريعات القرآن، والسنة لمختلف مجالات الحياة.

وأني لأقترح أن تدرس وتناقش هذه «العوامل» و«الأدوات» و«المميزات» بدقة وعناية وتوسع وتفصيل، ويُضاف اليها ما يجب إضافته تكميلاً وتتميماً. وأن تشبع بمزيد من الآيات القرآنية، مضافاً الى الاحاديث الشريفة، والاحكام الاجرائية والنماذج التاريخية. ثم تُدرس كيفية إنزالها الى الساحة العملية، بعد إيقاف جماهير الامة الاسلامية عليها بدءً من المراحل الابتدائية حتى أعلى درجات الجامعات والاكاديميات، وبثها بين مختلف شرائح الامة أملاً في أن تعود الحياة الي الحضارة الاسلامية من جديد فينعم بها المسلمون والعالم على السواء بعد أن اكتووا بنيران الحضارة المادية، واصطلوا بسعيرها المحموم.

على أننا نؤكد ونركز على كلمات الامام علي -عليه السلام- بصورة خاصة، سواء ما ورد منها في نهج البلاغة، أو ما ورد في كتاب «درر الكلم وغرر الحكم» الذي هو من تأليف وجمع العلم الجليل عبد الواحد بن محمد التميمي الآمدي «المتوفى عام ٥١٠تقريباً» فللإمام في هذا الكتاب الذي يضم أكثر من ستة آلاف كلمة ما يشكل أسس الحضارة الاسلامية ومقوماتها لو درست بعناية وطبقت في الحياة الفردية والاجتماعية، تطبيقاً دقيقاً وأميناً.

الهوامش

---

(١) الحج:٥ .

(٢) أنظر الي كلام جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه للنجاشي يوم هاجر هو وجماعة من المسلمين الاوائل الى الحبشة ولجأوا اليها فراراً بأنفسهم من أذى قريش وإضطهادها، فَسأله النجاشي عن دينهم فقال جعفر:

أيا الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الارحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيفَ؛ فكنا على ذلك، حتى بعث الله الينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا

نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام -قالت: فعدد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك، واخترناك على من سواك؛ ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. السيرة النبوية لابن هشام ١:٣٣٦ .

• وراجع أيضاً ما قاله الامام علي -عليه السلام- في خطب عديدة حول الوضع الجاهلي وما أحدثه الاسلام من تغييرات جذرية، وتحولات عميقة حضارية في ذلك الوضع.

(٣) كتب الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني يقول: «نظرت في التاريخ فوجدت أن عروبة عمر بن الخطاب أثبت ألف مرة من عروبة دعاة القومية العربية الأدعياء في هذا العصر، ومع ذلك فإن عمر بن الخطاب يقول: «نحن قومٌ أعزنا الله بالاسلام فمهما ابتغينا العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»، وقد أقر عمر بن الخطاب على مقالته هذه سائر العرب الاقحاح في عصره وبعد عصره». (أجنحة المكر الثلاثة:٢٨١).

(٤) جاء في الحديث النبوي أنه -صلى الله عليه وآله- قال مخبراً عن الحالة الحاضرة: «يُوشك أن تداعى عَليكُم الأممُ من كل أُفق كما تداعى الأكلة على قصعتها» قال ثوبان قُلنا: يا رسول اللّه أمِن قِلة بنا يومئذٍ؟ قال: «أنتُم يَومئذٍ كثيرٌ ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل الوَهنُ في قلوبكم» قال ثوبان قلنا: وما الوهن قال: حُبُّ الحياة وكراهية الموت».(مسند أحمد ٥:٢٧٨).

(٥) وردت مادة «فكر» في صيغتها المختلفة في القرآن الكريم ١٨مرة.

(٦) وردت مادة «عقل» في صيغتها المختلفة في القرآن الكريم ٥٩مرة.

(٧) وردت مادة «لب» في صيغتها المختلفة في القرآن الكريم ١٦مرة.

(٨) وردت مادة «نظر» في صيغتها المختلفة في القرآن الكريم ما يقرب من ٨٠مرة.

(٩) وردت مادة «رأى» في صيغتها المختلفة في القرآن الكريم ما يقرب من ١٠٠مرة بعضها يرتبط بالمقام وبعضها لا يرتبط

(١٠) وردت لفظة «علم» في صيغتها المختلفة في القرآن الكريم أكثر من مائتي مرة بعضها يرتبط بالمقام

وبعضها لا يرتبط إلا أنه على كل حال يكشف عن إهتمام الاسلام بالعلم. ويسلط الضوء على صبغة هذا الدين العلمية.

(١١) وردت هذه المسألة في أكثر من ١٢موضعاً من الكتاب العزيز منها: «١٤٨/٦ و٧/٧٠و١٧٢ و٦٢/١١و٨٧ و١٤/ ١٠ و٣٥/١٦ و٢/١٧٠».

(١٢) الأعراف:١٥٧ .

(١٣) وتجدر الإشارة هنا الى أن الرسول الكرم -صلى الله عليه وآله- أعطى في أحاديثه الشريفة النصيب الأوفر من الاهتمام بهذا الجانب، ونفس ذلك فَعَلَهُ أئمة أهل البيت -عليه السلام- حيث أولوا العقل إهتماماً كبيراً جداً، وكشفوا عن دوره ومنافعه، كما كشفوا عن أخطار الجهل، ومضاره. (راجع: أصول الكافي، الباب الاول والثاني في العلم والعقل والجهل، ونهج البلاغة).

(١٤) راجع: «بلوغ الادب في معرفة أحوال العرب» للسيد محمود الآلوسي البغدادي.

(١٥) راجع: آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب، وابن سينا وأثر طبه في العالم وإسبانيا، وإدخال العلوم العربية في أوربا، وشمس العرب تسطع على الغرب، وأسرار الكيمياء، والإمام الصادق -عليه السلام- مُلهِم الكيمياء، والحسن بن هيثم بحوثه وكشوفه البصرية، والخوارزمي العالم الفلكي الرياضي، وفلاسفة الشيعة، والرياضيون المسلمون، والقاموس الفلكي والابراج وصور النجوم وكوكباتها وأسماؤها العربية، والكيمياء عن العرب، وتراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، وتقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربة، ورسالة جعفر الصادق في علم الصناعة والحجر الكريم، وجهود المسلمين في الجغرافية، وعلم النبات عند العرب، ومذاهب الذرة عند المسلمين، وغير ذلك مما لا يحصى من المؤلفات التي كتبها مسلمون وغير مسلمين من الشرقيين والغربيين باللغات المختلفة حول نشاطات المسلمين الفكرية ونتاجاتهم العلمية في شتى حقول الطبيعة.

والجدير بالذكر أن كل هذه المؤلفات تتحدث في الحقيقة عن إنجازات المسلمين، بفضل الإسلام، ولكن لامر ما أُستُبدلت كلمة المسلمين بلفظة «العرب»، بدليل أن الكثير من مفجري هذه العلوم، والعاملين على توسعتها هم من المسلمين غير العرب، وبخاصة الفرس الذين امتدحهم رسول الله -صلى الله عليه وآله- إذ قال: لو كان الدين عند الثريا لناله رجل «أو قال أبناء» من فارس كما في صحيح مسلم ومسند أحمد، أو قال: لو كان العلم بالثريا لتناوله ناس من أبناء فارس كما في مسند أحمد ج٢: ٤٢٠و٤٢٢و٤٦٩ .

(١٧) الانبياء:٨٠ .

(١٨) سبأ:١٠و١١ .

(١٩) سبأ:١٢و١٣ .

(٢٠) الكهف:٩٥-٩٧ .

(٢١) الفجر:٦-٩ .

(٢٢) الحجر:٨٢ .

(٢٣) يوسف:٥٥ .

(٢٤) يوسف:٤٧-٤٩ .

(٢٥) تربية الأولاد ١:٢٦١ لعبد الله ناصح علوان.

(٢٦) القصص:٧١ .

(٢٧) روضات الجنات:٢٦٧، والكنى والألقاب ١:٧٥ وكتب الأستاذ قدري حافظ طوقان عن البيروني أنه كان ذا مواهب جديرة، فقد كان يحسن عدة لغات كالسريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية والعربية، وكان أيضاً في أثناء إقامته في الهند يعلم الفلسفة اليونانية، ويتعلم هو بدوره الهندية. راجع: «تراث العرب العلمي:٢٧٧».

(٢٨) راجع: تربية الأولاد ١:٢٥٨-٢٥٩ .

(٢٩) الملك:١٥ .

(٣٠) التوبة:٢ .

(٣١) آل عمران:١٩٥ .

(٣٢) النجم:٤٢ .

(٣٣) الشورى:٥٣ .

(٣٤) الذاريات:٢١ .

(٣٥) التين:٤ .

(٣٦) السجدة:٢٧ .

(٣٧) ص:٢٦ .

(٣٨) البقرة:٣٠ .

(٣٩) الأنعام:١٦٥ .

(٤٠) نهج البلاغة الخطبة:١٦٧ .

(٤١) الغاشية:٢٦ .

(٤٢) الحجرات:١٣ .

(٤٣) الحشر:١٠ .

(٤٤) الطور:٢١ .

(٤٥) الأعراف:٨٥ .

(٤٦) وقد أشار بعض المفكرين الاسلاميين الى أسباب سقوط الحضارات مثل إبن خلدون في مقدمته وبذلك سبق العصر الراهن الذي يشهد ظهور علمين جديدين باسم علم الحضارات وعلم فلسفة التاريخ.

(٤٧) الأنفال:٢٤ .

(٤٨) النور:٣٩ .

(٤٩) البقرة:٢٥٧، والمائدة:١٥، وإبراهيم:١ .

(٥٠) النور:٤٠ .

(٥١) النحل:٩٧، والحج:٢٤، والأعراف:١٥٧، والنور:٢٦ .

(٥٢) الجمعة:٥ .

(٥٣) محمد:٨ .

(٥٤) المائدة:٣ .

(٥٥) الليل:٥٠ .

(٥٦) طه:١٢٤ .

(٥٧) يوسف:١٠٨ .

(٥٨) الأنعام:٥٠ .

(٥٩) الإسراء:٧٢ .

(٦٠) الإسراء:٧٠ .

(٦١) الفرقان:٤٤ .

(٦٢) محمد:١٢ .

(٦٣) البقرة:٢٥٦ .

(٦٤) الجن:١٤ .

(٦٥) محمد:٨ .

(٦٦) الأنعام:١٥٢ .

(٦٧) الأعراف:٤٥ .

(٦٨) الفتح:٤ .

(٦٩) الرعد:٢٨ .

(٧٠) الحج:٣١ .

(٧١) الأعراف:١٢٨ .

(٧٢) محمد:١٠ .

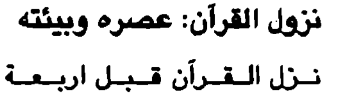
(٧٣) النحل:٨٩ .

(٧٤) الروم:٧ .

تأثير القرآن في الحركة الحضارية

الاستاذ محمد واعظ زاده الخراساني

تعريب: عبدالرحيم مبارك



نزول القرآن: عصره وبيئته

نزل القرآن قبل اربعة عشرقرناً في سنوات ٦١١-٦٣٢ الميلادية وسط أرض الجزيرة العربية القاحلة واللاهبة، المحدودة شرقاً بالخليج الفارسي وبحر عمان، وغرباً بالبحر الاحمر وخليج عدن، وشمالاً ببادية الشام، وجنوباً بالمحيط الهندي، حيث كان سكنتها عموماً من الناطقين بالعربية المنقسمين الى عدنانيين وقحطانيين.

وتركز وجود العدنانيين أو النزاريين، من نسل اسماعيل وابراهيم عليهماالسلام في الشمال والغرب، في حين سكن القحطانيون من احفاد يعرب بن قحطان الى الجنوب، وكان بين هاتين الطائفتين الكبيرتين منافسة و خصومة وحروب مستمرة.

اما في النواحي الشمالية والجنوبية، وكذا في شرق الصحراء، فقد كان للمدنيات القديمة وجود بقيت اثاره ماثلة حين نزول القرآن، و إضافة إلى ذلك، فقد تأثرت هذه النواحي بمدنيات الدول المجاورة، كإيران والروم والحبشة و مصر، وكانت بلحاظ المنابع الطبيعية أغنى وأكثر ملائمة للعيش من باقي مناطق الصحراء و خاصة الجنوبي منها.

ولهذا فقد كانت تثير دوماً طموحات وأطماع الدول المتمدنة والقوية، وغالباً ماأصبحت مستعمرة أو محمية أو مناطق نفوذ، و احياناً بشكل غير رسمي جزءاً لبعض الدول المجاورة.

وقد تناوب على حكم نواحي الجنوب، الحبشة وايران والروم، وعند ظهورالاسلام فقد كانت من ممتلكات امبراطورية ايران الكبيرة، حيث حكم فيها الحكام الايرانيون المعينون من قبل السلاطين.

وكذلك فقد كان القسم الشرقي والشمالي الشرقي (القسم الرئيسي للعراق الفعلي) جزءاً من ايران، كما كان شمال الجزيرة (سورية ولبنان والاردن) ذلك الوقت يعد جزءاً من ممتلكات امبراطورية الروم، حيث كان لنوّاب القياصرة عهدة إدارتها و حكومتها.

وكلما اقتربنا من قلب الجزيرة وسواحلها الغربية، فان آثارالمدنية والحياة تضمحل، و إذا استثنينا مكة والطائف ويثرب (المدينة الفعلية)، فلا أثر في ذلك القسم لأيّة مدينة أخرى.

ولهذا السبب، فلم تثر هذه الناحية أطماع دولتي إيران والروم القويتين النزاعتين للتوسع، ولم تصبح جزءاً لأيّ منهما.

روحية و أخلاق العرب:

عاش أهالي الصحراء، في حرية واستقلال غير محدودين، ليس بشكل دولة واحدة، ولكن بشكل مجاميع واسعة ومتفرقة، مشبعة بالعصبية والغرور، مشغولة بالخصومات والمفاخرات.

وقد كان الجدال والصراع بين هذه القبائل من السعة والانتشار بحيث أصبحت الحرب عملهم اليومي وشغلهم الشاغل، ودارت معيشتهم وتجارتهم و أسفارهم وعباداتهم على محورالحرب، ونظمت على أساسه.

وبإستثناء الأشهر الاربعة الحرم (ذي القعدة، ذي الحجة، محرم و رجب) التي منع فيها القتال طبقاً لسُنّة قديمة لإيفاء متطلبات الحياة والتجارة والعبادة، فقد كانوا في سائر اوقاتهم في حالة حرب، أو تأهب لها.

هذا الصراع الدائم كان منشأ لتحالفات جمة، وعهود مختلفة بين القبائل، و أوجب، بشكل كلي، أهمية الثبات والوفاء بالعهد، وقبح نقض العهود و خيانة المواثيق.

وكان دفاع القبائل المتحالفة والمتعاهدة عن بعضها البعض، يعد أمراً حتمياً و واجباً مسلماً لدى العرب، وهذاالامر أورث لهم قهراً خصالاً حميدة كالشجاعة والضيافة والسخاء.

وقد ربت حياة الصحراء، وعدم الانقياد لحكومة واحدة، روح التحرر و حب الاستقلال والإباء وعلوالهمّة والرفعة في النفوس، أما من ناحية اخرى فقد سببت الحرب المستمرة في إضعاف الاقتصاد الهزيل المتهالک للعرب الناشيء من أوضاعهم وتخلفهم، وشلّت بشكل خاص، تجارتهم و زراعتهم.

وقد تزايدت اعداد البؤساء، ومعلولي الحروب، والاطفال اليتامى الذين قتل آباؤهم، والأسراء بلا كافل، والعبيد المقهورين، وكان هؤلاء المظلومون المحرومون يبدون للعيان في كل مكان.

وكان أكل الربا (أضعافاً مضاعفة) رائجاً، وكراهية الزوجة والبنت، والاعمال المنافية للعفة، والفحشاء، ومبادلة الازواج، وإتخاذ صديق بين ذوات الازواج (ذوات أخدان)، والفواحش الرسمية والمشخصة (ذوات الاعلام)، والزيجات المتنوعة وغيرالعادلة، وأطفال الحرام والمرددون بين عدة آباء، والتشرد، والمقامرة والإدمان على الخمرة، شائعاً وسائراً الى الازدياد وخاصة بين اوساط الطبقة المرفهة.

مستوى المعرفة والثقافة عند العرب:

وأما مستوى المعرفة والثقافة عند العرب، فقد كانوا على خلاف الامم المجاورة، أو المسيحيين واليهود داخل الجزيرة، أميين وجهلة، غريبين عن الكتاب، والمكتبة والمدرسة والمعلم والخط

وقد ظهرت عدة معدودة في مكة ويثرب يعرفون الكتابة والقراءة (طبعاً بشكل ناقص)، حيث ساهمت مقتضيات الحياة الصحراوية وإلتماس مع الاقوام والامم الاخرى، تدريجياً وخلال قرون متوالية في نشر عدة فروع من العلوم الناقصة الممزوجة بالخرافات مثل: التنجيم، الكهانة، العرافة (التنبؤ بالغيب)، انواع التنبؤ بحالة الجوّ، القيافة، السحر والرقية، الطب وعلم الانساب، بين مجاميع العرب المتناثرة.

ولم يكن لكل الناس معرفة بهذه العلوم، أو بتعبير أصح بهذه التجارب والاوهام والمحفوظات السطحية، ولكنهم

اعتقدوا بها، وتابعوا أقوال ادعيائها.

وكانوا يذهبون من اماكنهم البعيدة ومناطقهم النائية او القريبة، إلى الافراد المعدودين المعروفين بحذقهم في احد هذه الفروع، والذين كانوا موزعين في القبائل المختلفة. وهؤلاء الافراد ورثوا معلوماتهم الواحد عن الآخر أو اكتسبوها بالتجربة، ولم تك معلوماتهم مستندة الى كتاب وقرطاس وتدريب صحيح.

على ان الفن الممتاز و في نفس الوقت العمومي للعرب هو في قريحتهم و ذوقهم الفطري المتجلي في خطبهم و كلامهم وأشعارهم وعلى حد قول الجاحظ «كل ماقالته العرب كأنه عن الهام وبديهة، وبدون أيّ تفكر وتأمل، تتدفق كالسيل عباراتهم البليغة بمعانيها الرائعة»، على ان هذه القدرة الخلاقة والموهبة، كما تشهد أشعار وادبيات عصر الجاهلية، قد صرفت في غير مواضعها، حيث استخدمت في الفخر بالنفس وتمجيد مفاخرالاجداد و معاركهم الدامية، والتغزل بالمعشوق، والهجاء، والمدح او السخرية.

و دواوين شعراء الجاهلية، بنفس القدر الذي تعتبر مظهراً لفن البلاغة و حب القتال لدى هؤلاء القوم، فهي ايضاً تعد تجلياً للانحطاط الاخلاقي والمفاسد الاجتماعية لهم.

لكن نفس هذه السابقة الادبية الممتدة، قد رفعت العربية إلى اوج الفصاحة والبلاغة، و هيأتها لتعبّر عن ارق العواطف وادق الافكار والخواطر، وضمناً فقد هيّأت هذه السابقة العقل العربي لنيل أعلى المعارف الإلهية.

والقرآن حيث يعتبر الذروة في البلاغة، يشير إلى مخاطبة قوم ذواقين يفهمون الكلام و وزنه و يدركون نكاته و دقائقه، وبهذا فقد خضعوا لتأثيرالقرآن وجاذبيته الخاصة، والا فليس في المخاطبة بالكلام الفصيح والعميق لقوم سطحيين لايفهمون معانيه و دقائقه، الا كمخاطبة الصمّ إذا ولّوا مدبرين.

ومن طيات الآيات يتضح ان القرآن نزل بلسان بسيط قابل لدرك العرب، و عبارة «بلسان عربي مبين» و مرادفاتها في القرآن، اشارة لهذه النكتة. ولاننكرطبعاً، انه بلحاظ نزول القرآن لاجيال و أعراق واستعدادات مختلفة الى يوم القيامة، فان جميع مطالبه ونكاته لايمكن ان تكون قابلة

لفهم جميع عرب عصرالنزول. وبشكل قهري فقد أخذالقرآن بنظرالاعتبار استعداد وقابلية جميع مخاطبيه على الفهم. ولكن لا يمكننا القول بأن الاكثرية التي كانت مورد مخاطبة القرآن، حين النزول، لم تفهم شيئاً من مطالبه و نكاته. فبلاغة القرآن إذن، كما قلنا، حاكية عن بلاغة العرب وتبحرهم في فنون اللغة ودقائقها. ونحن و إن وافقنا المفكر المصري الدكتور طه حسين وآخرين على تشكيكهم بصحة انتساب الشعر الجاهلي الى شعراء الجاهلية، ولكن لا يمكننا إنكار الفن الشعري والعلم باللغة والتمكن منها للعرب في تلك الادوار، بل علينا أن نعترف ان هذا الفن قد تكامل بين العرب لحدّ أمكنهم من درك سر إعجازالقرآن، وهو الشيء الذي نتيجة الاختلاط وتلاقح اللغات واللهجات، قد تعسر ادراكه و وصفه حتى للمفكرين، وادّى الى اختلافهم في بيانه.

والواقع ان اللغة العربية تتميز بكثرة المرادفات، وسعة الاشتقاقات، وكثرة ادوات الربط، ومتانة سبكها وقواعدها. وقد حافظ سكان مركز الجزيرة خصوصاً، بقلّة مخالطتهم وامتزاجهم بالامم المجاورة، على فصاحتهم وخصائص لغتهم بشكل كامل، وكلما اقتربنا، بأي نسبة، من قلب الصحراء الى الحدود، فإن لغة القوم يزداد امتزاجها بلغات اجنبية، وكلمات فارسية، رومية، حبشية ونظائر ذلک، وتبعاً لذلک فانها تفقد اصالتها.

اديان ومذاهب العرب:

على الرغم من ان ادياناً مختلفة: المسيحية، اليهودية، الزردشية، الصابئية، تقديس الطبيعة، والمزدكية قد سرت تدريجياً من الخارج الى العرب. لكن الدين السائد كان عبادة الاصنام، وفضلاً عن الاصنام التي كانت في البيوت، فقد كان هناک ثلاثمائة و ستون صنماً، كل منها لقبيلة معينة، موجودة في الكعبة، ومن جملتها الصنم الكبير هبل المعبود المشترک لجميع العرب، وبهذا اللحاظ فقد كانت الكعبة معبداً و مورد احترام لجميع العرب.

لقد كان جميع العرب، وخاصة العدنانيين منهم، يكنّون الاحترام لإبراهيم عليه السلام وينسبون دينهم اليه، ولكن لم يک قد تبقى من دين ابراهيم الذي اسس على التوحيد الخالص الا الكعبة، وأعمال

ومناسك الحج التي حرّفت كيفيتها، و اجزاء من مراسم أخرى، ولقد أصبح مجرد الانتساب لهذاالرجل العظيم وسيلة للمباهاة والافتخار، و في النتيجة للغرور و التكبر على الآخرين.

مسقط رأس الرسول:

لقد ولد الرسول الاكرم في مكة المقدسة في أعرق الأسر وأشرف القبائل: أسرة بني هاشم وقبيلة قريش. وكان اجداده سدنة بيت الله ومحل احترام اهل مكة بل جميع العرب.

وقد عاش النبي(ص) الى سن الاربعين في مسقط رأسه بكمال الامانة وحُسن السيرة. ولم يقرأ في هذه المدة كتاباً، ولم يخط حرفاً(١) ولم يتردد على العلماء وأئمة المذاهب، ولم يسجد لصنم ولم يتابع قومه في ديانتهم.(٢)

وقد نزل القرآن الكريم في محيط كهذا، وعلى شخصية كهذه. وفي ظل الوضع الذي ألمحنا اليه سابقاً للعرب، كماقد اشارالقرآن، فكأن يد القدر قد اعدت اولئك القوم من جميع الجوانب لتقبل القرآن والاسلام. وكان مقدراً ان آخرالانبياء وآخرالكتب السماوية يظهر في قلب صحراء الجزيرة اللاهب من هؤلاء القوم،وبلسانهم. ولقد هيأ استعداد العرب بلحاظ اللغة، نمط التفكير، وقابليتهم على استيعاب المعارف الالهية ونقلها للامم الاخرى بدون الامتزاج بالافكار والفلسفات البشرية، مع روح الشجاعة والفروسية والاستقلال وحفظ المواثيق والسخاء والفداء وكثير من الفضائل الاخرى، هيّأهم لإقامة حكومة مقتدرة وأمة قوية و مجتمع منقاد للارادة الالهية.

لقد كان وضع العرب قبل الاسلام بشكل إذا مازيلت انحرافاتهم الفكرية ومفاسدهم الاخلاقية، وأشير لهم على طريق الصواب، لأسرعوا كالبرق في طريق الرقي والتكامل والغلبة على باقي الامم الاخرى. وهذه موهبة تكرمت بها الارادة الالهية بواسطة القرآن والرسول الاكرم على اولئك القوم بل على البشرية في ذلك الوقت.

ونرى الان من اين بدأ القرآن التغيير والاصلاح وكيف ادى رسالته.

تأثيرالقرآن في الحركة الفكرية، النهضة العلمية، تمدن وتكامل البشر:

لقد بدأ القرآن رسالته الخطيرة من

هداية الافكار وتهذيب النفوس بالدرجة الاولى، واهتم بعد ذاك باصلاح اعمال الناس، وبشكل كلي فقد اعتبرالايمان، التقوى الباطنية والعمل الصالح قاعدة وأساساً لإصلاح النفس وان الفلاح وسعادة الدنيا والآخرة مرتبطة بهذه الامورالثلاثة.

هداية الافكار وتصحيح العقائد:

لقد بدأ القرآن الهداية والتغييرالفكري بهذا المنوال:

اولاً: وجّه الافكار الى فلسفة الخلقة وبداية ونهاية الوجود (المبدأ والمعاد). ومنح لاتباعه مبنىً فكرياً و مدرسة فلسفية خاصة تشكل محور جميع تعاليم الكتاب.

لقد بدأ عالم الوجود، والانسان في جملته من الله وينتهي اليه، والانسان يطوي هذه المسافة بحكم الجبر، وفلسفة هذه الحركة القوسية والسير النزولي والصعودي هي اكتساب الكمال والفضيلة عن طريق معرفة الله وكمالاته، ثم التشبه به والتخلق بأخلاقه بمساعدة العقل، ومتابعة الوحي، والرياضة النفسية.

لقد تجلت في القرآن الذات الربوبية، وصفات جمال وجلال الربّ بالدليل والبرهان، وبلغت نظر المتفكرين بعالم الخلقة، مظاهرالوجود و آثار قدرة وعلم وحكمة الله.

ولقد هزت آيات من قبيل **«أوَ لم ينظروا في ملكوت السماوات والارض، وما خلق الله من شيء»**[٢] العقول والافكار، ولقد أنس العرب الذين لم يعتادوا مطلقاً التفكير المنطقي والاستدلال، الى القرآن تدريجياً. ولقد عبر في القرآن عن هذا النوع من التفكير المنطقي وبشكل عام عن الرأي والكلام الصائب ب «الحكمة» وعدّت «الحكمة» خيراً كثيراً. **«ومن يؤتَ الحكمةَ فقد اوتيَ خيراً كثيراً»**[٣].

نافذة على اسرارالوجود، خطوة في طريق العلم:

ذكر آثار القدرة كان يستلزم بيان اسرار الخلقة و سرالوجود، ولذا فقد ساق القرآن الافكار الى سير الآفاق والانفس، ومن جميع جوانب و زوايا عالم الوجود وبماهو أوسع من العالم العلوي والمنظومة الشمسية او العالم السفلي: الأرض وموجوداتهاالمختلفة المتنوعة، الانسان، الحيوان، النبات، الجبل، البحر، الغيم، المطر،

الريح، المعادن، الاطعمة، و خلاصة من أسرار عالم الوجود نماذج بارزة ساقها مكررة، تصريحاً أو تلويحاً، مع بيان أسرارها الخفية.

ولو أن الغرض الاصلي من ذكر اسرارالخلقة، هو إدراك البشر لحكمة وقدرة الخالق و عظمته، ولكن بدون شك فإن هذا التذكير كان بمثابة نافذة تفتح بل صراط مستقيم لتعليم البشر أسرارالوجود، خصوصاً اذا لاحظنا ان القرآن يتحدث بصراحة عن نظم العالم الكامل، وعن التقدير المقنّن لمخلوقاته المختلفة «وَ كلّ شيء عنده بِمقدار» (٥)

وشئنا أم أبينا، فقد أثار القرآن حسّ الاستطلاع والنزعة الى المعرفة لدى البشرلإكتشاف مظاهرالوجود، حيث يشكل كلّ من هذه المظاهر موضوعاً متكاملا لعلم من العلوم البشرية. وبهذه الوسيلة، فقد ساق القرآن البشر وهداهم الى حدود العلوم، وحتى الى خطوات ابعد من حدوده، وعلاوة على انه افهم البشر و علّمهم ان عالم الخلقة جهاز واحد ترتبط اجزاؤه ببعضها، وعالم مليء بأسرار وخفايا وقوانين و سنن ثابتة، فقد أوضح احياناً جوانب من هذه الاسرار والقوانين.

لقد عد الطنطاوي، المفسر المصري، نحو ٧٥٠ آية من القرآن مرتبطة بالعلوم، هذا في حين ان آيات احكام القرآن لاتتجاوز حدود ٤٠٠ آية.

بداية النهضة العلمية:

نتيجة ذلك فقد بدأت تقوية المرتكزات الايمانية والهداية الفكرية، مساوقة للتكامل العلمي. ولقد تعرف إتباع القرآن، ضمن مسيرة معرفة الخالق والتعرف على الفلسفة العالية للخلقة التي هي بمثابة القاعدة لجميع تعاليم الدين، وحجرالاساس للترقي والسموّ، تعرفوا على منشأ و أساس العلوم ايضاً.

هذه المرحلة كانت بداية النهضة العلمية في الاسلام والتي توسعت تدريجياً، ودفعت المسلمين لإكتساب و جمع العلوم و ذخائر معارف سائرالامم المتمدنة.

لقد جعل المسلمون، نصب اعينهم، الهدف الاصلي للقرآن من توجيه العقول والافكار الى مظاهر الوجود. ومن هذا المنطلق فقد وطّدوا بنيتهم الايمانية، وقد انحصرت علومهم بالعلوم الايمانية. ومن

توجههم لعالم الخلقة، فقد أفادوا درس التوحيد ومعرفة الخالق فقط ولكن، وبعد طيِّ هذه المرحلة، فقد اصبح الغرض الضمني والهدف الثانوي من هذا الدرس، وبسرعة، مدّ انظارهم، وتقريباً في اواسط القرن الثاني، ونتيجة تعامل العرب مع الامم التي اسلمت حديثاً في ايران وبلاد الروم، والتي كانت لها سابقة علمية، فقد حدثت بينهم قفزة في جهة الاستنتاج من عقيدة التوحيد، والتعرف على اسرار الخلقة.

ولقد اصبح للنظرالاجمالي، الى موجودات الطبيعة، والذي كان قبل ذلك وسيلة محضة لمعرفة الله، أصبح له جانب من الاصالة، وتبدل في هذا الوقت الى حب عميق ومتواصل للاستطلاع الشامل في طريق استكشاف قوانين وسنن الكون. وإذن، فقد حدثت النهضة العلمية في الاسلام، عقب النهضة العقائدية والايمانية وعلى اثرها، و راجت العلوم العادية بين المسلمين تقريباً في النصف الثاني من القرن الثاني.

ومع ان منشأ التوجه لهذه العلوم كان هو القرآن والايمان، ولكن مع الاسف لم يستنبط المسلمون القوانين والمسائل العلمية من القرآن، ولم يباشروا هذا الامر مستقلين، بل اعتمدوا مباشرة على الذخائر العلمية والاثار المدونة لسائرالامم، وخصوصاً الاثار اليونانية.

وتقريباً فقد شغلوا قرابة قرنين (من منتصف القرن الثاني الى اواخرالقرن الرابع) بترجمة وجمع العلوم اليونانية، الهندية، الايرانية، النبطية، الرومية وغيرها، وترجموا القسم الاعظم لعلوم هذه الامم الى العربية. وحينئذ فقد شرعوا بالابتكار بالاستنارة بالمنطق القرآني والتجربة العلمية المكتسبة من الآخرين.

ونرى، على خلاف مايرى البعض، ان تعرف المسلمين على العلوم الاجنبية (العلوم الدخيلة) لم يكن مبدأ و منشأ انحرافهم عن الفلسفة والمنطق القرآني، بل نعتقد ان هذا الامر نفسه نابع عن التعاليم القرآنية ومنبعث عنها.

على انه في العصورالتي تلت ذلك فان هذا السير العلمي كان عُرضة للتصاعد والتنازل، وأحياناً للانحراف عن طريقة التفكرالقرآني الخالص، وقد قام بعض العلماء والمفكرين المسلمين، في مباني الفلسفة، وحتى في الالهيات، بتبين كامل

للفلسفة والمنطق اليوناني او العرفاني، والتصوف الهندي، ونسوا وتناسوا الاصالة واللون الخاص للفلسفة القرآنية، او مزجوا وخلطوا بينهما حيث ظهرت في ميدان العلم البشري، فلسفة وعرفان مزدوجان، ومن الفكر البشري والوحي السماوي كان، على اي حال، ذا قيمة و ذا لون قرآني محدود.

وبشكل قاطع فان توجه المسلمين الى العلوم الاجنبية، كان في البداية منبعثاً عن حب الاستطلاع الذي أيقظه القرآن والتعاليم الاسلامية، وكان محورتفكيرالعلماء في الغالب هو تطابق مبنى هذه العلوم مع الفلسفة القرآنية، و من ثم السعي لفهم اسرار الوجود وجهازالخلق، وكان العلماء المسلمون يعتبرون مسيرهم في هذا الطريق نابعاً عن القرآن و نتيجة طبيعية لتشربهم الاصول القرآنية.

ولكن الى اي مدى كانت النهضة العلمية في الاسلام ذات لون اسلامي ؟ وهل كانت تعكس تماماً الهوية الاسلامية ؟ وماذا أفادالمسلمون من هذه النهضة ؟ وماهي علل الانحراف عن الطريق الصحيح ؟ الطريق الذي طوي بعد القرون الوسطى على يد علماء الغرب وأثمربمساعيهم، هذا كلّه مسألة شائكة ومعقدة تستدعي دراسة مفصلة ومستفيضة لا يتسع لها هذاالبحث.

الاستنفارالعام في طريق التفكر وكسب العلم:

لقد استنفرالقرآن الافكار، بعد سوق النفوس الى فلسفة الخلقة، وتوطيد قاعدة الايمان والاصلاحات الاساسية، و وظّفها للتعلم والبحث الاكثر والافضل. وقد رغّب الناس تدريجياً بالتفكر والتعقل و ذمّ الجهل والحماقة ولقد عدّ الناس الجهال وغيرالمتعلمين صمّاً وبُكماً وعمياً وفي سياق الانعام. ولقد جاءت في جميع القرآن، كلمات من قبيل: عقل، تدبر، استنباط لبّ، باسلوب مؤثر ومؤكد، وباعداد جمة، وكذلك الفاظ نقائضها من قبيل: جهل، عمى. وأغلب آيات التوحيد والمعاد، وبايجاز ماهو متعلق باصلاح العقيدة، وإحياناً الآيات المرتبطة بالاخلاق والاحكام، كلها تأمر بالتفكروالتذكر. يقول القرآن على سبيل التعجب: «**هَل يَستَوِي الّذينَ يَعلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعلَمُونَ**»؟ (الزمر: ٩). هذه البيانات ترفع طبعاً من قيمة مفهوم العلم والفكر و مرادفاتها في الانظار، و تسوق المجتمع للعلم والفكر.

والحقيقة ان من له تدبر في القرآن والروايات الاسلامية، سيكتشف ان الرسالة الرئيسية لهذاالدين، هي في رفع مستوى المعرفة والعلم، وتقوية بنية البشر العلمية، حيث يعتبر التعقل والتفكر اعظم وظيفة للمسلم. و هناك ارتباط وثيق لاينفصم بين حياة البشر المادية والمعنوية، وبين الفكر والدراية. غير ان هذا الحث والترغيب شغل المسلمين - لاحقاً - بالانكباب على العلوم الاجنبية بشغف وحرص شديدين دونما نظر الى عقيدة وعنصر موجديها بنفس النسبة من الحماس التي دفعت المسلمين باديءالامرالى اكتساب التعاليم الدينية والرسوم المذهبية.

ان من المسلّم ان آيات من قبيل: «يرفعُ اللّه الّذينَ آمَنوا مِنكُم وَالّذينَ اوتواالعِلمَ درجات»(٦)، وكلمات مثل «أعلم الناس من جمع علم الناس الى علمه، الحكمة ضالّة المؤمن اخذها حيث وجدها، اطلبواالعلم ولو بالصين»(٧) تجعل المؤمن متعطشاً للعلم والفكر الخاص والاجنبي الى الحد الذي يستسهل مشقة طريق الصين البعيد.

المنطق القرآني، طريق التفكرالصحيح:

في التعقيب على الاصل السابق (استنفارالافكار للتعلم)، فإن القرآن علّم الانسان طريق التفكر الصحيح المثمر، وكيفية التعلم الصحيح، اذ من خلال بحوثه واستدلالاته، فقد بدأ دوماً الاستدلال من المحسوسات والموجودات القابلة للحس المحيطة باطراف وجوانب الانسان والتي له اتصال دائمي بها: السماء، الارض، الليل، النهار، الموت، الحياة، الاكل، الشرب، النوم، اليقظة، الجبل، الصحراء، الشمس، القمر، ونظائر ذلك من الموجودات كانت مورد استدلال القرآن.

وعلى خلاف اسلوب الفلاسفة واصحاب العلوم العقلية، فلم يجعل المقدمات العقلية المحضة البعيدة عن ذهن عامة الناس مقدمة للبرهان.

وطبعاً فقد اشترط المنطقيون ان مقدمات القياس لابد ان تكون في عداد البديهيات والمسلمات وامثالها، ولكنهم، عند استخدام الموازين المنطقية، يجبرون على

استعمال المقدمات العقلية الغامضة التي تفصلها عن المحسوسات وسائط عديدة. وبهذا اللحاظ يمكن القول ان اسلوب القرآن، في الاستدلال وكشف المجهولات اقرب الى الطريقة العلمية المبتنية على الحس المحض والتجربة من الفلسفة، او بتعبير اصح، يعتبرالقرآن، القياس والاستدلال المستند على المبادىء الحسية غير المشكوك فيها حجة، وبسبب رعاية هذه النكتة، فاستدلالات القرآن باعثة للاطمئنان، وقابلة لفهم الجميع، وغير قابلة للانتقاص.

و ربما كان استيعاب هذاالاصل هو الذي وجَه انظارالمسلمين في بداية نهضتهم العلمية، وبشهادة التاريخ، الى اغلب العلوم الحسية والتجريبية، وحتى الى فترة قرنين، فقد انشغل العلماء عملا بالتجربة والتجزئة والتحليل للمواد الكيمياوية، وقد راج بين علماء المسلمين علوم الطب، الكيمياء، الهيئة، النبات، التشريح مقرونة بالتجربة، ولكن لأسباب معينة، فقد وضعوا التجربة والعلوم الحسية جانباً، وانصرفوا بشكل كلي الى العلوم النظرية المحضة.

رابطة الفكر والاخلاق:

في حين يؤكد المنطق الارسطي على صورة القياس وشرائطه الصورية واشكاله، يوجه القرآن عنايته الى الحالات الروحية الموافقة او المنافية للتفكر والفهم الصحيح، واعتبر ان رعاية الاصول الاخلاقية للوصول الى الحقيقة اهم من اي اصل آخر.

لقد كان لتحري الحقيقة، قول الحق، قبول الحق والتواضع له، السؤال من اهل الذكر، الرجوع الى العلماء والمفكرين، السعي والمجاهدة لنيل الحق، التمسك بالأمل لحلّ جميع المشاكل العلمية، رعاية الانصاف، الاعتراف بالجهل وقلة العلم «وَمااوتيتُم مِن العلم الاّ قليلاً »(٨) التحرزمن اتباع الهوى و من اظهار عقيدة في مطلب نفياً او اثباتاً بدون علم، وكذلك الاعتقاد بأمر بهذاالشكل، عدم اتباع الظن والتخمين، اجتناب الصفات الرذيلة وخصال مثل: الكذب، نقل الكلام الكاذب والمشكوك، الافتراء، المراء، المجادلة بالباطل، النخوة والغرور والتعصب في قبول الحق، تقليد الآباء والأجداد، التأثر بالبيئة، إتباع الاغلبية

الجاهلة، الاعتقاد بالخرافات واساطير الاولين، الاعتقاد بتأثيرالسحروالشعوذة، مراجعة الكاهن والفوّال والمنجّم، كلها كانت اصولا لرعايتها، في نظرالقرآن، وصولا لنيل الحقيقة، كل الاهمية، وبرعاية هذه الاصول، تتضح حتماً الحقيقة للانسان المفكر.

والمسلّم ان الرغبات النفسية، النزوع للتعصب، تقليد الماضين، وامثال هذه الامور، بمثابة غلّ وقيد للفكر، يسلب من الانسان حرّية التفكير، ويكون عاملا وباعثاً على النزعة العاطفية في التعامل مع الافكار والاشخاص. ولهذه الجهة، فقد كانت هذه الامور بشدة مورد منع وذمّ القرآن والاسلام.

في هذه النقطة، فالقرآن يصل بين عقل الانسان و قلبه، وقواه العقلية واحساساته، ويشكل رابطة مباشرة بين الفكر والاخلاق.

تهذيب النفس وتعديل الغرائز:

قلنا إن منهج القرآن الاصلاحي، يبدأ من اصلاح فكر و قلب الانسان، وينتهي بالعمل. وقد تحدثنا عن هذاالجانب بالقدرالكافي والضروري، وفيمايلي نتحدث عن اصلاح الداخل وتصفية الباطن وتجلية الروح، وبالتعبير الرائج: تهذيب النفس.

بديهي ان اعمال الانسان متناسبة مع طريقة تفكيره. وتفكره، كما اوضحنا سابقاً، مرتبط بروحياته وصفاته الباطنية.

الفكر الصحيح والنوراني، ينبع من الباطن المصفّى والقلب الطاهر، والفكر المتطرف والمنحرف من الروح الكدرة والملوّثة و الباطن القذر، لذا فتزكية النفس، الشرط الاول للفكر الساطع والضميرالمضاء وكذا للعمل الصالح والفعل الخيّر «قد أفلَح مَن زَكّيها وَ قَد خابَ من دَسّيها»(٩)

الطغيان منشأ فساد الاخلاق:

ولسنا هنا بصدد الحديث مفصلا عن الامراض الروحية وعلل فساد الاخلاق و فروعها المختلفة، لكن يلزم ذكر هذه النكتة،وهي ان القرآن الكريم يعتبر الطغيان علة العلل، ومنشأ جميع المفاسد والرذائل النفسية فضلال ودعوى الربوبية «انا ربكم الاعلى»لفرعون ناشئ من طغيان روحه وعدم اعتدال غرائزه النفسية، حيث توجّب على موسى معالجة طغيانه «إذهب إلى فرعون انه طغى* فقل هل لك الى أن

تزكّى».(١٠)

وجهنم ايضاً هي مكان ومأوى اهل الطغيان «للطّاغينَ مآباً»(١١) ولظاها تجسيم وتصوير لشررنفوسهم المتطاير.

وينبغي هنا ان نعرف ماهوالطغيان ؟ حقيقة الطغيان، الخروج عن الاعتدال، والافراط والتفريط في غرائز و روحيات الانسان. وبهذه المناسبة فالقرآن يشير الى اهل الطغيان واصحاب السوء وحتى الكافرين بلفظ الفاسق والفاسقين، لأن الفسق في اللغة ايضاً بمعنى الخروج والانحراف عن الجادّة. والفاسقون منحرفون عن جادة اعتدال الفطرة والخط المعتدل للحكمة.

طبيعي ان النفس البشرية لها غريزة جنسية، علاقة بالمال والثروة، حب النفس، حب الجاه، عشق الجمال والحسن، ونيل الطعام واللباس الفاخر، وباختصار فهي محبة وعاشقة للذّة والمقام والمعيشة الافضل. وهذه الرغبات، ليس فقط انها لاتمثل نقصاً للانسان، بل ان اصلها ضروري للانسان، ولكن بمقدار و حدّ معيّن.حيث ان زيادتها كنقصانها، يبعث على المشاكل. والانسان الكامل هوالذي يستطيع تشخيص المقدار اللازم منها، ويبقى على قناعته وثباته على ذلك الحدّ.

ومثل هذه الغرائز والرغبات بالنسبة للنفس، مثل المواد الكيميائيه المختلفة للبدن حيث ان المقدار اللازم المتعادل منها ضروري لصحة البدن، والامراض المختلفة ناجمة من اختلال تعادل تلك العناصر.

وليس الهوى، والهوس، الا تمرّد وطغيان هذه الرغبات. وقمع هذه الرغبات، او بتعبير افضل السيطرة عليها وتحديدها سبب للفوز والفلاح، «وَ امّا مَن خافَ مَقامَ ربّه وَنهى النفسَ عنِ الهَوى فإن الجنّةَ هيَ المأوى»(١٢)

منشأ الطغيان:

و إذا ماقلت الآن لماذا تطغى نفس الانسان و رغباته الباطنية ؟ اذا ماكانت مخلوقة هكذا و خارجة عن قدرة الانسان حيث ان علاجها متعذر.

فجواب القرآن هو ان الله خلق الانسان على الفطرة المستقيمة، بمعنى انه قد وضع رغباته بشكل يؤمن تعادلها، وهذا التعادل بيد الانسان واختياره، ولكن بشرط ان يريد هو ذلك ويعمل لحفظ تعادل نفسه. وإذا

ماتركت النفس لحالها، فان الرغبات بمنزلة شرارات نارية تشعل بيدر الوجود في غياب الحارس والمحافظ

هذا الاشتعال والطغيان، خاصية طبيعية للنار، وكذلك للرغبات النفسية. وطبعاً فالتربية العائلية، محيط الحياة، والى حدّما الوراثة، والى حدّ اكثر الوضع المزاجي، تؤثر في كمية وكيفية هذا الطغيان. ولكن أياً من هذه العوامل، ليس له قدرة مقاومة ارادة الانسان، حيث يستطيع كبح جماح نفسه وتطويعها. وعلى خلاف قول الشاعرالخراساني القائل:

هذه النفس الشريرة لن يكبح جماحها

وهذاالكافر سيءالمذهب لن يصبح مسلما

يقول القرآن: نفس الانسان تتقبل الموعظة، وتصبح مسلمة. بمعنى انه يمكن كبح و إيقاف الرغبات والاهواء النفسية على حافة حدود العدالة والحكمة، وقد لايكون بالامكان محوها بشكل شامل. ومصلحة الانسان ايضاً ليس في محوها لان محو إحدى الرغبات بمنزلة قطع احد الاعضاء والجوارح.

والشاعر بابا طاهر(١٣) الذي ضاق ذرعاً، في مقام تصفية الباطن، ببصره وقلبه، وتمنّى لوأهوى، بخنجر حديدي حاد، على بصره، ليسكن قلبه ويهدأ، لم يسلك جادة الصواب. بل كان عليه ان يحفظ بصره لصالحه، وينصرف الى اصلاح القلب، كي لايصيبه هوس الرغبة في كل مايراه. والحقيقة ان البصر يخضع لحكم القلب ولايكون مستقلا في جموحه.

وكما تشير بعض المدارس والمسالك الاخلاقية، ان السالك، كي ينجو من شيطان الشهوة فعليه ان يخصي نفسه.وقد حارب الاسلام بشدة هذا العمل وقال ان السالك ان كان رجلاً، فعليه ان يمتنع عن استخدام اداة الشهوة في غير موردها، وان يبقي عليها لحفظ النسل واطفاء الشهوة وحفظ المصلحة.

التقوى علاج الطغيان:

العلاج الناجع لمرض الطغيان، في الطب القرآني، هو التقوى، وكلمة التقوى من الوقاية، بمعنى حفظ وصيانة النفس من الطغيان والتمرد.

والتقوى عبارة عن كبح الرغبات النفسية، واقرار التعادل في إعمال الغرائز.

وكما ان فساد وشرور الانسان ينبع من اختلال ذلك التعادل، فان التقوى منشأ لجميع خيرات وحسنات الانسان.

ولهذا السبب، فقد اعتبرالقرآن المتقين نقطة تقابل اهل الطغيان. «للطّاغينَ مآباً...إنّ لِلمُتّقين مَفازاً...»(١٤) وبحث التقوى، يستحق بمفرده كتاباً منفرداً لا يتسع له الكلام هنا. ونظراً لأن كبح الرغبات والسيطرة عليها، مع انه ليس محالاً، لكنه صعب جداً وشاقّ، فالقرآن غالباً ما يستعمل في هذا المجال صيغة (افتعال) التي تفيد انجاز عمل بمشقة وجهد، وكلمة (اتّقى) و(متّقين) وأمثال ذلك في هذا الكتاب، اشارة لهذه النكتة.

وصعوبة هذا العمل نفسها هي التي دعاها رسول الله(ص) جهاداً أكبر، واعتبر تحمل المقاومة قبال العدوّالباطني أهم من جهاد العدو الخارجي.

وهذه المشكلة نفسها ايضاً سبّبت ان البعض في طريق السلوك والمجاهدة، يتوهمون النفس كافراً سيءالمذهب محالاً اسلامه، او يغمدون خنجراً في العين للخلاص من رغبات القلب، او يقطعون عضوالتناسل، او ينصرفون الى الرياضات الشاقة التي تشلّ الجسم.

وكل هذه التعاليم، حاكية عن ضعف الارادة وفقدان التقوى. يقول القرآن: يستطيع الانسان، بسلاح التقوى و تقوية الارادة، ان يجعل هذا الشيطان المتمرد، أسير إرادته وقوته العقلية، وعن هذا الطريق يستعيد شخصيته.

وبملاحظة واعية للآيات المرتبطة بالعقائد والاخلاق والاعمال، يصبح واضحاً ان الرابطة بين هذه الامور ومقدمتها ونتيجتها هي التقوى نفسها، كماان هداية الله وسعادة الدنيا والآخرة وجميع المواهب الربانية من نصيب المتقين «إنّ للمتّقينَ مَفازاً...».(١٥)

والمنهج الاصلاحي في القرآن، لايتناول الجانب الفردي وحسب، بل هو يتطلّع الى اصلاح المجتمع ايضاً. واصلاح المجتمع يتوقف على اصلاح الفرد، ومحال ان يكون المجتمع الصالح، مؤلفاً من افراد غير صالحين وغير متقين، ومن نفوس ملوّثة وخبيثة.

ولكن ليس معنى هذا الكلام، انه عند اصلاح المجتمع، يجب الجلوس في انتظار طهارة جميع الافراد، بل يتوجب، في عملية

الاصلاح الاجتماعي، وقبل أي شيء، توجيه الهمة لإصلاح نفوس و تربية تقوى الافراد، وتوظيف جميع المساعي والهمم في تربية وتهذيب النفوس، و بموازاة ذلک تتتابع سائرالاصلاحات.

وهنا تتعهد المسؤولية الجماعية، ووظيفة «الأمربالمعروف والنهي عن المنكر»، بالدورالرئيسي، وتضمن نفسها السير الصحيح لجميع الامور والاجراء السالم لكل القوانين والمقررات واصلاح جميع الافراد.

ويجب، وبشكل متواصل، المداومة على هذا الواجب من قبل عامة الافراد المتقين ذوي الصلاحية، وليس من قبل الخبثاء والملوّثين.

طريق الوصول إلى التقوى:

الإقراربالله، ومعرفة صفات جلال وجمال الربّ المتعالي، الخوف والخشية منه، وكذلک الامل والرجاء بلطفه، هي منشأالتقوى.

كماان معرفة العقل، والانس بالاحكام والمحاكمات العقلية في هذاالامر معين قديرللانسان، ونتيجة هاتين المعرفتين، ينشأ عند الانسان المقدرة والميل لاتباع العقل والشرع. وكلما زاد الالتزام بهما كماً ونوعاً، زادت قدرة النفس و رغبتها في هذا الالتزام.

وفي هذه النقطة يكون التأثيرمتقابلاً ومتبادلاً بين العقيدة والاخلاق والعمل، حيث كل منها يقوّي الآخر، وتتكاتف الثلاثة وتلتحم وتكبح النفس المتمردة وتسيطر على نوازعها، حيث تسوق الانسان الى اوج الفضيلة. وجميع التقدم العلمي والعملي البشري، ممكن في ظل نفس قوس النزول والصعود. ولاندخل هنا في بحث ان تعاليم القرآن العملية، من اين بدأت، وأين تختم، وماهو نظرالاسلام في اصلاح عمل الفرد والمجتمع، واخيراً ماهي المسائل الاجتماعية والسياسية و كيفية الدعاء وعبادة الله ؟

تذكّر هنا فقط بهذه النكتة، وهي ان جميع الاعمال الفردية والاجتماعية وجميع تعاليم القرآن العملية، مبتناة على التقوى الباطنية والنية النزيهة، والضميرالواعي، ومشروطة بذلک. وبالدرجة التي يكون عليها افراد المجتمع، وخاصة الطبقات المؤثرة التي تمتلک سمة القيادة كالمفتين، والمتكلمين، والكتّاب، والمعلمين، والقضاة، والمتصدين للأمور و مالكي زمامها، سالمين نزيهين، فان

المجتمع سيصلح بنفس الدرجة بتقوى الافراد التي اصبح لها طابع عام. وخطابات القرآن العامة والجماعية مثل «ياأيّهاالّذينَ آمنوا ادخلوا في السلم كافّة»(١٦) اشارة الى التقوى الاجتماعية. وعلى العكس، في المجتمع الفاسد، حيث تحكم روح الطغيان والتجاوز، و يتحول الطغيان الفردي الى طغيان اجتماعي. والمجتمع الذي افراده غير صالحين، على تقدير انه يمكن، بقوة القهر والاجبار، الحفاظ على نظمه وانضباطه، غير انه لايمكن عن هذا الطريق ضمان الحفاظ على الانضباط والنظام، اذ هما يعدان في هذه الحالة امراً مزوراً و حركة قسرية، واصلاحاً كاذباً قائماً بغيره لا بخصائص افراده الروحية وتقواهم الباطنية و يعدّ انفراط ذلك النظام وذلك الاجتماع متوقعاً في أية لحظة.

هذا هو جوهر القرآن الكريم، و روح تعاليمه، وبرنامجه الاصلاحي، وتفسيرالقرآن، ايضاً، يجب ان يكون قد تكفل ببيان وتوضيح و تفصيل هذاالاجمال.

الهوامش

---

(١) «وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون»(العنكبوت:٤٨)

(٢) «قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم»(الانعام: ١٦١)

(٣) الاعراف: ١٨٥ .

(٤) البقرة: ٢٦٩ .

(٥) الرعد: ٨ .

(٦) المجادلة: ١١ .

(٧) ميزان الحكمة ٦: ٥٣٤ .

(٨) الاسراء: ٨٥ .

(٩) الشمس: ٨ .

(١٠) النازعات: ١٨ .

(١١) النبأ: ٢٢ .

(١٢) النازعات: ٤٠ - ٤١ .

(١٣) شاعر ايراني معروف .

(١٤) النبأ: ٢٢ - ٢٣ .

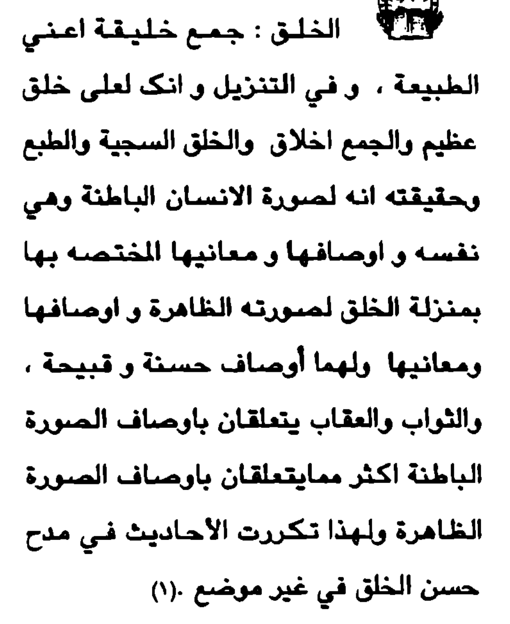
(١٥) النبأ: ٣٥ .

(١٦) البقرة: ٢٠٨ .

دورالتعاليم القرآنية في الرشد الاخلاقي والفكري

الدكتور محمد ناصري

تعريب: علي جمال الحسيني



تعريف الاخلاق :

الخلق : جمع خليقة اعني الطبيعة ، و في التنزيل و انک لعلى خلق عظيم والجمع اخلاق والخلق السجية والطبع وحقيقته انه لصورة الانسان الباطنة وهي نفسه و اوصافها و معانيها المختصه بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة و اوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة و قبيحة ، والثواب والعقاب يتعلقان باوصاف الصورة الباطنة اكثر مايتعلقان باوصاف الصورة الظاهرة ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حسن الخلق في غير موضع .(١)

والانسان انما يتخلق باخلاق معينة حينما تنصف روحه بصفة تتحول فيه الى ملكة نفسية و عادة دائمة بحيث يجد نفسه مستعداً ومتشوقاً لانحاز العمل بسهولة ويسر تشعرانه باللذه .

يقول كانت الفيلسوف الالماني المعروف (١٧٢٤ - ١٨٠٤) : « ارادة الخير والعزم على العمل الصالح والفضيلة انما تكون ممدوحة ومقبولة حينما تكون ناشئة من الشعور بالمسؤولية و اداء الواجب ».

اهمية المعرفة

كل حسن وقبح يعد معياراً مستقلاً ليس في تشخيصه كثير عناء و مشقة ،

وعلى الباحث عن الخلق الحسن أن يميز أولاً بين الحسن والقبيح و يحدد الصفات الممدوحة والصفات المذمومة ثم تعمل القوى المحركة فيه لتسوقه نحوالفضائل وتردعه عن الرذائل رغم الغرائز الجامحة .

والمعرفة مقدمة على مرحلة التنفيذ والإقدام دائماً ، والشرط الاول في اي عمل أن يعرف و يدرس من خلال الموازين والمعاييراللازمة ثم يتخذ التصميم على تنفيذه بالطرق الكفيلة.

وما أكثرالذين يتلذذون بالقيام بعمل ما بإعتباره «عملاً حسناً» ويحسبون انهم استحقوا الثواب والتشجيع وهم في الحقيقة لم يفوزوا بأي جزاء او أجر وقد تكون النتائج معكوسة عليهم .

وهذا مايؤيده الجميع حتى في المذاهب الاخلاقية الاخرى.

يقول ول ديوارنت :

«يمكننا تعريف الفضيلة والاخلاق الحسنة بأنها الوسيلة التي توصل الانسان الى الهدف الحقيقي وهو النظر الى وجه الله، والانسان ميال بالطبع الى عمل الخير وكل ماينويه من الخيرممدوح اخلاقيا».(٣)

بديهي أن للعلم دوراً واضحاً وفعالاً في معرفة الصفات الحميدة والصفات الذميمة وتميزها عن بعضها حتى ذهب البعض الى أن : الأخلاق الممدوحة جميعاً تنشأ من العلم والبصيرة والصفات الرذيلة كلها ناشئة من الجهل .

وهذا مايؤيده سقراط ولكنه يرى أن الوقوف بوجه الرغبات النفسية والشهوات شرط اساسي - ايضاً - للسعادة .

«الانسان يبحث عن السعادة والراحة ، وهي لاتتأتى بالحصول على اللذات والشهوات بل تتأتى من خلال ردع الرغبات النفسية بشكل افضل - وسعادة الافراد ضمن سعادة الجماعة وعلى هذا فسعادة كل انسان في اداء واجباته تجاه الآخرين».(٤)

وكان سقراط يبحث عن مبان علمية لعمل الخير والعمل الصالح ويرى أن عمل القبيح ناشئ عن الخطأ والجهل وكان يقول:

«لايذهب الناس نحو الشر عن علم وعمد ولو عرفوا الخير لاختاروه طبعاً فيجب السعي في معرفة الخير وتشخيصه فيرى مثلاً ماهى الشجاعة ؟ .. العدالة ؟ وماذا تعنى التقوى»؟(٥)

وبالرغم من أن دور العلم في نشر

الثقافة العامة و الاخلاق وتحضّر المجتمع غير قابل للانكار ابداً ، الا أن هذا القول لايمكن التسليم به بشكل مطلق لان التلازم بين العلم والعمل لايتحقق دائماً وفي الموارد جميعاً --

وماأكثر الذين لهم حظ وافر من العلم ولايخطأون ابداً في تمييز الحَسن والقبيح ولكنهم يعجزون عن كبح الميول النفسية والرغبات الشيطانية .

يعرف الحسن والقبيح جيداً ولكنه يختار القبيح عملياً تحت ضغوط الغرائز الجامحة .

وثمة فرق بين الالمام بالنظريات الأخلاقية وبين العمل بالموازين والمعايير الاخلاقية ولهذا قال النبي الاكرم (ص) :

«العلماء رجلان رجل آخذ بعلمه فهذا ناج و عالم تارك لعلمه فهذا هالك »(٦)

ان من الجهل والسذاجة ان نحسب كل عالم طاهراً ومنزهاً وكل عابد رجل حق من العلماء فانهم «فتنة كل مفتون ».(٧)

ولاقيمة ابداً للعالم بلاعمل والعبادة بلا وعي ولاعقل وانما يكون للعبادة قيمة حينما تكون عن وعي و ادراك ويكون للعلم قيمة عندمايقترن بالعمل ، وبالتالي لاملازمة بين العلم والعمل حتى تتحرك كل المعلومات على صراط مستقيم ويتورع ويجتنب الاخلاق السيئة كلها.

وعلى كل حال ، فان ترسيخ المباني والاسس الأخلاقية يعني الكرامة والتكامل المعنوي للفرد ، بل لها دور حساس في العلاقات الاجتماعية الحسنة وحفظ المبادئ الانسانيه ، وهي من اهم قضايا المجتمع السليم الذي يعين كل فرد على معرفة واجباته ويؤدي الى تحسين و تقوية ميثاق المحبة والتعاضد بين افراد المجتمع .

والمجتمع الذي تعوزه الأخلاق تفقد فيه هذه الكلمات معناها :

النظم والانضباط ، الصدق والاستقامة، الاخلاص والحقيقة ، الامانة والوفاء ، التضحية والتفاني ، الشعور بالمسؤولية و معرفة الواجبات ؛ وبالتالي سوف لاتتوفر الارضية لنمو الامة و ترقيها.

والمجتمع السالم رهين الاخلاق السليمة ، والأخلاق السقيمة ينبع منها الانحطاط الفكري والتخلف العلمي والثقافي والاقتصادي ، كما ان الله سبحانه وتعالى يربط سعادة المجتمعات باخلاقيات افرادها ومعنوياتهم ويعتبر أن مصيرهم بايديهم

يقررونه بانفسهم :

«ان اللّه لايغير مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم»(٨)

يقول اقبال اللاهوري :

الله يمنح السرور للامة التي تكتب اقدارها بيدها

ويكل الامة التي يزرع فلاحها للآخرين الى نفسها

ماهوالمعيار ؟

ماهو ملاک الحسن والقبح ؟ وكيف نميز الفضائل والرذائل الاخلاقية ؟

لقد اختلفت الاراء والنظريات فى هذا المجال عند علماء الاخلاق وفلاسفة الشرق والغرب . ولايسع هذا المختصر لبحثها ومناقشتها .

ولكن المرجع الاول للمعرفة والمعيار الكامل في المدرسة الاخلاقية الاسلامية هي تعاليم القرآن الكريم و من ثم سيرة النبي(ص) وخلفائه المعصومين(ع) .

وهذا هو القرآن الذي يؤدي اهم دور في الرشد الاخلاقي للمجتمع الاسلامي بما يقدمه من مناهج أخلاقية رفيعة واسس تربوية كاملة .

وقد صنع خلال فترة قياسية من الجهال الاميين اناساً نموذجيين عن طريق تعليماته البناءة . اناساً اصبحوا مضرب الامثال على صفحات التاريخ في اخلاصهم وصدقهم وتضحيتهم و ايثارهم واستحقوا الثناء والتمجيد كقدوة اخلاقية .

«كان تعامل المسلمين الاسپان (*) مع الشعوب المغلوبة بمستوى من الانسانية واللطف بحيث سمح لرؤساء الاساقفة أن يعقدوا الاجتماعات الدينية .

وبالاضافةالى التسامح الديني كان تعامل المسلمين مع اتباع سائر المذاهب اخوياً وشريفاً للغاية حتى عرف المسلمون بالشفقة والعطف والوفاء بالعهد والميثاق ، لم يكونوا متشددين ، وكانوا يحملون روحاً مسالمة وديعة ويتمتعون بطيبة المعاشرة والمعايشة ويتعاملون مع الآخرين بمحبة وود حتى اسلم الكثير من المسيحيين ولم يكن اسلامهم عن طمع و انما عن قناعة و ايمان بالدين الجديد وتمكن العرب المسلمون خلال عدة قرون أن يقلبوا اسپانيا بالكامل من الناحية العلمية والاقتصادية ووضعوها في قمة الدول الاوربية ، ولم يكتفوا بالتقدم العلمي والاقتصادي فقط بل أثروا ايضاً في

الجوانب الاخلاقية لدى الناس وهم الذين علموا النصارى واتباع السيد المسيح ارفع الصفات الانسانية وانبلها». (٩)

وكانت تعليمات القرآن في المرحلة الاولى من ظهور الاسلام على درجة من القوة بحيث كان من النادر يومذاك ملاحظة المشاعر الكاذبة والمتهورة وكانت المشاكل الاجتماعية اقل في الايام القريبة من عصر الرسالة ، ولكننا كلما ابتعدنا عن عصر النبي واجهنا التعصب المقيت الذي لامبرر له اكثر فاكثر وشاهدنا نيران النفاق والفرقة تستعر اكثر .

وما اعجب دور القرآن في تنوير افكار الجماهير وسوقهم نحو مكارم الاخلاق واسس الانسانية الرفيعة والقرآن أضاء بقبس هدايته زوايا الروح البشرية واشعل فى القلوب جذوة الايمان من اجل الصلاح والاصلاح . وحل العقد المستعصية و أوجد قفزة مذهلة في الافكار والاخلاق و الآداب . وقاد امة بعيدة عن الحضارة نحو نظام الهي رفيع و عدل عام وسيع و اعاد اليهم شخصيتهم الانسانية المفقودة و بلغ بهم ذروة العلم والكمال في فترة وجيزة :

«كتاب انزلناه اليک لتخرج الناس من الظّلمات الى النّور» (١٠)

والقرآن حارب الافراط في الميول المادية والمعنوية و عالج التناقض والنزاع بين المتطلبات الروحية والغرائز الجسدية ودفع الناس الى تحكيم العقل و تهذيب النفس و سلوك طريق الاعتدال :

«ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم» (١١)

والنبي (ص) دعى الامم جميعاً الى الاسلام وقدم لهم القرآن باعتباره اعظم حجه و اكبر دليل ، «وقد كان للنبي معجزات أخرى غير القرآن ولكن القرآن اعظم هذه المعجزات شأناً و اقومها بالحجة».(١٢)

وقد أوجدت الافكار القرآنية السامية وحقائقه الساطعة تحولاً سريعاً فى اخلاق العرب و الامة الاسلامية و انتشلهم نفوذه العجيب من حضيض الذلة و بل بهم الى ذروة العظمة و كوّن لهم مكانة و شرفاً ورفعةً و سمواً يقول اقبال اللاهوري :

حينما سيطر القرآن على العالم
هزمت مخططات البابا و الكاهن
ابوح بما اضمر في القلب
ليس هذا كتاباً انما شئ آخر

فلو ولج الروح تغيّرت

ولو تغيّرت الروح تغيّر العالم

وكانت الاسس الاخلاقية القرآنية و تأثيرها في حضارة المسلمين الاولى هادية و معلمة بحيث يقول الدكتور گوستاف لوبون الفرنسي :

«لاتبلغ الاستعدادات الفنية حد الكمال في اي امة ناشئة في طريق الرقي حتى تمضي ثلاثة اجيال منها ، و لكنها بلغت حد الكمال في الامة العربية (الاسلامية) منذ الجيل الاول واظهروا خصائصها و مزاياها منذ الانطلاقة الاولى». (١٣)

ويقول هذا العالم الغربي - ايضاً - حول حضارة المسلمين الاولى وتغير احوالهم:

« كانت اخلاق العرب فى صدر الاسلام افضل و ارقى من كل الامم على وجه الارض حتى عرفوا بالعدالة والاعتدال والرأفة والتسامح مع الشعوب المغلوبة والوفاء بالعهد و علو الهمة والشموخ ». (١٤)

وقد حث القرآن ومنذ الوهلة الاولى ورغب المسلمين في طلب العلم و تعليم القراءة والكتابة ، وكانت الآيات الاولى النازلة من سورة العلق تخص هذا الموضوع :

«اقرأ باسم ربک الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ و ربک الاكرم ، الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم». (١٥)

وسرعان ماتعلم المسلمون القراءة والكتابة وخطوا الخطوة الاولى في سبيل الوصول الى الاهداف والتقدم والرقي .

لماذا أكد الاسلام على طلب العلم ؟

«هَل يستوي الّذينَ يعلمونَ والّذينَ لايعلَمون» (١٦)

الاسلام نظام المنطق والعقل، يبغض الجهل و يثني على العلم ويعظم المجتمع الذي ينمي العلم ، لأن جميع المحن في المجتمع تنشأ جذورها من الجهل الشامل والانحطاط الثقافي ، مما يؤدي الى هذه الفاجعة الاجتماعية وتوقف النمو الفكري والوعي العام وتضعف القدرة على إدراك المسائل الجزئية .

وجهل الجماهير وعدم وعيها سبب لآلام المجتمع. الألم الذي حيرالخيرين والمصلحين في عملهم و ذلک لأن الذين يستطيعون تشخيص مصالحهم ومصالح مجتمعهم هم العلماء الأحرار فكرياً فقط

فيخطون خطوات نافعة ويحلون المشاكل .

روي عن النبي الأكرم (ص) انه قال :

«من عمل على غير علم كان مايفسد أكثرمما يصلح » (١٧)

وقد أكد القرآن على تعاليمه السامية ليضطرالناس على التفكر، وخالف بشدة إهمال جهاز التعقل والتقليد الأعمى ودعاالناس الى التدبر في الامور دائماً. واعتبرالجمود الفكري والحرمان من المواهب العقلية نوعاً من الموت ويعتبرالافراد من هذاالقبيل في عداد أصحاب القبور ويقول مخاطباً الرسول (ص) : «ومايستوي الأحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور»(١٨) والذين يفقدون الوعي والادراک موتى متحركون لا يقدرون على فهم أيات الله ، والله سبحانه يقول : «قد فصلّناالآيات لقوم يفقهون» .(١٩)

والحق أن القرآن – وهو سرالوجود – لا يدركه سوى العلماء وكذلک لا يدرک آثارالطبيعة العجيبة سواهم : «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنّهار لآيات لأولي الالباب » (٢٠) و إنما اهتم القرآن و احترم العلم والعلماء من اجل آن ينتشر ظلال العلم ويمتد شعاعه في كل نواحي الحياة ويوفر عوامل رشدهم الفكري وينمي وعي الافراد و ادراكهم ويعينهم على اختيارالأفضل : « فبشّر عباد الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه اولئک الّذين هداهم اللّه و اولئک هم اولوا الألباب»(٢١)

القرآن يعلم و يهدي ويسمي الذين يجتنبون الانانية و محورالذات وقصرالنظر بعباد الرحمن يستمعون القول ويزنونه بميزان العقل ثم يتبعون أحسنه ، وهذا هوالطريق والنهج الواضح والتحرر من قيود التعصب الاعمى. فالمتعصب – نوعاً – شخص جاهل لا علم له سطحي غير واع انـاني ومغرور، يقع في شراک إغواءالشيطان وتحت نفوذ وساوسه ووساوس المتشيطنين و يكون اداة مسلوبة الارادة بأيدي مصاديق الوسواس الخناس .

ولا تجد عند العلماء والمفكرين تعصباً – ابداً – وانما عندهم العلم والتحقيق والاستدلال والبرهان ولا يثورون ابداً في وجه المخالفين ولا يغضبون فهم اهل العلم وليسوا اهل خصام ومجادلة ونزاع ومحاربة.

والتعصب بكل اشكاله وصوره مبغوض و مرفوض منذ اقدم عصور التاريخ البشري والى اليوم ، فنرى في تاريخ الاديان انبياءالله في معركة فكرية مستمرة و حجاج دائم مع المتعصبين ، حيث ان اهم اهداف سفراء الحق هي توعية الناس و ايقاظ افكارالنائمين .

وقد بذل ابراهيم (ع) كل ما في وسعه لمواجهة المتعصبين من عبدة الاصنام، ووجّهم لإله العالمين ، ولكن عبدة الاصنام البابليين ظلوا يتعصبون لهذه العبادة ولم يتركوا دين الآباء والاجداد: « **إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وَجدنا آبائنا لها عابدين**»(٢٢)

فقال ابراهيم (ع) :

«**لقد كنتم أنتم وَ آباؤكم في ضلال مبين**»

وكان ابراهيم النبي (ع) يريد تغيير هيئتهم و اصلاح ارواحهم ليغير ثقافتهم وآدابهم ويفك عنهم قيود عبادة الاصنام .

ولم تفد معهم التوجيهات العلنية والمتكررة ولا الاستدلالات المنطقية ولم تؤثر في سلوكهم وعاداتهم ، مما اضطر النبي ابراهيم الى اتخاذ القرار.

ففي ذات يوم خرج الجميع من المدينة والمعبد ليحضروا احتفالاً عاماً دخل ابراهيم الى المعبد يحمل فأساً وجعل الاصنام جذاذاً الا كبيراً لهم ، ثم علق الفأس على رقبة الصنم الكبير، ليقول ان هذاالصنم عاقب باقي الاصنام وحطمها.

وحينئذ اعلن الحداد العام في المدينة ونصب عبادِ الاصنام مأتماً لآلهتهم و دعوا بالويل والثبور وبكوا حزناً، وهنا صرخ فيهم رجل: ان هذا فعله ابراهيم ، فقد سمعناه يذكر آلهتنا بسوء ويهدّدهم فجاؤا بإبراهيم وسألوه : « **أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياابراهيم** » (٢٣)

و أجاب ابراهيم: «**بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون**» (٢٤) وهو يعلم ان الاصنام لا تنطق ولكنه أراد ان يفهم عبدة الاصنام المتعصبين ويحتج عليهم بأن هذه الاصنام جمادات لا روح فيها لاتسمع ولاتبصر ولاتدفع عن نفسها ضرراً ولاتكسب خيراً ، فكيف يمكن لهذه الموجودات العاجزة التي لا ارادة لها ولاحول ولاطول أن تكون الهة للعالمين ومعبودة للناس اجمعين ؟

وكان ابراهيم (ع) يتوخى من بيانه هذا هدفاً وهو ايقاظ الافكار النائمة ، وهو يعتقد ان هذه الطائفة تفتخر بالعار الذي لحقها من عبادة الاصنام لفرط جهلها وعدم معرفتها. وربما يكون هذا النمط من الاستدلال فرصة تهز ادمغتهم و تنير افكارهم على امل ان يفكروا ولو للحظة ويكتشفوا قبح اعمالهم ويجتنبوا عبادة هذه الاحجار التي لا تضر ولاتنفع .

وكانت فكرة ابراهيم (ع) و خطته صائبة ، فقد غرقوا في التفكير واعملوا عقولهم وقالوا لبعضهم بلغة النظرات : صدق ابراهيم والحق معه فهذه الاصنام لا روح فيها ولا تنطق ولا تدفع ضرراً فالويل لنا الى متى الذل ؟ والى اي مدى الغفلة ؟ «ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون » (٢٥)

ويبدو ان اهم ما يهدف اليه القرآن من ذكر هذه القصة هو هذا النحو من الاستدلال والاحتجاج ، بمعنى ان ترشيد الافكار وتغيير السلوك في ايّ مجتمع انما يتيسر عندما يقترن الارشاد والهداية بالبرهان والدليل العقلي الذي يلجئ الانسان الى التفكر والتأمل : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتي هي أحسن» . (٢٦)

اذن ثمة ادوات ثلاث للارشاد واصلاح الاخلاق :

المنطق والبرهان ، والكلام الجذاب ، والخلق الحسن .

وبهذه الاسلحة فتح محمد (ص) قلوب الناس و رسخ الايمان في ادمغتهم و مركز قيادتهم ، ولم يرد النبي (ص) في تبليغه للدين أن يدعو الناس الى طاعته عن تقليد اعمى او الاستسلام لأفكاره تحت ضغط الالحاح والاكراه .

وكان (ص) مأموراً ان يدعو الناس بالحكمة الى التدين والايمان بالله ويقود افكارهم الى الله بالموعظة الحسنة وبأسلوب مؤثر ولطيف . ومن البديهي أن الموعظة انما تؤثر حينما تكون خالية من ايّ خشونة وانانية وغرور وعناد ولاتؤدي الى اهانة الموعوظ وتحقيره ، وفي غير هذه الصورة لا تؤدي الموعظة ثمارها المطلوبة.

ولابد ان يكون الارشاد والهداية بالدليل والبرهان الممزوج بالعطف والمحبة، اي بآداب الحوار و رعاية موازين الاحترام بتعامل مؤدب ولهجة محبوبة : « فبما

رحمة من الله لِنتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك » . (٢٧)

وقد ادعى فرعون الربوبية وتصور نفسه - نتيجة جهله و غروره - خالق الناس و رازقهم فكلف الله موسى (ع) بوعظه وإرشاده وهدايته لينصرف عن فكره الخاطئ ، وكان الامر الاول الذي توجه لموسى في ادائه لهذه الرسالة هو أن يبدأ بالخلق الحسن و القول الطيب و يتجنب العناد : « **اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولاً ليّنا** » . (٢٨)

وقد صرح القرآن الكريم بان هناك بعض الحوافز النفسية والميول الشيطانية في نفس الانسان ويجب أن توجه توجيهاً صحيحاً ، ولايتم هذا الا بالموعظة الحسنة الواضحة لأن الموعظة و النصيحة تؤثر عند ما تكون لينة ليس فيها خشونة ولا انانية ورياء ، بحيث يقتنع المنصوح ان الناصح مشفق يريد له الخير .

والتدين امر قلبي له علاقة مباشرة بوعي الانسان ولايمكن ترسيخ الاسس الاخلاقية والعقائدية في ذهن الانسان الا بالمنطق والبرهان ، ومن هنا يعلمنا القرآن أن « **لا اكراهَ في الدينِ قد تبيّنَ الرشدُ من الغيّ** » . (٢٩)

والقرآن يؤكد على استعمال العقل لأن العقل اعظم نعمة الهية واسطع ضياء ينير طريق الحياة البشرية ، ضياء يجعلنا نميز بين الجادة والبئر والخير والشر، يدلنا على الصراط المستقيم و يوصل البشر الى مراقي الكمال اللائق بهم .

وحينما تتعين الطريق والبئر في اشعة نور العقل فلاحاجة الى الاكراه والاجبار في مجال اختيار السبيل ، لأن كل عاقل يعرف الطريق وكل منحرف مسؤول عن اعماله وكل مايصدر من الانسان انما يكون حصيلة عمله .

يقول الشاعر:

هذا طريق و بئر و عيون مبصرة وشمس

لينظر الانسان مواطئ اقدامه

و روي في اسباب نزول الآية «**لا إكراهَ في الدّين ...**» ان رجلاً من الانصار يدعى ابا الحصين وكان له ابنان فقدم تجار الشام الى المدينة يحملون الزيت ، فلما ارادوا الرجوع من المدينة اتاهم ابنا ابي الحصين فدعَوهما الى النصرانية فتنصرا و ذهبا الى الشام فاخبر ابوالحصين رسول الله (ص)

فانزل اللّه تعالى: **لا اكراه في الدين...**(٣٠)

وقال الاستاذ محمد عبده :

« اقول هذا هو حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من اعدائه - وفيهم من يظن انه من اوليائه - انه قام بالسيف والقوة فكان يعرض على الناس والقوة عن يمينه فمن قبله نجا ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه ، فهل كان السيف يعمل عمله في اكراه الناس على الاسلام في مكة ايام كان النبي (ص) يصلي مستخفياً وايام كان المشركون يفتنون المسلم بانواع من العذاب ولايجدون رادعاً حتى اضطر النبي واصحابه الى الهجرة ؟

ام يقولون ان ذلک الاكراه وقع في المدينة بعد أن اعتز الاسلام و هذه الآية قد نزلت في غمرة هذا الاعتزاز ... وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين لان الايمان هو اصل الدين و جوهره عبارة عن اذعان النفس ، ويستحيل أن يكون الاذعان بالالزام والاكراه و انما يكون بالبيان والبرهان ». (٣١)

الهوامش

(١) لسان العرب مادة خلق

(٢) فلسفة كانت < ترجمته > : ٢٧٧ ط طهران

(٣) تاريخ تمدن < الترجمة > : ٤ القسم الثاني: ١٣١١ ط طهران

(٤) سير حكمت در اروپا ١ : ١٤ ط طهران الطبعة الثالثة .

(٥) المصدر السابق : ١٥

(٦) بحار الانوار ٢ : ١١١ ط بيروت

(٧) المصدر السابق : ١٠٦

(٨) الرعد : ١١

(٩) تمدن اسلام و عرب : ٢٤١ - ٢٤٢ ط طهران

(١٠) ابراهيم : ١

(١١) الاسراء : ١٣

(١٢) البيان للامام الخوئى : ٥٠ ط ٣ بيروت

(١٣) وحي محمدي - رشيد رضا ترجمة خليلي : ١٧٤

(١٤) تمدن اسلام و عرب : ٥٣٧

(١٥) ذكر الكاتب الآيات في الهامش و ادرجناها

نحن في المتن تتميماً للفائدة–المترجم .

(١٦) الزمر : ٩

(١٧) البحار ١ : ٤٢ ط طهران

(١٨) فاطر: ٢٢

(١٩) الانعام : ١٨

(٢٠) آل عمران : ١٩٠

(٢١) الزمر: ١٧ - ١٨

(٢٢) الانبياء : ٥٢ – ٥٣

(٢٣) الانبياء :.٦٢

(٢٤) الانبياء : ٦٣

(٢٥) الانبياء : ٦٥

(٢٦) النحل : ١٢٥

(٢٧) آل عمران : ١٥٩

(٢٨) طه : ٤٣ – ٤٤

(٢٩) البقرة : ٢٥٦

(٣٠) مجمع البيان للطبرسي ٢ : ٣٦٢ ط طهران .

(٣١) المنار ٣ : ٣٦ - ٣٧

(*) يعني الكاتب بذلك المسلمين في الاندلس



الدكتور خضير جعفر



اذا كان التغني بالماضي المجيد يمثل في أحد جوانبه وجهاته اعتزازاً بما قطعته الامة الاسلامية من اشواط الرقي والتألق في اجواء حضارة القرآن والاسلام وافتخاراً بما سجّله فرسان هذه الحضارة الربانيه من انجازات تساوق المعجزات. فأن هذه الاعتزاز وذلك التغني والأفتخار يمثل من جانب آخر محاولة عقيمةللهروب من واقع التخلف والانحطاط الذي تغرق الامة الاسلاميه اليوم في بحار بؤسه، كما يمثل من وجهة نظر المتشائمين محاولة أو مؤامرة خطيره لتخدير الامة وصرف انظارها عن مواقع البؤس والتخلف والتدني المشين التي آلت اليها، وهي من خلال هذه الرؤية الرمادية وهذا التصور المتشائم لاتعدو كونها عملية تعاطي اقراص مخدرة تهب من يتناولها نشوة عابرة يجتاز بها أزمة نفسية مدمره تعتري الروح المحطمة والمعنويات الهابطة والنفوس المهزومة من الداخل وتعبر بها انفاق المحنة ودهاليز الظلمة الحالكة على أجنحة الخيال الى حيث الماضي السعيد كي لاتفكر بحل للخروج من النفق ولاترنو الى مستقبل سعيد يداعب اجفان ابناء الاسلام في أكثر مناطق عالمنا المعاصر.

ان التغني بالماضي المجيد يحمل بين طياته اكثر من سؤال حائر ربما لاتخلو الآجابه عليه من روائح غمز بناوسبة علينا

ووصمة عار يعاني من وخزها ضمير انساننا المسلم المعاصر حينما يرى' أمته العريقة التي صاغت نسيج ذلك التاريخ المجيد قد دارت عليها عجلة الزمان لترمي بها على قارعةالطريق فاذا بها في مصاف الامم المتخلفة التي ليس لها بتاريخ الحضارات خيط علاقة ولايربطها بالأمس المشرق رباط متين، اذ هي امم مقطوعة الجذور منبتة الأصول، لاتاريخ لها و لاماضي ولاحضارة ولاوجود، ولهذا فأن مجرد قياسنا بها أو قياسها بنا بؤس قاتل وهوان لايطاق ، والاً فكيف يطيق الحر الغيور أن يرى' أمته العريقة التي حملت مشعل الحضارات وبشرت بها العالمين قد آل أمرها لأن تصطف في خندق العالم الثالث او مايسمى' بالدول النامية والتي هي في واقعها بديل مهذب عن لفظة الدول المتخلفة وكأننا على خلاف امم الدنيا نسير الى الوراء و نتقهقر عن قصد والا فكيف يتأتى' لامة يقول عنها أصدق القائلين **«كنتم خير امة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»** (١) أن تتردى' الى الحد الذي تكون فيه واحدة من اكثر أمم الدنيا تخلفا وانحطاطاً بعد تلك القيمومة الحضارية على شعوب الأرض التي كانت يعوزها النضج وتفتقر الى الوضوح والرشد والسداد.

ان لغة الواقع تفرض علينا أن نعترف بتخلفنا وتردّينا وإن انكارنا الحقيقة وإحالة الواقع على ذمة الماضي وصفحات التاريخ الغابر ليس الا لونا من الوان المكابرة التي لاتحلُ مشكلة ولاتعالج داءً وهي شبيهة جداً باحاديث التجار المفلسين عن أيام زمان قد شهدت ازدهاراً لنشاطهم التجاري أنذاك فيما يعض الجوع والفقر والحرمان جنبات وجودهم اليوم ربما يجعل ألم الحرمان أشد وقعا عليهم مما يعانيه الفقراء والمحرومون الذين لم يتذوقوا طعم النعمة يوماً.

ولهذا فنحن حيثما نعترف بالتخلف ونصارح انفسنا بما نحن فيه من تردّ نكون قد وضعنا أقدامنا على بداية طريق الانبعاث الذي يؤدي بعون الله الى بوابات الخلاص والانعتاق . ذلك أن تشخيص الداء هو الخطوة الصحيحة على درب الاستشفاء لنعود بعدها كي نفكر بالعلاج ونحن على بينة من أمرنا والأمل يحدونا الى غد مشرق سعيد كأمسنا المجيد اواكثر اشراقاً وتألقاً.

ولايدري أحد متى' سيطل على'

الأمة الاسلامية زعيم اسلامي ليخاطبها بما خاطب به الرئيس الفرنسي السابق جيكار دبستان شعبه قائلا :

«نحن جزء من أقلية من شعوب الأرض التي نملك الغنى' على حين أن الأكثرية تعاني البؤس والفقر، ونملك الثقافة على ' حين أن الاكثرية تتمرغ في الجهل، و نملك الحرية على' حين أن الاكثرية مرهقة بالعبودية.»

أجل انها ثلاث كلمات سنظل نحلم بها اليوم وغداً ونتطلع الى من يخاطبنا بها بعد تحقيقها إيذاناً ببداية احتفالات جلا ء قوى' البؤس البغيض (الفقر والجهل والاستعباد) واستقرار معاني الغنى' والعلم والحرية مكانها لننفتح على' الدنيا ونحن نتسربل أثواب التقدم والحضارة والازدهار. وننفض عنا غبار التخلف والبؤس والانحطاط الذي عانينا منه طويلا.

وعزيز علينا أن نكون مصداقا لابشع الوان التخلف والتدني والانحطاط ويحزّ في النفس أن يطول بنا زمن التخلف وتمتد أحقابه وبما يحول بيننا وبين أن نكون أمة عظيمة كما أراد لها الله سبحانه فلا نبصر بعد طول العناء كوة أمل وفتحة انفراج تطل من خلالها الروح على ساحل نجاة ومرافىء خلاص من الكارثة التي تلفنا وتشل حركتنا فيما ينطلق العالم من حولنا وبسرعة فائقة باتجاه آفاق أرحب وميادين أوسع وبخطوات اكبر نحوالرقي فتزداد بيننا وبينه المسافات وتتناءى' الاشواط وتتعمق الهوة كل يوم حتى' كأننا لسناله بمعاصرين، حيث يزداد تقدمه ويتفاقم تخلفنا وهو مايتطلب منا وبحماس:

١- معرفة اسباب التخلف عبر خطة عمل ودراسات معمقة يبذل من خلالها المختصون جهودهم لاكتشاف تلك الأسباب والوقوف عليها

٢-ايجاد ألحلول العلمية والعملية مع ضرورة وضع برنامج عمل تفصيلي وواقعي موضع التنفيذ الدقيق والمباشرة الدؤوبة

٣- وجود الامناء المخلصين والمؤهلين لتسييرالخطة ود يمومة العمل بها وبنفس طويل وروح متفائلة

٤-استنفار كامل لكل الطاقات والامكانات وتوظيفها لخدمة المشروع ضمن تعبئة شامله لايستثني أيّا من المكنات في هذا الاتجاه

اسباب التخلف:

تفاوتت آراء الباحثين حول أسباب التخلف ولكنها لم تخرج عن دائرة الانسان والظروف الموضوعية ومدى التفاعل بينهما، فهناك من الباحثين من يحمل الانسان مسؤولية كل ما يطرأ على الحياة من متغيرات سلبا كانت أم ايجابا فهو سيدها و قطب رحاها و هو الاصل الذي يرسم ذاته على مفرداتها وصفحات وجودها.

وهناك من ينحي باللائمة على الشروط الموضوعية باعتبارها المسؤولة عن كل حدث وبما يجعل دور الانسان هامشيا منفعلا فهي السبب فيما يكون عليه الأنسان من تخلف وانحطاط أو تقدم وازدهار.

وبين هؤلاء واولئك من يعتقد -ولعلهم اكثر صوابية- بان العلاقة المتبادلة بين الانسان والشروط الموضوعية والتفاعل الجدلي بينهما (اذا صح التعبير) اكثر الأدوار والآثار في صياغة الحياة وتلوينها، مع ملاحظة الدور الفاعل والأساس للانسان في هذه المعادلة حيث لاتكون الظروف الخارجية والشروط الموضوعية من حوله قاسرة قاهرة له الابمقدار ماينحني لها ويستجيب لضغوطها والا فهي ليست ذات أثر تلقائي بقدر ماهي مرآة عاكسة لفعله وميدان متاثر بنشاطه، اذ لردة فعله اكبر الأثر في تغير اتجاهاتها ومسارات فعلها وآثارها شريطة أن يكون فاعلا لامنفعلاً ومؤثرا لامتأثرا، وبعبارة أخرى فأن للانسان اكبر دور في تسيير الطبيعة والحياة إن لم يبادر هو بنفسه الى الغاء دوره وتحجيم قد راته و قواه وهذا يعني بالضرورة أن يكون الانسان هو المحورفي التغيير والتطوير.

اتحسب انک جرم صغير وفيک انطوى العالم الاكبر! وهذا مايؤكده اصرار المنهج الألهي على تغيير الانسان وتطويره باعتباره محور النشاط في هذه الحياة وسيدها

«انّي جاعل في الأرض خليفة»

سخر له الطبيعة ومافيها وكرمه وفضله على سائر المخلوقات:

«ولقد كرّمنا بني أدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممّن خَلَقنا تفضيلا»

ولذلک حمّله المسؤولية وتبعات الاعمال

«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يَرَه ومن يعمل مثقالَ ذرة شرا يَرَه»

وهذا يعني لابدية أن تبدأ محاولات الاصلاح بالانسان نفسه فبقدر ما ينصلح أمره سوف تصلح الحياة وتستجيب الطبيعة وتتأثر تبعاً لذلك الشروط الخارجية ، وبقدرما يتردى' الانسان وينحط سوف تبرز أعراض التخلف وآثاره واضحة المعالم ملموسة السمات على' وجه الأرض وفي مختلف أوجه النشاط والفعاليات.

اسباب التخلف ودواعي الانحطاط:

الذين يؤرخون للحضارة يرون أن ظهور التخلف وبروز الانحطاط في الشرق الاسلامي كان متأثراً بعوامل أساسية أهمها:

١- تقدم العلوم والفنون والأداب والفلسفة الأوربية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مما تسبب في تضاؤل الاهتمام بالأرث الثقافي للشرق وانهزام الأنسان المسلم أمامه مبهوراً ليعرض عن الأرث الثقافي والحضاري الاسلامي وبما حال دون عمليه التواصل الحضاري بين أجيال المسلمين وقطع جذورهم التار يخية عن منابع حضارة عريقة كان بامكانها القفز بالمسلمين الى حيث الرقي والازدهار فيما لوتمثلوا مقولاتها وأحسنوا التواءم معها والاستثمار الجيد لمعطياتها.

٢- تزايد اعداد الرحّاله الغربين من ذوي الثقافة العالية وسعة الأطلاع المتجهين نحوالشرق الاسلامي ثم وصفهم المسلمين بالجهل والتخلف والضعف وبما فتح عيون الغربين على نقاط ضعف العالم الاسلامي ومن ثم استغلالها وتوجية الضربات الماحقة له

٣-تراجع القوة العسكرية لدولة الخلافة في تركيا و تضاؤلها، مما أنسى الغربيين شعورهم بالاعجاب المشوب بالخوف من المسلمين و شحذ أطماعهم بإتجاه السيطرة على بلدانهم و شعوبهم بعد أن تحول الخوف منهم الى تخويف لهم والرهبة منهم الى رغبة فيما لديهم، وهو مافتح الباب على مصراعية أمام حركة استعمار واسعة نشطة و شاملة اسهمت الى حد كبير فى تخلف المسلمين و تأخرهم و إن لم تكن هذه الحركة الاستعمارية سببا في تخلف المسلمين بقدر ماهى نتيجة طبيعية للتخلف. إذ ليس هناك من موطئ قدم للاستعمار والمستعمرين فوق أرض تعمرها الحضارة و يعمهاالتطور و يسودهاالرخاء و يقطنها الانسان الفاعل المتحضر الطموح الذي لايجرؤ المستعمرون على غزو أرضه

وسلب خيراته و إنتهاك حرماته و إستعمار وطنه.

إن الاستعمار يهاب الامم الراقية، و يخشى أن يقيم في أرض يرفض أهلها التخلف والذلّ والهوان فيما تنفتح اساريره وشهواته على أرض قوم متخلفين اهّلهم التخلف لان يكونوا نهزة الطامع و قبسة العجلان يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم و هى ما أسماها مالك بن نبى «القابلية على الاستعمار» و أطلق عليها سيد قطب «ضريبة الذل» التى تستدعي دفع استحقاقات التخلف والبؤس والهوان.

و يوعز الكثير من المستشرقين والباحثين الغربيين تخلف المسلمين إلى جملة أسباب أهمها:

١- الفساد الذى جره استبداد الحكام من جهة واستسلام المحكومين من جهة أخرى و هذا ما يراه المفكر الألماني هردر ويشير إليه فيكو الايطالي ضمن اطار نظرية فلسفة التاريخ التي سادت القرن الثامن عشر والقائلة «بأن الشعوب تمر بثلاث مراحل: مرحلة الالهة و مرحلة الابطال و مرحلة الناس العاديين وبالتالي فأنها تعرف بمرحلة إزدهار تليها بالضرورة مرحلة إنهيار» و هى نظرية إذا صحت تطبيقاتها على مجتمعات وثنية غابرة فلا يمكن أن تصدق على المجتمع الاسلامي اللهم الا إذا اعتبرنا هذه المراحل تعبيراً أوكناية عن عملية التزام المجتمع الاسلامي بالمثل والقيم (الالهية) التي جاءت بهاالرسالة الاسلامية والتي فجرت الحضارة إبان عصرالفتوحات (البطولات الاسلامية) والتي تضاءلت فيمابعد من خلال تسلّم القيادة والحكم من قبل أناس غير مؤهلين أو (الناس العاديين) و بما استلزم انعطافاً في مسار الحضارة الاسلامية من حالة الازدهار التي شهدتها هذه المسيرة الحضارية إلى حيث مرحلة الانهيارالتي آلت إليها جراء الانحرافات التي مارسها غيرالمؤهلين من القادة المستبدين.

و هذا ما يؤكده مونتسكيو الذي يرى «بأن انحطاط الشعوب الاسلامية يعود إلى الاستبداد السائد» و يتبنّاه فولتير الذي يعتقد «بأن الخطأ ليس خطأالشعوب بل هو خطأ الحكم الكريه الذي يخضعون له ويكفي أن تحسن سياسة هذه الشعوب بحكم صالح حتى يرتقى مستواها مباشرة بحكم الحرص الغريزي في الناس على الوصول إلى وضع أفضل». (٢)

٢- الترف والميوعة و حالة الاسترخاء التي مني بها المجتمع الاسلامي جراء

حصولهم على الثروات الطائلة في أعقاب الفتوحات الاسلامية الكبرى وهو ما يميل إليه المفكر الألماني هردر في القرن الثامن عشر.

٣- الصراع المذهبي والديني داخل المجتمع الاسلامي و حالات الاحتراب والتناحر بين المسلمين أنفسهم بعد توقف حركة الفتح الاسلامي حيث يقول غوستاف لوبون في هذاالصدد: «لما لم يجد المسلمون بعد انقطاع الفتوحات من يحاربونه بدءوا حروباً داخلية متصلة فيما بينهم ، و أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو ويتضح و صارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت».(٣)

٤- المحن التي ابتلي بهاالعالم الاسلامي جراء الغزو الأجنبي لديارهم (٤) كانت سبباً واضحاً في ما آل إليه وضعهم من تخلف و انحطاط يضاف إلى ماتقدم فأن المتتبع لدراسات الباحثين في القرنين السابع عشر والثامن عشر يعثر على قاسم مشترك لأبحاثهم حيث يكادون أن يجمعوا على نقاط مركزية حينما يحمّلون الدين مسؤولية التخلف والانحطاط الذي مني به المسلمون و كأنه سرّ تخلفهم اولاً والعرق و خصائصه المتدنية ثانياً، و هى احكام يقودها الجهل و يدفعها التعصب و يحركها العداء الذي يخلق احكاماً عن سبق اصرار لا يمكنها أن تصمد أمام النقد والتحليل، والاّ فأن علم النفس التطبيقي او التشريح النسيجي والتطورالعلمي أثبتت كلها بطلان نظرية التفاوت و سخر منها وبما يسقط فكرة العرق الممتاز والعرق البشري المنحط.

اما الاستقراء المنطقي لما عليه العرب والشعوب الاسلامية قبل اسلامهم فيؤكد وبما لامجال فيه للشک من أن النقلة الحضارية التي صنعها الاسلام لهذه الشعوب كانت عظيمة ورائعة و بما لامجال معها لقياس وتناظر بين احوال المسلمين والعرب قبل اسلامهم و بعده و على مختلف الاصعده، إذ قفز بهم الاسلام من الجاهلية بكل ما تحمل به من بؤس وتخلف وامتهان الى حيث التقدم والعز والتحضر والكمال وهو امر جلي لا يمكن لغرابيل التعصب أن تخفي وضوحه وجلاءه المنظور.

وإذا كانت هذه هى اسباب تخلف المسلمين برأى الباحثين الغربيين فأن لعلماء المسلمين أنفسهم و مفكريهم آراء ووجهات نظر حول اسباب تخلف العالم الاسلامي قد تلتقي مع آراء الغربيين والمستشرقين حيناً وتفترق عنها أحياناً. و تكتسب آراء المفكرين المسلمين في هذاالصدد أهمية خاصة بسبب

استيعابهم وفهمهم لروح الشريعة و مقاصد الدين وأبعاد الحضارة الاسلامية اولاً وبسبب كونهم شهود عيان على ما يعج به المجتمع الاسلامي من تفاعلات واحداث سواء على البعد التاريخي أو الظرف الراهن ثانياً وهذا ما يجعل آراءهم و تصوراتهم أقرب للواقع و أكثر مطابقة للصواب و من هنا فهم يحملون اسباب تخلف المسلمين و انحطاطهم بما يلي:

أ- الفهم الخاطئ للدين من قبل المسلمين وما ترشح عن ذلک من اعتقاد بالجبريه التي جرّتهم الى التواكل وصدتهم عن العمل وزهدتهم في مطالب الدنيا وصرفتهم عن مباهجها . والى هذا المعنى أشار السيد جمال الدين الافغاني في رده على محاضرة المفكر الفرنسي رينان والتي القاها في السوربون في آذار عام ١٨٨٣ حول «الاسلام والعلم» والتي تضمنت احكاماً قاسية على الاسلام ونشرتها جريدة الديبا Debats حيث رد السيد جمال الدين على هذه الاتهامات في نفس الجريده معرباً عن امله في أن «يرى الشعوب الأسلامية تتحرر قريباً من ربقة الدين الغنيف» (٥) والافغاني يعني بذلک دون أدنى شک ذلک النوع من التدين الذي ساد في عصورالانحطاط وكان صورة لهم ولما هم فيه من جهل وتأخر اكثر بكثير مما كان صورة للدين الذي انزله الله تعالى أو وجهاً من وجوه القرآن والسنة وهذا هو مالم يدركه الغربيون والمستشرقون حينما يدرسون الاسلام ويبحثون فيه.

ب- قيام الحكومات المستبده منذ عصر بني امية وحتى آخرالعهد العثماني(٦). وهي فتره طويلة سلبت المسلمين حريتهم وافقدتهم الأمن والعدالة والمساواة مما اثار اليأس في النفوس والتخاذل عن طلب الحقوق ونحوذلک من اسباب يتظافر بعضها مع بعض وترتد في نهاية الأمر الى استبداد الحكام (٧)

ج - الفردية: وهي مرحلة متدنية من مراحل النضج السلوكي درج عليها انساننا المسلم رغم كل التأكيدات التي جاءت بها الشريعة الاسلامية لتذويبها والتخلص من ويلاتها . وهي تحتل موروثاً سلبياً لحياة البداوة وبقايا جاهلية مقيتة عشعشت في الزوايا المظلمة للنفس الانسانية وعتمت عليها تربية اجتماعية وقبلية خاطئه حجبت أشعة النور الحضاري التي اشرقت بها رسالة السماء عن أن تنير دهاليز النفس البشرية المعقدة، واعانها على البقاء انظمة حكم

متعاقبه تغافلت عن روح الشريعة الاسلامية الداعية للأخوّه والحبّ وبناء الحياة على اسس من التنظيم الاجتماعي وليس التناشز والنفور والوحده والانزواء والفردية، وقد أسفر ذلك عن حالة صدام واصطراع بين تفرد مثالى أريحي يريده الاسلام وفردية غريزية مقيتة متخلفة درجت عليها الحياة البدوية المقطوعة الجذور بالحضارة والتمدن. وبذلك تركزت الفردية الغريزيه في منهج السلوك الاجتماعي العام وانزوت حالة التفرد المثالي لتصبح استثناءات نادرة تحتل قمة السمو والنضج الاخلاقي والسلوكي، وحينما تتركز الفردية في السلوك فلا ترشح عنها الاغفلة الانسان عن عالمة الخارجي بما في ذلك مجتمعه الذي يعيش فيه ويتعايش معه وبما يفقده التلاؤم مع الواقع والمجتمع والآخرين، ولهذا فالفردي لايتعايش مع الآخر الا حينما يخضعه لسلطانه ان استطاع والا تجاهله وغفل عنه وأهمله عن عمد او دون عمد . وهذا هو بعينه ما افقدنا الروح الجماعية والمسؤولية التضامنية التي بأمكانها لو وجدت أن تسيّرالمؤسسات العامة وتحكم سيطرة الضوابط والقيم والمعاني في المجالات القضائية والسياسية والادارية والاجتماعية والاقتصادية بل وكل انشطة الحياة.

ان الفردية اعلت الذات الى المستوى المطلق و درجة التأليه و صيرت منها حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، و هذا هوسر التناحر بين الطوائف و الفرق الاسلامية عبر امتدادات التاريخ فالخوارج لا يجدون في أنفسهم شيئاً غيرالحق والصوفيه لايرون انفسهم الا الذات المطلقة وإن كانت في حالة فناء و احتراق و مثلهم الاشاعرة الذين لا يعثرون على الحق الا في مقولاتهم و كان الحق حكر عليهم دون سواهم ولذلك قضوا على من يخالفهم الرأي كلما وجدوا قوة تدعم حقهم المزعوم و بذلك لم يكونوا -حسب زعمهم-'طوائف وفرق وحركات بقدر ماكانوا حقائق و بديهيات ومطلقات.

اماالمعتزلة الذين كانوا ينادون بحريةالعقل وسلطانه فقد تحولوا بعد امتلاكهم القدرة الى نماذج للارهاب الفكري والاضطهاد العقائدي حينما صادروا عقول الاخرين وفرضوا عليهم عقولهم وآراءهم و عقائدهم وكأن الله أبى أن يجعل العقل في غير رؤوسهم. و حتى نحن لم نكن بمنأى عن هذه الفردية التي لا ترى معها أخرفما عندنا مطلق لا شك فيه و ما عند سوانا

باطل محض لا يحتمل الصواب، ومن يخالفنا أو يختلف معنا فكأنما خالف الحق واختلف مع الحقيقة المطلقة، ولذلك نشطب على الاخرين أو نلغي رأيهم و دورهم و كأننا مع الحق والحق معنا و مثل هذاالامر لا يقتصر على المجال العقيدي بل يمتد ليشمل حتى أبسط الاراء حول اتفه الامور والأحداث. ان مثل هذا القطع الذي لا يقبل النقاش مردّه الاغراق في الفردية التي ضيّعت علينا و ستضيّع فرص العمل الجماعي والجهد المشترك وتحول دون قيام المشاريع الكبرى والاعمال التاريخية التي لا يمكن أن تنهض بها الا امة أو أمم متظافرة.

لقد أفرزت الفردية ضعفاً شاخصاً في الشخصية وتسبب في انزلاقها في دهاليز الانفعال وانفاق الانغلاق، ولذلك من الصعب أن نطلق على مجتمعاتنا مجتمعات عقلانية بعد أن فقدنا بتأثير الفردية المنهج العلمي والفكرالعملي والتخطيط السليم وبعد النظر وحسن التنظيم وروح المسؤولية ومناخ الحرية واجواء الانفتاح بعد أن أغلق العقل الفردي النوافذ والابواب على نفسه ولم ينفتح على الاخرين الا بمقدارما يكرس ذاته، فتحولت تبعاً لذلك الاهداف الشخصية الذاتية الى غايات واللذه المادية الى مبتغى فضعف الخلق العام و تهدمت أركان التماسك الاجتماعي وعطلت أهم منطلقات الابداع والنمو والتنظيم في حياتنا و عندها فلا بديل للابداع غير التأخر و للتنظيم سوى الفوضى العابثة وللنمو الا الانحلال والاضمحلال و هوماحدث فعلاً.

والا فلماذا نمتلك كل أسباب التغلب على التخلف فلا ننتصر عليه ولماذا لايشهد العلم والادب والفن والتربية والصناعة والزراعة والتكنولوجيا والعمران والطرق والمواصلات قدراً من التحول الايجابي نحو الافضل؟ بل لماذا تخسر مصانعنا فيما تربح مصانع الاخرين في العالم المتقدم ولماذا تزدهر المؤسسات العامة عند سوانا فيماتتردى مؤسساتنا العامة على ايدينا ولماذا تعيش المجتمعات حياة التكافل والتضامن وتقطع أشواطاً بعيدة في مضمار الرقي بينما نعيش الفوضى والتناحر والاصطراع والتمزق والانحطاط؟ الا يدلل كل ذلك على أن اولئك يعيشون في مجتمعاتهم بروح جماعية ونحن نعاني من فردية قاتلة بحيث يحسبناالرائي جميعاً وقلوبنا شتّى؟.

وإذا كان المفكرون المسلمون من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد

عبده والكواكبي وآخرين قد طرحوا مثل هذه الرؤى والتصورات في هذا الخصوص فأن النصوص التاريخية تؤكد أن إبن المقفع كان قد سبقهم في تشخيص أسباب تخلف المسلمين حينما اجملها في كتابه «رسالة الصحابة» الذي قدمه للمنصور العباسي إبان خلافته والتي أرجع فيها اسباب انحطاط المسلمين الى الفساد الاداري والاجتماعي والسياسي الذي كان سائداً طيلة سنوات الحكم الاستبدادي وبما أفرز عدة ظواهر خطيرة صارت تهدد الحياة بالتخلف وتزيد من سوء الاوضاع وتعجل في الانحطاط وأهمها ما يلي:

١- غلبة الروح الانتهازية وبما صيّر من صحابة الخليفة أناساً ليسوا من المأمونين والموثوقين وأهل الكفاءة وهي ظاهرة تكفي لوحدها أن تجلب الويلات والدمار والبوار.

٢- تعطيل القانون والاستهانة بمقرراته وتجاوز أحكامه وبنوده إذ «كل قاض يعمل برأيه فيحلل هذا مايحرمه ذلك بلا ناظم أو قانون مثبت» وبما يعني أستبدال القانون بالمزاج والأهواء وهو ما لا ينتج الا ضياع الحقوق وفقدان الاستقرار وإنتشار الفوضى المدمّرة.

٣- تفشي الظلم والجور والتعسف والارهاب على ايدي رجال السلطة ومسؤوليها وهذا مايشير أليه إبن المقفع بقوله (وإن رؤساء الجند يكلفون امورالجباية فيعتون ويتعسفون) و أنى لمجتمع يعيش تحت ظلال الارهاب أن يبدع أو ينتج أو يتطور.

٤- تفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة فيقول «ويلتمسون المنافع لأنفسهم لا لمصلحة الرعية» وهذا مايحول بين المجتمعات والتقدم وهي ترى المسؤولين فيها والقائمين على امرها أنانيين ضيقي الأفق لا يفكرون بأحد سواهم.

٥- ضياع المعايير والقيم والضوابط التي ينبغي لها أن تحكم المجتمع والحياة الادارية والسياسية في البلاد حيث يقول (وأن من المجهولين من الناس والجند من هو أفضل من بعض قادتهم) وبما يعني انهم لم يضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب، ولو وضعوا الرجل المناسب في مكانه المناسب لكانوا «عدة وقوة وكان صلاحاً لمن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة» (٨)

وهذا ماأفرز تسلق قيادات محدودة القابلية ضعيفة المستوى متدنية الكفاءة شكلت مع مرورالزمان و طول الفترة عائقاً

يحول دون نهوض الامة الاسلامية، إذ ليس بمقدور القيادات غيرالكفوءة و غيرالمؤهلة أن تتحول جراء تسلمها زمام الامور إلى قيادات تاريخية قادرة على دفع مستوى من تقودهم من الأمم والشعوب وتفتح أمامهم المجالات والفرص التاريخية للنمو والتقدم والازدهار. بل هي على العكس من ذلك تماماً بحيث ستكون سداً حائلاً دون تفتح القابليات وتطورها إذ بالقيادة تنهض الأمم أو تخور. وقد نهضت الامة الاسلامية ووثبت إلى قمة التاريخ حينماكان يحدو ركبها قادة اكفاء صالحون، بينما انتكست الى القاع حينماافتقدت المثل الاعلى والقدوة الصالحة الحسنة «ولكم في رسول الله أسوة حسنة» (٩) حيث حرك بهمته العالية الجموع البشرية الرابضة على وحل التخلف والجهل و حدابها الى حيث الكمال والعلم والمدنية فمضت متسارعة الخطى لتبشر بالنور الحضاري المتقد وتمكنت من فتح اقطار الأرض وأبواب القلوب وتحدت معسكرات الجاهلية وحطمت تيجان الطغاة وقلاعهم وقواهم لتقيم على انقاضها دعائم الحضارة وأسس العدالة والخير والسلام.

وما أن غابت القيادات الحكيمة الكفوءة او غيبت حتى بدأت وتائر الحضارة الاسلامية ومعدلات نموها تشهد تراجعاً حاداً وانكفاءً ملموساً أفرزته سياسة الكبت والقمع ومصادرة الحريات على ايدي الحكومات المستبدة التي عجزت عن اقناع الأمة بقدرتها على القيادة فلجأت إلى العنف والقهر والإضطهاد، وهي سياسة لايمكنها أن تأتي بخير وأنى للأمة المضطهدة المقهورة أن ترى الخير حينما تسلب منها الارادة و تصادر الحرية، ذلك لأن الأمة الخائفة الملاحقة لا تجيد الا الاختفاء والتواري والانزواء أو الظهور بمظهر المصانع المنافق الموائم لإرادة المستبدين وأهوائهم على أحسن التقادير، يتساوق ذلك مع ولادة البدع واختلاق الخرافات التي تحول دون الوعي والتقدم والتنمية خاصة اذا تزامن ذلك مع محاولات تسخير لكهنة الانحراف الديني وهم يمارسون لعبة (ترويض الخلق لاتحرير الفكر) (١٠).

وحسب المرء أن يستقرئ أوضاع الامم والشعوب التي حكمها الطغاة المستبدون ليرى ما آلت اليه تلك الأمم من تدهور وتخلف وانحطاط ولهذا فليس غريباً أن ينال امتنا الاسلامية ما نالها من تدهور وانحطاط جراء تسلط الطغاة المتفرعنين الذي قتلوا في الأمة ارادة النهوض واغتالوا طموحها في

السمو والتقدم والارتقاء. فظلت مشغولة الفكر بهمومها وجراحاتها ومعاناة ابنائها مصروقة الذهن عن رسالتها واهدافها ودورها في الحياة.

صور التخلف

مهما تعددت صور التخلف والانحطاط في عالمنا الاسلامي فسوف يظل ثلاثي الجهل والفقر والمرض في رأس قائمة هذه الصور المرعبه، فالأمية لازالت كابوساً على' صدور ابناء الأمه يحول بينهم وبين رؤية نور العلم واضواء الحياةالمتقدمة إذ لاتبرح نسبتها تفارق الـ ٥٠ ./. رغم كل الجهود الانفعاليه المبذوله في هذا الصدد، وحتى' لو تخلّصت الأمة من الأميه الهجائية وهو أمر عسير فانّ الأميه الحضارية ستبقى' داءً حضارياً مزمنا لاينفك عنا. حيث نفتقر الى' حسن التلاؤم مع الواقع والتعايش مع الحياة كما ينبغي، ولازال عداؤنا للدين أوجهلنا به أو إهمالنا له أوسوء فهمه والاستفادة منه كارثة تفصلنا عن حضارة السماء وتحول دون انطلاقنا في ميادين الكفاح نحو الرقي والكمال. مع علمنا بأنه السبيل القويم لتحقيق الأهداف الكبرى'، اما الصناعات والصناعات الثقيلة فلا وجودلها بالمعنى' الدقيق في بلداننا بل نحن عاجزون حتى' عن إصلاح ما يعطل من الاجهزة المستوردة

وباختصار فان تخلفنا لم يعد مقتصراً على' جانب واحد من جوانب الحياة كى يشبع بحثاً وانما هو تخلف يشمل الحياة كلها وعلى' مختلف الأصعدة الاجتماعيه والعمرانية والاقتصادية والادارية والعلمية والعملية والدينيّة والفكرية.

والذي يثير الاستغراب هو أننا أمة تملك كل اسباب التقدم ولكنها لم تحرك كوامن القوة في ماتملك فنتحول كل هذه الاسباب والممكنات الى' قوة فاعله مؤثرة ومنتجة فنحن نملك موارد هائله حباناالله بها، اذ تطفو أرضنا علي' بحار من الخيرات وكنوز من الثروات ولكننا لم نحسن استثمارها وكأننا كمن لايملكها من الدول الفقيره البائسه.

لدينا سيولة نقدية تغرق اسواق العالم الماليه ومصارفه ومؤسساته وتحرك عجلة الاقتصاد والصناعة فيه فلا نعرف كيف نشغلها فيما يدر علينا ربحاً وبطريقة سليمة منتجة وتحت ايدينا أهم ممّرات العالم المائية وطرق مواصلاته كما يبلغ تعداد نفوسنا ربع سكان العالم مع ملاحظة أن نسبة القوى' المنتجه بين هذه الاعداد البشرية هي

أعلى' من نسب المنتجين والذين تتراوح اعمارهم مابين ١٨-٥٠ عاما في كل انحاء العالم، ولدينا مساحات شاسعة من الاراضي تؤهلنا لأن نقيم عليها دعائم مدنية متقدمة وحياة متطورة جديرة بالاحترام، هذافضلا عن امتلاكنا للمقومات الروحية التي أفاضها الاسلام وهو ماتفتقر اليه الدنيا كلها وتعاني من نقص فيه.

اننا بحاجة الى من يتظافرون لتحويل كل هذه الممكنات والمفردات الى خميرة حضارية يصبها التنظيم في قوالب الحياة المعاصرة وفق رؤية علمية وحسابات دقيقة وعلى' ضوء منهج سليم للانطلاق نحو الهدف وتحقيق الحلم والطموح على' درب الكمال والتطور والازدهار. وفي غير ذلك سنبقى' رهائن تخلف واسرى' انحطاط تابعين في آخر الركب البشري وهو عار لايضاهيه عار وذل لايناظره ذل وهو ان لايدانيه هوان. واذا ما قعدت بنا الهمة عن حل مشاكل اوضاعنا الراهنة فأن مشكلات المستقبل التي اعدّها العالم ما أمكنته القدرة والقوة سوف تلقي بظلالها الثقيلة على' أمتنا وهي خالية اليدين مما يدفع عنها الضرر أو يقلل من الاخطار، واهم مشكلات العالم المستقبلية والتي سيكون لنا منها نصيب كبير باعتبارنا جزء من هذا العالم أولا ولأننا لم نتأهب لمواجهتها كما ينبغي ثانياً هي:

١- موارد الطاقة الآيلة للنفاد والتي يقف البترول على' رأس قائمتها، وهي حقيقة لامحيص عنها دفعت دول العالم المتقدم للاستعداد في مواجهتها، وها هي تلك الدول تستقبل القرن القادم بما أعدته من بدائل كالطاقة الشمسية والنووية وغيرها فيما تقف امتنا الاسلامية -والتي يعنيها الأمر اكثر من غيرها بأعتبارها تمتلك اكبر خزين نفطي- واجمة حائرة لاتدري ماذا تعمل اذاما فاجأتها العقود القليلة القادمة بأزمه نفاد نفطها ونضوب آباره، فلاهي استثمرت هذه النعمة الآلهية استعداداً لمستقبل بلانفوط ولاهي تأهبت كغيرها من دول العالم لذلك اليوم العسير. انه الاستسلام الكامل للخطر الداهم ولاشئ سواه، ومايدرينا فلعل المتصدّين لايصدقون أولايريدون أن يصدقوا ماتتحدث به الأرقام والاحصاءات العلمية الدقيقة والتي تؤكد بأن القرن الحادي والعشرين لايؤذن بانصرام الا وآبار النفط قد نضبت وانتهت أيام عزها وغرورها.

والمؤسف هنا أن العالم المتقدم الذي قد استنفر كل قواه وشحذت هذه المشكلة

المستقبلية وتحدياتها الخطرة همة رجاله وقياداته وأولي الأمرفيه فتسلح لها بالعلم والتكنولوجيا والخطط المدروسة والبرامج العملية والاستعدادات اللازمة فيما يغرق المعنيّون من مسؤولي العالم الاسلامي في دوامة التواكل وبحار الاستسلام ليواجهوا المشكلة حيارى! عاجزين تلفهم غيبوته الحيرة التي تمثل أبشع حالات التخلف والانحطاط والا فكيف يتوقع ممن يعجز عن معالجة مشكلات الساعة أن يكون حلالاً لمشاكل القرن القادم.

ان العالم المتقدم وهو يفكر بطموح يمتد الى! ماهو أبعد من مائه عام يقابله عالمنا المتخلف الذي لايفكر بمواجهة موت أويلاء قادم بعد مائه يوم.

كما أن الأمة التي تصدر ملايين البراميل من نفطها الخام بأسعار زهيدة لتستورده مصنعاً بأثمان مضاعفة غير مؤهلة لآن توجد بديلاً لطاقاتها النافدة بعد قرن من الزمان، وهو ماينبئ بمستقبل بائس سوف تتخطى أهله حضارة القرن القادم غير مأسوف عليهم لأنهم لايصلحون أن يكونوا سكان أرض تعيش قرنها الحادي والعشرين او الثاني والعشرين بعد ميلاد السيدالمسيح (ع)

٢- مشكلة تزايد السكان حيث يتضاعف سكان الأرض مرة كل عشرين عاماً واذا كان التزايد السكاني في العالم المتقدم يقابله نمو وتقدم تكنولوجي مطرد فأن الذي يجري في عالمنا المتخلف يتلخص بفقدان التوازن والتوازي بين صور النمو حيث ينمو عالمنا الاسلامي سكانياً بنسبة فوق أسيّة ولِوَتائر ومعدلات عالية فيما لاتسجل موارد العيش والطاقة والانتاج الا نمواً بطيئاً، بينما الواقع معكوس في العالم الغربي فمعدلات نموه السكاني واطئه بينما تتضاعف قدراته الانتاجيه تبعاً لتقدم وسائله المنتجه. فاذا كانت المساحه النظرية الكافية لاطعام فرد واحد في نظام الالتقاط والصيد البدائي اصبحت تكفي ١٥ الف شخص مع استخدام الوسائد الحديثه، أي ان مايكفي لشخص واحد صار يكفي لخمسة عشرالفاً (١١). (انظر احتدام النمو: ريمي شوفان العالم الثالث في مواجهة البلاد الغنية (انحلوس انحلوبولس) يقابل ذلك تخلف في الانتاج لم نصل حتى! الى ما كنا ننتجه قبل اثنى! عشر قرناً وبوسائل بدائية متخلفة اذ كان العراق مثلاً يطعم أبان عهد الرشيد ٣٠ مليون شخصاً بينما هو الآن يستورد القمح والفاكهة وحتى!

الخضار، والسودان تسمى' سلة الغلاّت وشعبها يجوع ومثلهما بقية البلدان الاسلامية الآخرى'. ان صور الانفجار السكاني مرعبة حقاً اذا علمنا بأن سكان العالم في بداية القرن السادس عشر كانوا حوالي ٤٠٠ مليون وصاروا ملياراً في بداية القرن التاسع عشر وبلغوا عام ١٩٦٠ ثلاثة مليارات واصبحوا في عام ١٩٧٤ اربعة مليارات وسيكون ٦ مليارات في عام ٢٠٠٠ على امل ان يكونوا ١٢ ملياراً عام ٢٠٢٥. وجدير ذكره هنا ان النسبة العالية للسكان ستكون من حصة العالم الاسلامي فماذا أعددنا لضيوفناالجدد من ماء وغذاء ودواء ومصحات ومؤسسات ثقافيه وابنيه ومشاريع وخطط و اقتصاد وطاقة. السنا مسؤلين عنهم ؟ ثم الا يعني ولادة هذه المليارات اضافة جيش جديد على' عبء تخلفنا وبؤسنا ؟ الايعني ذلك اننا ادخرنا لهم البؤس واورثناهم التخلف والأنحطاط وهل فكرنا على الأقل بحل مشكلة التزايد السكاني؟ إن الأمر متروك للغيب ام اننا في غيبوبة؟

٣ -التوازن في النمو اذ يبلغ متوسط الدخل للمواطن العربي ٧٤٥ دولار يقابله ٤١٠٠ كمتوسط دخل في اوربا و ٦٠٨٠ دولار في آمريكا (انظرنقولاسركيس، البترول في الساحة العربيه: ١٢٩)في السبعينات. وهذا الفرق في المعدلات يشهد تفاوتاً متسارع الخطى' وبما يعني اتساع الهوّة بين الاغنياء والفقراء بصورة مرعبة وبما يعادل في السنوات الآخيرة نسبة١/٢٠ بينما النسبة بين البلدان الغربية (امريكا واوربا الغربية واليابان واستراليا) قياساً ببلدان امريكا اللاتينية ١/٨

واذا ما عرفنا ان الدول العربية هي اغنى' دول العالم الاسلامي بسبب العائدات البترولية فحتى' هذه العائدات ورغم ارتفاع نسبها عام ١٩٧٤ الى حدود ٦٢مليار دولار فهي لاتعادل بمجموعها صادرات المانيا للعالم في العام نفسه والتي بلغت ٩٠ ملياراً، وهي لاتعادل إلا ٠٥/٠ من الانتاج القومي الامريكي و١٤/٠ من انتاج اليابان. واذا ماعرفنا أن شبكة المواصلات البرية التي تكلف مائة مليار دولار لربط الدول الخليجية والسعودية واليمن بالبحر المتوسط لعرفنا ان ثروة المسلمين لاتكفي لحاجاتهم الضرورية وبالتالي لاتسعفهم للقيام بنهضة حديثة تتناسب وحالة التطور العالمي المعاصر، فكيف بها بعد التخلف في استثمارها وعجز قياداتها عن الاستفادة

الصحيحة منها حتى! تحولت الى رؤوس أموال تحرّك عجلة الأقتصاد الغربي، وبما تنعدم معه نسب النمو والتوازن بينمانحن فيه وماعليه البلدان الغنية المتقدمة.

يقول «ميها جلو زيرافيك» في كتابه (استراتيجية للغد) وهوالتقرير الثاني المرفوع الى نادي روما: ان الناتج الوطني العام للأمم المتحدة سيكون عام ٢٠٢٥ ثمانية الاف مليار دولار تقابل الفي مليار لكل الامم المتخلفة (والعالم الاسلامي منها طبعاً) وبما يعني ان١/٦ من سكان الارض (الامم المتقدمة) ستربح اربعة اضعاف الخمسة اسداس الباقية (المتخلفة)، وليس هذا غريباً اذا ماعرفنا بان سكان امريكا والذين يشكلون ٦٠/٠ من سكان العالم ينفقون ٣٥/٠ من الطاقة العالمية المتوفرة فعلاً، وان مستوى! دخل الفرد الامريكي يزيد ١٥ مرة عن متوسط الدخل في الدول العربية النفطية، فكيف اذا ماضيفت لها معدلات بقية الشعوب الاسلامية ، من الدول غير النفطية في آسيا أفريقيا. وهكذا فالدول المتقدمة في نمو مطرد ونحن في تراجع رهيب وانظروا كم ستكون الفاصلة بين تقدمهم وتقهقرنا، هذا اذا ماطرحنا الحروب والتي ماانفكت تنهش اقتصاديات امتنا وتقضي على كل امل له في النمو و الانطلاق.

الهوامش

---

(١) آل عمران: ١١٠ .

(٢) بين التخلف والحضارة، لحافظ الجمالي: ٧٥

(٣) حضارة العرب خوستاف لوبون:٧٢٣.

(٤) التاريخ العام للعرب، لسيد يلوت ط:١٨٥٤.

(٥) بين التخلف والحضارة لحافظ الجمالي: ٧٨ دمشق ١٩٧٨م.

(٦) م.ن ص:٧٩.

(٧) الفكر العربي في مائة سنة ص:٢٨٤ عام ١٩٦٧، منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت.

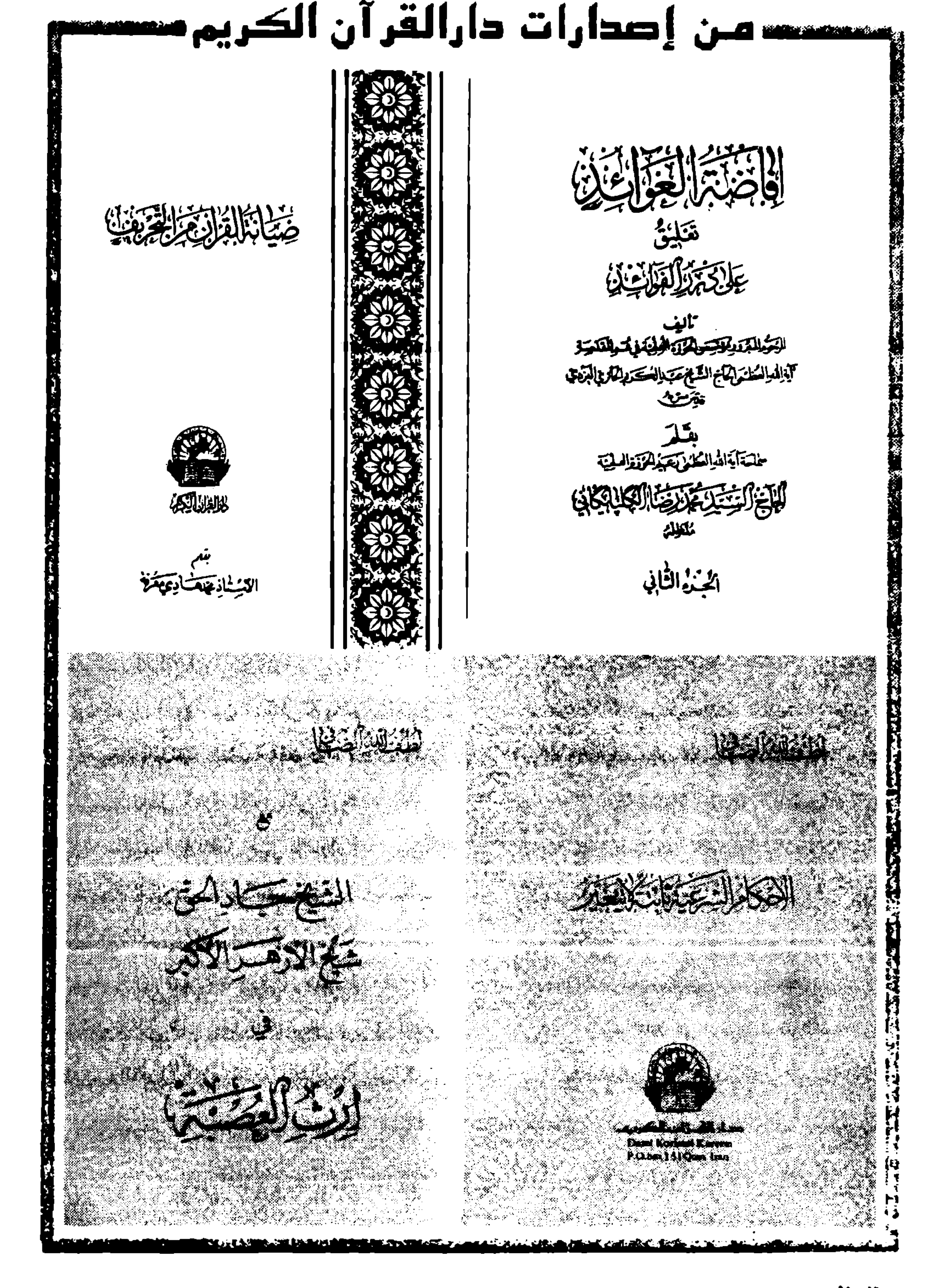
(٨) المجموعة الكاملة لأبن المقفع، منشورات مكتبة البيان، بيروت.

(٩) الاحزاب: ٢١.

(١٠) قصة الحضارة، دل ديورانت:٧/٤١ .

(١١) أنظر أحتدام النمو، ريمي شوفان، وانظر العالم الثالث فى مواجهة البلاد الغنية «انجلوس انجلوبولس».

من إصدارات دار القرآن الكريم



أخبار قرآنية

اعداد: حسن فرقاني



إقامة مسابقات حفظ وتلاوة القرآن الكريم في الجمهورية الاسلامية

بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، أقامت منظمة الاوقاف والامور الخيرية، الدورة الثالثة عشرة للمسابقات السنوية لحفظ وتلاوة القرآن الكريم في شهر ربيع الاول لعام ١٤١٢هـ (الموافق لشهر مهر لعام ١٣٧٠ش) في مدينة باختران. وقد استمرت هذه المسابقات، التي تعتبر من كبرى مسابقات حفظ وتلاوة القرآن الكريم، ثلاثة أيام وشارك فيها أكثر من ١٢٠ من أشهر القراء والحفاظ في الجمهورية الاسلامية وأقيمت هذه المسابقات في ليلة المولد النبوي الشريف، حيث إفتتحت بعزف السلام الجمهوري الاسلامي، ثم ألقى ممثل قائد الثورة وإمام جمعة باختران كلمة ترحيبية بالمشاركين، إبتدأت بعده المسابقات على أربعة مراحل وهي: حفظ عشرة أجزاء، حفظ عشرين جزءً وحفظ القرآن بتمامه، وتلاوة القرآن الكريم.

وفي مراسم أقيمت بمناسبة اختتام المسابقات، أعرب ممثل قائد الثورة في منظمة الاوقاف والامور الخيرية عن شكره

و امتنانه لمسئولي إدارة الاوقاف وممثلي الاذاعة والتلفزيون في مدينة باختران وللعاملين في قسم الثقافة والمعارف في تلفزيون الجمهورية الاسلامية لما بذلوه من جهد وعناية في إقامة المسابقات وفي تغطيتهم للاخبار المتعلقة بها.

وفيما يلي أسماء الفائزين في هذه المسابقات:

أ- مرحلة حفظ القرآن الكريم بتمامه:

١- محمد جواد نعمت اللّهي من محافظة طهران.

٢- حميد درايتي من محافظة خراسان.

٣- محمد كاظم بافتي گرامي من محافظة خراسان.

ب- مرحلة حفظ ثلثي القرآن الكريم:

١- رضا عابدين زاده من محافظة خراسان.

٢- أمان طواق ديباثي من محافظة مازندران.

٣- أحمد مرادي من محافظة خراسان.

ج- مرحلة حفظ ثلث القرآن الكريم:

١- حسين طرقي من محافظة طهران.

٢- محمد صادق نصر اللّهي من محافظة خراسان.

٣- عبد الرضا معيني من محافظة خراسان.

د- مرحلة تلاوة القرآن الكريم:

١- السيد حميد هروي من محافظة خراسان.

٢- مرتضى رهنما من محافظة طهران.

٣- محمد كاظم حسن زاده من محافظة خراسان.

هذا وسوف يشارك الفائز الاول في كل من المراحل الاربعة، في المسابقات الدولية التي تقام سنوياً في طهران ويشارك الفائز الثاني في المراحل المذكورة،

في المسابقات الدولية التي تقام سنوياً في ماليزيا.

ومن الجدير بالذكر أن معظم المشاركين في هذه المسابقات، سوف يتشرفون بزيارة بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف، في موسم الحج القادم (١٤١٣هـ) وبزيارة للمرقد المطهر للسيدة زينب -سلام الله عليها- في سوريا.

بث برنامج أسبوعي قرآني من تلفزيون الجمهورية الاسلامية الايرانية

بدأ قسم الثقافة والمعارف في تلفزيون الجمهورية الاسلامية ببث برنامج أسبوعي تحت عنوان «سيماي قرآن» (أي: شمائل القرآن الكريم)، وجاء هذا البرنامج الذي يعنى بالشؤون القرآنية في ثلاث عشرة حلقة، وهو يتكون من أقسام، منها:

التعرف على حياة الانبياء(ع)، التعرف على المراكز القرآنية والكتب التي صدرت حول القرآن الكريم، التعرف على مشاهير قراء القرآن الكريم في العالم، إجراء مقابلات مع كبار القراء والحفاظ في الجمهورية الاسلامية، الأخبار القرآنية ومسابقة أسبوعية تطرح فيها أسئلة حول القرآن الكريم على المشاهدين.

تقرير عن سفر عدد من مشاهير قراء القرآن الكريم الى الجمهورية الاسلامية

قدم تسعة من كبار الاساتذة والقراء المصريين، خلال السنتين الماضيتين، ضمن أربعة وفود متفرقة الى الجمهورية الاسلامية لعرض تلاوة القرآن الكريم في المجالس والمناسبات المختلفة، وفيما يلي تقرير موجز عن سفرهم:

أ- بمناسبة حلول عشرة الفجر المباركة، الذكرى الحادية عشرة لانتصار الثورة الاسلامية في إيران، وإثر دعوة من قبل إذاعة القرآن الكريم، وصل اثنان من كبار القراء، وهما فضيلة القارئ الشيخ راغب مصطفى غلوش وفضيلة القارئ الشيخ محمد أحمد بسيوني، في شهر رجب لعام ١٤١٠هـ «الموافق لشهر بهمن لعام ١٣٦٨ش» الى البلاد، وأحدثت زيارتهما موجة من الاحاسيس والمشاعر الحميمة من عشاق القرآن الكريم في أنحاء الوطن

الاسلامي، حيث كانت أول زيارة يقوم بها القراء المصريون للبلاد منذ انتصار الثورة الاسلامية في إيران، وقد أقام هذان المقرئان أكثر من شهر في البلاد، قاما خلالها بتلاوة القرآن الكريم في عدة مدن، واستقبلوا فيها استقبالاً حاراً من قبل عشاق القرآن الكريم من أبناء الشعب الايراني المسلم.

ب- بمناسبة حلول عشرة الفجر المباركة، الذكرى الثانية عشرة لانتصار الثورة الاسلامية، واستجابة لدعوة قدمتها منظمة الاوقاف والأمور الخيرية، فقد قام اثنان من مشاهير قراء القرآن الكريم، وهما فضيلة القارئ الشيخ محمد أحمد بسيوني وفضيلة القارئ الشيخ الشحات محمد أنور، في شهر رجب لعام ١٤١١هـ والموافق لشهر بهمن لعام ١٣٦٩ش، بزيارة للبلاد دامت أكثر من شهر، وقد قاما خلاله بتلاوة القرآن الكريم في المجالس والمناسبات التي أقيمت في العديد من المدن بهذه المناسبة الكريمة، وقد أحدثت تلاوتهما تفاعلاً رائعاً من الحضور مع كتاب الله العزيز.

ج- بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك، وإثر دعوة موجهة من قبل إذاعة القرآن الكريم، وصل إثنان آخران من مشاهير القراء، وهما فضيلة القارئ الشيخ محمود صديق المنشاوي وفضيلة القارئ الشيخ شعبان عبد العزيز الصياد الى أرض إيران الاسلام في أوائل شهر رمضان المبارك لعام ١٤١١هـ والموافق لشهر فروردين لعام ١٣٧٠ش، وكانت تلاوتهما تبث على الهواء مباشرة عبر القناة الاولى للتلفزيون الايراني، ويغطي عرضها جميع أنحاء البلاد وبعض الدول العربية والاسلامية.

د- بمناسبة الذكرى الثانية لرحيل قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الاسلامية الايرانية، سماحة الامام الخميني -رضوان الله تعالى عليه- واستجابة للدعوة وجهتها اللجنة المكلفة بإقامة هذه المراسم، فقد قدم الى إيران أربعة من كبار الاساتذة والقراء، وهم فضيلة القارئ الشيخ أبو العينين شعيشع وفضيلة القارئ الشيخ محمد محمود الطبلاوي وفضيلة القارئ الشيخ أحمد الرزيقي وفضيلة القارئ الشيخ أحمد محمود علي البنا، للمشاركة وتلاوة القرآن الكريم في المراسم التي أقيمت في البلاد

بهذه المناسبة الأليمة، وقد وصل هذا الوفد الى البلاد في شهر ذي القعدة لعام ١٤١١هـ «الموافق لشهر خرداد لعام ١٣٧٠ش» واستغرقت زيارتهم ثمانية أيام، وقد قاموا بتلاوة القرآن الكريم بجوار المرقد المطهر للامام الخميني في مقبرة «جنة الزهراء» وفي حسينية جماران الملاصقة لبيت القائد الراحل، وقد حضر هذه المراسم عشرات الآلاف من المعزين من أبناء الشعب الايراني والمسلمين الذين قدموا الى البلاد لتقديم التعازي بهذه المناسبة الاليمة.

ومن الجدير بالذكر أن هناك نشاطات أخرى مختلفة أقيمت خلال حضور كل من الوفود الاربعة في البلاد وفيما يلي أهم تلك النشاطات:

أولاً- تلاوة القرآن الكريم بجوار المرقد المطهر لثامن الأئمة الامام علي بن موسى الرضا -عليه السلام- في مدينة مشهد المقدسة.

ثانياً- مراسم تلاوة القرآن الكريم بجوار المرقد المطهر للسيدة معصومة -سلام الله عليها- بنت الامام موسى بن جعفر -عليه السلام- في مدينة قم المقدسة.

ثالثاً- مراسم تلاوة القرآن الكريم بجوار المرقد المطهر للامام الخميني -رضوان الله تعالى عليه- في مقبرة جنة الزهراء.

رابعاً- مراسم تلاوة القرآن الكريم بحضور ولي أمر المسلمين قائد الثورة الاسلامية سماحة آية الله السيد الخامنئي -حفظه الله-.

خامساً- مراسم تلاوة القرآن الكريم بحضور رئيس الجمهورية الاسلامية حجة الاسلام والمسلمين الشيخ هاشمي الرفسنجاني.

سادساً- مراسم تلاوة القرآن الكريم في بيت الامام الراحل -رحمة الله عليه- والالتقاء بنجله حجة الاسلام والمسلمين السيد أحمد الخميني.

سابعاً- إجراء مقابلات مع الاذاعة والتلفزيون للاجابة على أسئلة عامة حول تلاوة وحفظ القرآن الكريم، حيث أعرب أعضاء الوفود الاربعة في هذه المقابلات عن شكرهم وامتنانهم للمسؤولين الايرانيين وللشعب الايراني المسلم إزاء ما بذلوه من جهد ورعاية في استقبالهم، وفيما يلي جانب من هذه الردود على الاسئلة الموجهة إليهم:

«الامة التي يكون قائدها من عشاق القرآن الكريم وحماته «كما هو الحال في قائد الجمهورية الاسلامية»، لابد أن تكون هي كذلك مهتمة بالقرآن الكريم، وهذا ما شاهدناه بوضوح لدى الشعب الايراني المجاهد».

«قبل مجيئنا الى إيران لم نكن نتصور أن يكون أبناء الشعب الايراني على هذه الدرجة من الالتزام بالاسلام وقيمه الرفيعة».

«ما شاهدناه في هذا البلد يدل على الرغبة الحقيقية لدى شعبه وحكومته في تطبيق الاسلام، بخلاف ما نشاهده في كثير من الدول الاسلامية...»

«لم نعرف حتى الآن من بين قادة الدول الاسلامية قائداً كمرشد الجمهورية الاسلامية، يعيش القرآن الكريم بروحه، ويمتزج بلحمه ودمه».

هذا وقد تلقت كل من أعضاء الوفود الاربعة هدايا تقديرية من قبل المسؤولين الايرانيين وفي مقدمتهم قائد الثورة الاسلامية سماحة آية الله السيد الخامنئي -حفظه الله-.

اقامة مسابقات القرآن الكريم ونهج البلاغة، الخاصة بالطلاب والطالبات في المدارس الايرانية

أجرت وزارة التربية والتعليم الدورة التاسعة لمسابقات القرآن الكريم والدورة السادسة لمسابقات نهج البلاغة، الخاصة بالطلاب والطالبات في كل من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية في إيران. وقد أجريت المسابقات في شهر صفر لعام ١٤١٢هـ «الموافق لشهر مرداد لعام ١٣٧٠ش» في مدينة كرمان واستمرت لمدة أسبوعين، وقد شارك فيها أكثر من ٤٥٠ طالباً وطالبة من الذين فازوا في مسابقات أجريت من قبل على مستوى المدارس والمدن والمحافظات.

وفي نهاية المسابقات قدمت للفائزين هدايا ثمينة من قبل المسؤولين في وزارة التربية والتعليم.

المراكز القرآنية

ستقوم المجلة إبتداءً من هذا العدد، بالتعريف لأحد المراكز القرآنية في الجمهورية الاسلامية وخارجها. لذا نرجو

من المؤسسات القرآنية الموقرة، مساعدتنا بإرسال التقارير الوافية عنها وعن نشاطاتها وأهدافها.

كلية إعداد معلمي القرآن الكريم

«إنَّ هذا القُرآنَ يَهدي للّتي هيَ أقوَمُ ويُبَشِّرُ المُؤمنينَ الّذينَ يَعمَلونَ الصالِحاتِ أنّ لَهُمْ أجراً كَبيراً» (الاسراء:٩)

نظراً لاهمية القرآن الكريم في حياة الفرد والمجتمع المسلم، واستجابة لنداءات القرآن الكريم والاحاديث الشريفة في التفكر والتدبير والعمل بآيات الله، أقدمت منظمة الاوقاف والامور الخيرية على إنشاء كلية متخصصة بدراسة القرآن الكريم تحت عنوان «كلية إعداد معلمي القرآن الكريم».

أهداف الكلية:

أ- إعداد الاساتذة والمحققين المتخصصين في الحقول القرآنية المختلفة من قبيل التجويد وقواعده وكتابة الخط القرآني وغيرها وتبادل الاساتذة والطلاب مع المراكز القرآنية العالمية.

ب- العمل على رفع مستوى الطلبة في الثقافة والمفاهيم والاخلاق القرآنية.

ج- توفير الظروف المناسبة لإرسال المحققين والمعلمين والمقرئين الى سائر بلدان العالم.

د- توفير الظروف والامكانات اللازمة للقيام بالدراسات العلمية التخصصية.

هـ- توظيف الطاقات القرآنية الكافية في الحوزات وغيرها من المراكز العلمية.

و- الاستفادة من المناهج والنشاطات العلمية القرآنية في جميع المؤسسات المنتشرة في العالم.

ز- طبع الكتب والكراسات القرآنية بلغات مختلفة.

وقد تم افتتاح الكلية في عام ١٤١٠هـ (الموافق لعام ١٣٦٨ش)، بمناسبة أعياد عشرة الفجر المباركة ذكرى انتصار الثورة الاسلامية، واستقبلت الكلية ٣٠٠ طالباً وطالبة بعد اجتيازهم إمتحانات القبول والقابلة.

بعض المناهج الدراسية في الكلية:

١- التاريخ الاسلامي.

٢- المنطق.